رواية



6.12.2022

جوزيّه كونته

دانتي في حبّ



ترجمة: نبيل رضا المهايني

جوزيبّه كونته

دانتي في حبّ

ترجمة : نبيل رضا المهايني





اسم المؤلف: جوزيّه كونته	Author: **Giuseppe Conte**
عنوان الكتاب: دانتي في حبّ	Title: **Dante in Love**
ترجمة: نبيل رضا المهايني	Translated by: **Nabil Reda Al Mahaini**
الناشر: دار المدى	P.C.: **Al–Mada**
الطبعة الأولى: **2022**	First Edition: **2022**

ترجم هذا الكتاب بمساهمة وزارة الخارجية
والتعاون الدولي الإيطالية



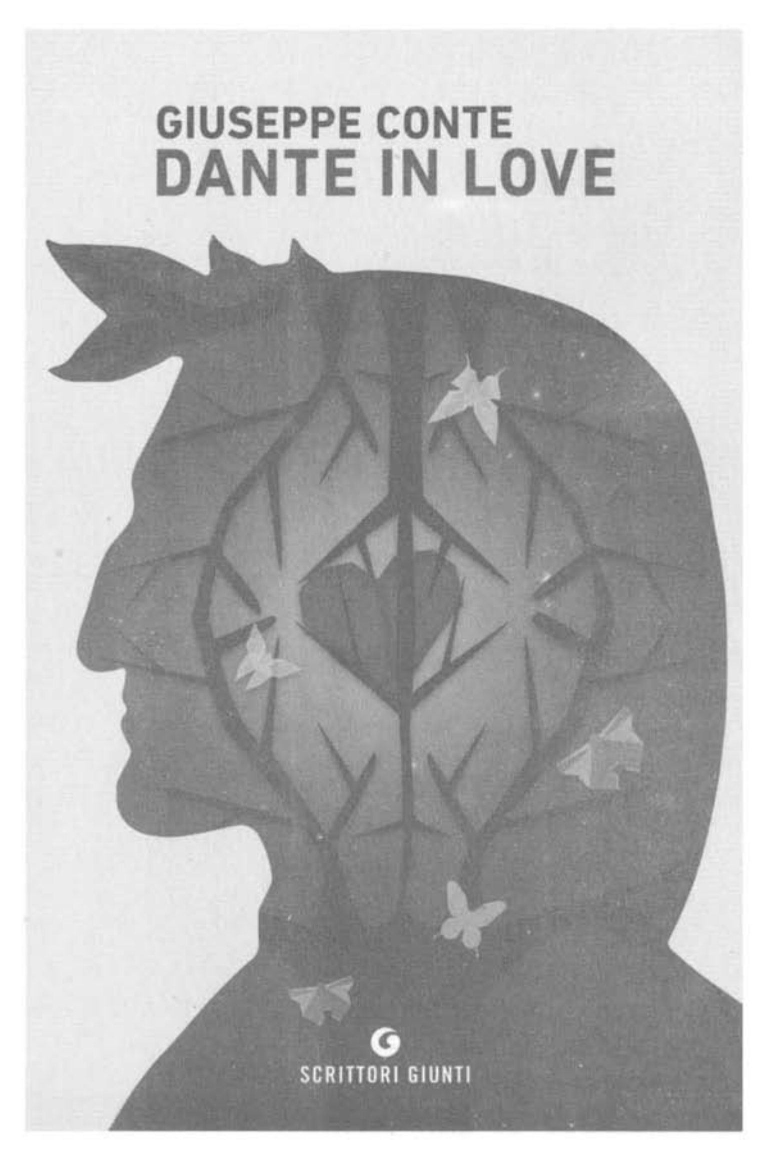
للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 780 808 0800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس
Beirut: Bchamoun - Schools Street
+ 961 175 2617 + 961 706 15017
+ 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street
+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289 ص.ب: 8272

Questo libro è stato tradotto grazie
a un contributo assegnato dal
Ministero degli Affari Esteri e della
Cooperazione Internazionale italiano



غلاف الكتاب في الأصل الإيطالي

حبٌّ تجلّى لي

-I-

كان النّهار قد انقضى وحلّت ساعة المغيب

حسناً، ها أنذا هنا حتّى في هذه الليلة. دعوني ألتقط أنفاسي. فلا بدّ أنّي الآن في أسوأ مظهر. لأنّ رحلتي كانت طويلة، من حيث جئت إلى هنا.

لقد غابت الشمس لتوّها خلف أسطح المدينة وقبابها وأبراجها، مثلما يحدث كلّ مرة. لكنّ الظلام ليس حالكاً بعد. انظروا، فهو ينتشر في الهواء بين الشوارع والمنازل انتشار مياه داكنة اللون. بينما تتلاشى الظلال الطويلة التي كانت تلقيها المباني والمارّة على الأرض. لكنّ كلّ شيء أخذ الآن لونه. أصبح كلّ شيء مجرّد ظلّ.

بما في ذلك أنا.

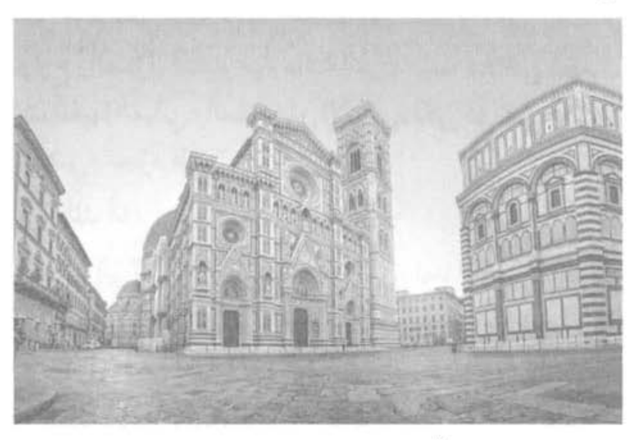
هل تصغي إليّ؟ هذا زماني وهذا موسمي. لقد انقضى الاعتدال الربيعيّ لتوّه. ما زالت ساعات الظلام متوازنة مع ساعات الضياء. ستخرج الآن الشياطين والأرواح والأشباح من النوم وتختلط بالبشر، استعداداً لزيارة أحلامهم.

أذكر أنّ المشاعل كانت في مثل هذه الساعة تضاء، ذات مرّة، داخل أسوار المدينة. فكان الناس يعودون إلى بيوتهم، أو كانوا يتحسّرون عليها إذا كانوا بعيدين عنها، وحيدين، منفيّين. كان البحّارة يشعرون في قلوبهم بالحنين إليها وهم يخرجون من المرافئ، في مواجهة الوحدة التي تفرضها الريح والأمواج. أذكر أيضاً أنّ النجوم كانت تشتعل في مثل هذه الساعة، آلاف النجوم، متراصّة تراصّ الأعشاب في الحقل.

لقد وصلت. وأنا وحيد، مثل جميع المرّات السابقة. سأجلس الآن في أسفل المعموديّة. هذا البناء المثمّن الأضلاع المكسوّ بالرخام الأبيض والأخضر... رخام منطقتيْ كارّارا وبراتو... وهنا أتوقّف، كأنّ هذا هو بيتي. لكنّه ليس لي بيت، لم يكن لي بيت منذ وقت لا يعلمه أحد.

استلقيت على الأرض، ورفعت رأسي إلى الأعلى، لكن لا جدوى من النظر إلى فوق. بالكاد تستطيع أن ترى القمر وسط الأبخرة والغيوم التي تأتي وتذهب. الزهرة، الزهرة فقط هي التي تضيء، إنّها نجمة المساء، هي الوحيدة التي تنبض بالحياة لدرجة أنّها تسمح لعينيّ بالإمساك بها. السماء فارغة، مكدّرة.

ها أنذا هنا، تحيط بي معموديّة سان جوفانّي، وكاتدرائيّة الدوّمو[1] وبرج الناقوس. تحلّق فوقي. تحميني. تبدو لي عندما أستلقي تحتها، أنّها أطول ممّا هي في الواقع، بل كأنّها صنعت من سرو، كأنّها أشجار حور تحجّرت منذ عصر بعيد.



معموديّة سان جوفانّي وكاتدرائيّة الدوّمو وبرج الناقوس في فلورنسا

بدأت الأضواء الاصطناعيّة تشتعل، هذه الأضواء المكدومة، بلا جسم،

1- بناء معموديّة القدّيس يوحنا المعمدان (النبي يحيى عليه السلام) وبناء كاتدرائيّة الـ Duomo وبرج الـ Campanile.

التي لا أعرف من أين تأتي، وتذهب إلى كلّ مكان... لم أعتد عليها أبداً. أشعر بالحنين إلى المشاعل، إلى النيران. فأنت ترى مصدرها ومن أين تأتي، وهي لا تفتأ ترتفع إلى الأعلى، تطلق حولها الشرر ولها جسم من ألسنة اللهب.

أشعر بالحنين إلى النيران، إلى النجوم، إلى أشياء كثيرة أخرى.

أوه، انظر من القادم، يا لهذا الشعر الأشقر والأجعد على رأسها، كالبنات اللاتي يجذبنني بالفعل، كما كنّ حقّاً يجذبن أيضاً صديقي غويدو. ما أجمل ميس هذه الخطى، ستكون أمامي بعد برهة. سأشير إليها بالتحيّة، لا شيء مثير حقّاً، إشارة وكفى. فهي لن تراني، في كلّ الأحوال.

جميل أن أرى الآن كثيراً من الناس وقد عادوا إلى هنا حولي. لأنّ أمراً جللاً لا بدّ أنّه حدث في العام الماضي في هذه المدينة، أو ربّما في جميع أنحاء العالم، ولم أفهم ما هو. كأنّ تهديداً غامضاً كان قد جاء، ولا أحد يعرف من أين جاء، أثقَلَ الهواء فجعله غير صالح للتنفّس. لم يكن يوجد أحد هنا. كانت أبواب جميع المتاجر تقريباً مغلقة، وأضواء واجهات المتاجر مطفأة، ثمّ حطّت طيور النورس فوق الساحة، كأنّها بقع بيضاء وسط غبار الظلام. لم يكن أحد وقتها قادراً على الدخول إلى الكاتدرائيّة أو إلى المعموديّة. بينما كان المارّة القليلون يخفون وجوههم، كانوا يضعون قطع قماش زرقاء أو بيضاء على وجوههم[2]، وكلّ منهم منزو لوحده، كأنّه يخشى الاقتراب من الآخرين. فكّرت حينها وقلت في نفسي إنّه نوع من الكرنفال، كرنفال شديد عنيف، كرنفال الموت.

هذا لا يعني أنّني أحبّ الصخب، والحشود، واختلاط اللغات كاختلاطها في بابل، ممّا يجري حولي الآن من جديد. لا، بل هو من أجلهنّ، من أجل الجميلات الموجودات وسط الحشود، من أجل قسماتهنّ التي يمكنني أن أراها مرّة أخرى. كثيرات هنّ الجميلات، وهنّ مختلفات، لا ينقطعن أبداً عن تجريح قلبي.

2- قناع الحماية الذي تم فرض ارتدائه في جميع أنحاء العالم في عام 2020 بسبب جائحة كورونا كوفيد 19.

أصبحت الآن أمامي تلك الفتاة الشقراء ذات الشعر الأجعد: فنظرت إلى شفتيها، إلى النقطة التي يجتمع فيها جمال الوجه، حيث يثقل لحم الجسد وتشتد حلاوته الغامضة. ثمّ إلى العينين: وليس في العينين لحم، لكنّ فيهما قوّة جذب غير ماديّة، شبيهة بانعكاسات الشمس على صفحة الماء. يعيش الحبّ في العيون، ويمرّ عبر العيون ليعبر نحو القلب، هكذا كان يكتب أصدقائي، وهكذا كنت أنا أكتب ذات يوم.

أستعرض أمامي أولئك الداخلون إلى الكاتدرائيّة، أنظر إليهم، لا يدخل أحد منهم ليصلّي أو ليستمع إلى القدّاس، بل يذهبون لالتقاط الصور بتلك المعدّات الصغيرة المستطيلة التي ينبعث منها وهج فوريّ يضيء في الظلام، ويزعجني لأنّه يجعلني أفكّر بذلك الوهج الذي اختفى الآن، وهج اليراعات والنجوم.

إنّهم يتركون أبواب المعموديّة مفتوحة أمام الزوّار حتّى أولى ساعات الليل. وهناك منهم الكثير من جديد.

هناك الآن زوجان ينظران بتشتّت إلى قبّة المعموديّة، فيرفعان عيونهما عن كتيّب مستهلك ثمّ يخفضانهما مرّة أخرى، فتلتقط هي صورة له، ثمّ هو لها، ثمّ يطلبان من أحد المارة أن يصوّرهما معاً وراء تلك الخلفيّة.

يتحدّث الاثنان بلغة لا أعرفها، لكنّي أسمعها منذ سنين وسنين تهدر كثيراً في هذه الأنحاء. يبدو أنّهما هنا بداعي الواجب ومن الواضح أنّهما لا يريان ساعة الهروب إلى أمكنة أخرى غير مثقلة كهذه بكثير من التاريخ، وأن يعودا إلى غرفتهما في الفندق ليتطارحا الغرام. يا الله، لا بدّ أنّهما سيحسنان صنعاً في العودة.

تسير أمامي جماعة، صفّ منتظم من رجال ونساء، أكثرهم من كبار السنّ، بملابس أصبحت من سنة إلى أخرى كلّها متشابهة: سراويل تصل إلى الركبة، بل والأسوأ من ذلك إلى ربلة القدم، وسترات عليها كتابات كبيرة غير مفهومة بالنسبة إليّ، وأحذية بنعل غليظ من المطّاط أو صنادل تحيط تقريباً بأقدام مغطّاة بجوارب صوفيّة.

أصبح الجميع الآن يضعون على وجوههم تلك القطعة القماشيّة البيضاء، يسيرون كنعاج مجنونة وراء دليل ذراعه ممدودة إلى الأعلى ويحمل في يده

مظلّة صفراء بلون الكناري. كلّهم ذوو قامة قصيرة، وحركات منتظمة، لا بدّ أنّهم قادمون من شرق لم أكن أعرف عنه شيئاً، لكنّي أشعر الآن أنّه غنيّ وقويّ، ويحافظ على شعور بالنظام ضاع هنا.

لقد سمّيتهم نعاجاً مجنونة، لكن ليس في هذا ما يكافئ انتظامهم من جانبي... فهناك نعاج مجنونة أخرى أشدّ جنوناً من هذه، وهي ترعى وتتناطح في هذه الأنحاء، تصرخ وتسخر وتعضّ على شرائح بيتزا تقطر صلصة حمراء وتغنّي أغاني قذرة.

لقد نسي هؤلاء تلك الليالي المقفرة، مثل الليالي التي عشتها أنا خلال السنة الماضية، حين كنت لا تسمع إلّا أبواق سيّارات الشرطة أو سيّارات الإسعاف، حين كانت أبواب المقاهي مغلقة وواجهات المحلّات مغطّاة بالغبار، والأضواء مطفأة حتّى قبل منتصف الليل... لا أدري كم كانت الساعة، لكن مهما كانت فقد نسوها.

يعيشون كما يتسنّى لهم، يوماً بيوم، من غير أن يتساءلوا أبداً عن أيّ شيء، سعيدين وسط ضجيجهم وجهلهم. هذا ما أظنّه، حتّى لو كان عليّ ألّا أحكم بعد الآن على أحد، فإنّي لا أشتهي ذلك ولا أملك الحقّ في فعله. وعليّ أن أحكم على نفسي فقط.

إنّهم يدخلون الآن، فيتفرّق الصفّ داخل المعموديّة. أنا لا أريد بعد الآن أن أدخل. أبداً. سأبقى أسفل جدرانها الخارجيّة. أقف في أكثر الأحيان، كما أفعل الآن، ملتصقاً بأحد جدرانها التي تواجه الكاتدرائيّة. هذا يكفيني. لا أدخل لأنّ لي ذكريات ما زالت تلاحقني حتّى الآن. فقد حدث لي هناك في الداخل، على برك التعميد، أمر انعكس على حياتي بطريقة حادّة... من هناك، من هناك بالذات، بدأ دماري.

ومع ذلك، فإنّي أحبّ القدّيس يوحنّا. هو المكان الذي أعود إليه، حيث أبقى طيلة ساعات الليل، ولا يمكنني ألّا أفعل ذلك.

هل تسمعني؟ لا أدري لماذا أتحدّث إليك، لماذا أروي لك هذا كلّه، وأقصّ عليك أحداث تلك الليلة. كانت الليلة السبعمئة، ليلة قبل ذلك أو ليلة بعد ذلك، كان من الصعب متابعة العدّ.

أودّ أن أثق بك، أن أحدّثك، كما كنّا نتكلم إلى أصدقاء صباي، إلى غويدو. كان غويدو رائع الجمال، حاضر الذهن ورشيق الجسم، كان أوّل أصدقائي، ذلك الذي أحببته أكثر من غيره والذي أسأت إليه أكثر من غيره...

إنّك لا تراني لكنّي أقترب، سأمسك بذراعك وأنظر في عينيك: أخي، توقّف لبرهة، أريد أن أروي لك ماذا حدث لي وما زال يحدث. أعرف أنّه من الصعب تصديق هذا، لكن صدّقني أنت، اصغ لي.

من أنت؟ أنا أستطيع فقط أن أسمع نفسي. لكنّ طبيعتي تدفعني لأن أتخيّل، أن أتظاهر، وسأتظاهر هذه الليلة أنّك ستتمكّن من الاستماع إليّ، أيّها الكلب، يا أخي، الذي لا أعرف من أنت، ومن أين أنت، لو أنّ بوسعي أن أعرف ما هي الظروف الغريبة والخارجة عن العالم التي أرزح تحتها. لا أستطيع بعد حتّى أن أتوجّه إليك قائلاً: «انظر أيّها القارئ»، كما كنت أفعل ذات مرّة. لأنّي لم أعد أكتب، وعليّ أن أجد الشجاعة لأكشف لك السبب.

لا أرى أبداً الكثير أبعد من بناء المعموديّة، أبقى ضمن مسافة أمان، لأراه ولأتمكّن من بلوغه بسرعة. لا أدري، لماذا رأيت في الحال أنّه مرسى موثوق في خضمّ بحر الوجود الكبير، هذا البناء المثمّن الأضلاع من المرمر الأخضر والأبيض، هو مثل مرفأ بالنسبة إلى زورق اجتاز كثيراً من العواصف القاتلة.

أبقى هنا لأنّي أخشى أن أضيع. إنّي لم أعد أعرف مدينتي. ولا أريد أن أضلّ الطريق، هذا فظيع. على كلّ فأنا لا أعرف إلى أين أذهب. لا أحد ينتظرني، ولا أنا أنتظر أحداً. يكفيني أن أبقى حيث أنا، في قلب المدينة القديم، وهذا رائع الجمال هنا، بين جدران قدّيسي يوحنّا والكاتدرائيّة.

أشعر أنّي في أمان. لا يخطفني الليل هنا. بل يداعبني فقط، كأنّه بحر هادئ تعبره دروب الزبد تحت انعكاسات القمر.

أمكث هنا، تعيساً لكن بقدر، لأنّي لم أعد قادراً على الشعور العميق بالتعاسة، لأنّي غير قادر على الأحلام. لا أشعر بالحرّ، ولا العطش، ولا الجوع، ولا بالأمطار إذا هطلت، لا أشعر بأيّ شيء، ووحيد.

الحقيقة أنّ لي جاراً، مشرّداً، شابّاً نحيل الجسم جدّاً، بطنه تبدو جوفاء،

كوعان وركبتان بارزتان، لكنّ الوجه أصفى ممّا يمكن تخيّله في وضعه، عينان زرقاوان عميقتان، شفتان رقيقتان، شعر أشقر مجموع في جدائل صغيرة كثيرة.

يوجد اليوم في فمه أسطوانة صغيرة من ورق أبيض، على الطرف الأيسر من شفته، تصدر خيطاً من الدخان المزرقّ. يمكث هو أيضاً جاثماً بظهره المسنود إلى دار المعموديّة، يرتدي قميصاً من قماش أزرق له ياقة مهترئة مسودّة من الوسخ، وسروالاً طويلاً ممزّقاً تشقّق أسفله.

إنّه أسوأ منّي حالاً. يحتفظ داخل سلّة معدنيّة إلى جانبه ببطانيّة وكتاب وحتماً ببعض علب البيرة. إنّه يشرب كثيراً، بل ربّما لا يتغذّى إلّا بهذا، وغالباً ما يذهب بعيداً، وهو يتمتم أو يغنّي بينه وبين نفسه، وعلى ما أعتقد فهو يكون في ذلك الحين يبحث عن مكان يتبوّل فيه.

كانت الوسيلة الوحيدة لطرد حزني المعتدل هذا هي النظر إلى الجميلات وهن يمررن أمامي.

دعني أريك إيّاهنّ أنت أيضاً. دعني أحدّثك عن رغباتي القديمة. كانت هناك في البداية تلك ذات الشعر الأشقر الأجعد، الشبيهة بالراعية التي التقى بها صديقي غويدو ذات مرّة في الغابة، فأخذها على مرج مزهر. وهناك الآن واحدة ذات شعر أسود أملس ينسدل من رقبتها على طول الجانب الأيمن من جذعها حتّى خصرها. إلى هذا الحدّ وصل بي الحال. يجب أن أعدّ ستّين منهنّ:

عدد الملكات ستّون، وثمانون عدد الوصيفات
لكنّ صبايا النساء لا يمكن تعدادهنّ.

هكذا كتب سليمان[3] في *نشيد الإنشاد*. ألم يكن هو، أغنى الأغنياء وملك العالم الحكيم؟ لم يكن يكتفي البتّة من الحبّ. هل كنت تعرف هذا؟

3- يؤسفني أن أترجم في هذا الكتاب مقاطع فيها تجديف غير مقبول على أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام. لكن، والحقّ يقال، فإنّ تجديف الكتاب يعود إلى ما ذكر في العهد القديم من إسرائيليّات، وخاصّة فيما يتعلّق بداود وسليمان عليهما أفضل السلام. ويقال الشيء نفسه في تجديف الرواية في العلاقة بين الله والإنسان وتصوير العليّ الجليل بأشكال وأوصاف غير لائقة. (م)

قالوا إنّه امتلك ابنة فرعون وعدداً كبيراً من النساء الأجنبيّات، معابيّات وعمونيّات وإيدوميّات وصوريّات وإيتينيّات... سبعمئة زوجة من الأميرات وثلاثمئة وصيفة، وقالوا أيضاً إنّ أجمل هؤلاء عملن على انحرافه عن الإيمان الحقيقيّ ودفعنه لعبادة آلهة العمّوريّين مثل عشتروت وميلكوم، ذلك من شدّة سلطان الغرام على نفسه.

وكان أبوه داود الذي تمكّن من هزيمة جالوت العملاق، قد ركع أمام الغرام. ويقال إنّه عندما رأى خروج بثشبع بنت عميئيل وزوجة أوريا من الماء، اشتعل مباشرة بالغرام، وأرادها في سريره ثمّ امتلكها في الحال فحبلت منه. ولم يكتف بهذا بل أرسل أوريا المخلص له إلى حصار بلدة الربّة وحمّله رسالة إلى الجنرال جوب تحتوي على تعليمات بإرساله إلى الخطوط الأولى وهجره خلال المعركة ليقتل فيها ويموت.

هذا فظيع، هل فكّرت في الأمر؟ أن يختلط الغرام بمشاعر الملكيّة وبالقسوة والخيانة. وهذا موجود حتّى في نفس من غنّى أجمل الأناشيد تبجيلاً لله:

إلهي أنت نوري وخلاصي،
فمن أخشى؟
الله هو دعامة حياتي،
فمّمن أخاف؟

لا بدّ أنّ الملك داود كان يخاف فقط من نفسه، مثلنا جميعاً، من جوعه إلى الجمال الأرضيّ، والخضوع للحبّ الدنيويّ، ودفء الجسد. كان كبيراً في السنّ، بحيث كان فريسة برد لا يمكن أن يدفعه عنه أيّ غطاء أو فرو أو نار مِجْمر، لذلك فقد طلب أن توضع عذراء في سريره، فأحضروا له أبيساج، القادمة من سنيم والتي عرفت منذ ذلك الحين باسم السنوميّة الجميلة. وبهذا فقط، رغم أنّه لم يكن بوسعه أن يقيم علاقة معها، تمكّن من تدفئة نفسه، فتوهّم، وهو يشعر بصلابة جسدها واكتنازه، بينما كان على وشك التخلّي عنها.

هل ندين هذا كلّه؟ ليس لي هذه المرّة أن أقول ذلك. فإذا كان سيّد الأكوان قد عفا عن داود، فماذا بوسعي أن أضيف أنا على ذلك؟

لا يمكن لي أن أتكلّم عن هذا من غير أن أشعر بقشعريرة الغضب، فلذّة الجسد هي لذّة بالنسبة إليّ. وقل لي أنت الذي لست كذوباً، فيما إذا كان حقّاً أنّ كلّ لذّة إنّما تنشأ من الجسد، وتعيش فيه، وتنطلق منه.

للجميع، للملوك والأباطرة، لـداود، وحتّى لقيصر، الذي كان هو الأعظم... والذي أراد أن يختبرها كلّها تلك الملذّات. كان جنوده يعرفون ذلك، يعرفون أنّهم سخروا منه بينما كان يحتفل بانتصاره في روما. كان هناك تقليد قديم يسمح بذلك: أطلقوا عليها اسم «ملكة». كلام خبيث، لكنّه مزوّد بحسن الخطاب، فسمّوه «زوج كلّ الزوجات وزوجة كلّ الأزواج»... لأنّ اللذة بالنسبة إلى الجميع هي في الجسد، بالنسبة إلى الملوك وإلى الفقراء، إلى الأباطرة وإلى المحرومين...

أغنّي في نفسي مثل سليمان، الذي خدع نساء أجنبيّات كثيرات، الذي استقبل في القدس ملكة أراضي الفجر، ملكة سبأ مع مواكب جمالها وأحصنتها وفيلتها البيضاء، الذي ناقشها بالغرام، الذي تعلّم في البداية منطق النمل، ثمّ جميع حيوانات الأرض والسماء والبحر:

عدد الملكات ستّون...

ستّون ملكة، ستّون امرأة، أجمل النساء... أوه، هناك مثلهنّ حقّاً، هذا ما أراه من هنا، من غير أن يتوجّب عليّ حتّى أن أتحرّك، هناك منهنّ، أجمل من بيستابيا وأبيذاج، ومعذرة من داود، بل وأجمل من هيلين، ومعذرة من باريس، ومثيرات أكثر من سمير أميس، وهذا يتّضح بومضة عين، أكثر من باسيفاي، ملكة كريت التي طلبت من ديدالو أن يجعل لها بقرة من خشب وجلد، وتعرف أنت أيضاً ماذا ستفعل بها. لكنّ الثور كان جميلاً، كان أبيض، يخرج من البحر وهو يقطر رغوة.

أرى أمامي جمالاً يختلف عمّا أعرفه، ممّا لم يكن لي أبداً ثمّ أبداً أن أتخيّل مثله. فلا أحيد نظري عنهنّ. يجذبنني ويجعلنني أرتعش، أبكي، يجرحنني في جنبي وفي قلبي كما كان يجري لي ذات مرّة.

إنّ أجمل نساء العالم هنّ نساء مدينة فلورنسا. وهنّ الأكثر صفاقة عندما

يكنّ صفيقات، والأشدّ عذوبة بينهنّ عندما يكنّ عذبات بحلاوة. لكنّي هنا أرى أنّ نساء من العالم أجمع يمررن أمامي.

انظر إلى تين الاثنتين، إنّهما طويلتان وشقراوان مثل مهرتين، أكتاف عريضة كأكتاف الرجال، صدر مكتنز، سيقان بيضاء مثل أعمدة معبد من الأجساد.

هناك بالقرب منهما صبيّة إفريقيّة، نحيفة مثل النخلة، لكن ممتلئة مثل جربة نبيذ حلو، انظر، انظر... كيف يشرئبّ ثديها صلداً، يتراقص تراقص الأرض وقت الزلازل، واستطال قفاها خلفها فتساءلت كيف تستطيع أن تحافظ على توازنها بذلك القفا البارز عن ظهرها؟ كما كان شعرها السواد، كثيف التجاعيد. تتبعها نظراتي بحماقة التقديس، أعرف ذلك، فأشعر بالضعف، بنوع من السعادة لا يتحقّق. أرى أنّ الإفريقيّات لا ينقطعن عن مفاجأتي، فهل يؤثّرن بك بهذه الطريقة؟

والنسوة المحجّبات، هناك منهنّ صبايا، لا يمكن لأيّ حجاب أن يخفي حسنهنّ، تصعق عيونهنّ تحت الجباه المغطّاة وفوق الأفواه والأنوف المحجّبة. كما لو أنّ النظرات تتفجّر من مغارة يعجز رجالهنّ عن حبس النظرات فيها.

والشرقيّات، وتتزايد أعدادهن على الدوام، مثل هؤلاء القادمات الآن، ذوات وجوه كالمنمنمات، ووجوه كحشرات بأجنحة شفّافة تتقلّب على مرآة زرقاء من الماء.

يسرن أمامي، لم تعرني واحدة منهنّ نظرة، لا أستطيع أن أنتظر التحيّة من أحد. يا لفرحتي بتلك التحيّة. لكن لا شيء. إنّها إدانة، هذه التي أعيشها. إنّ جمال الأجسام يؤلمني، يحيلني إلى عبد. كان عليّ أن أتعلّم كيف أتجاهله. مع أنّه لا شيء آخر قادر على إبعادي عن وضع المرارة المعتدلة وكسل اللامبالاة والملل.

- لقد تعبت من المكوث هنا. لقد تعبت من إعادة كتابة السجلّ، سجلّ قائمة أجمل ستّين امرأة بين نساء فلورنسا.

لقد اتُّهمت بتشكيل قائمة، تلك التي تعود إلى سنوات عديدة وعديدة، والتي كانت قد تضمّنت نساء صغيرات وسيّدات، قيل لي إنّه عليّ أن أخجل

من ذلك. ما أسهل قول مثل هذه الأقوال. إنّي لا أذكر شيئاً الآن، والغضب يحملني على إنشاء قائمة جديدة. كأنّي أقول لنفسي إنّي أستحقّ الإدانة. على كلٍّ فإنّي أعلم أنّ ذلك مستحيل، وأنّي لن أستطيع فعل ذلك أبداً: فصبايا النساء لا يمكن تعدادهنّ.

من هنّ اليوم أجمل ستّين امرأةً في فلورنسا؟ لكنّه من الأفضل التساؤل: من هنّ اليوم أجمل ستّين امرأة في العالم؟

يجب أن أضع علامة على كلّ واحدة تلو الأخرى، هكذا يمكن تشكيل قائمة، ولا بدّ من معرفة الأسماء التي توضع. ويجب أن يكون لديّ ورقة وقلم لأكتب الأسماء. وليس عندي منهما شيء.

ماذا يمكن أن يكون اسم تلك التي تمرّ الآن، ذات الشعر الكستنائيّ، والوجه البيضويّ الشاحب، والعينين اللوزيتيّن الواسعتين، ليست طويلة لكن ممشوقة القدّ، حتّى ليبدو أنّها تميل شيئاً ما وستقع فوقي؟ سأضعها في القائمة، هذا أكيد.

تستحقّ ستّون منهنّ مكاناً في القائمة. هذا يؤسفني بالنسبة إلى سليمان، أقول أيضاً لما يزيد على ثمانين بل على ثمانيمئة بل ثمانية آلاف. فليس للجمال عدد، ليس له نهاية.

في المرّات القليلة التي كنت أنهض فيها من هذا المكان... من غير أن أبتعد عنه أبداً، لأنّه هو مرساي كما قلت لك، هو مركز ثقلي... كنت أصل إلى كشك يبيع الصحف. الصحف، لم أكن أعرف ما هي بالضبط، لكنّي تمكّنت سنة بعد سنة، تمكّنت كما ترى، أن أتعلّم.

في السنة الفائتة كان مغلقاً، وهو مغلق هذا المساء، شيء ما يخبرني أنّه لن يفتح أبداً من جديد. زاغت عيناي حول صور مرسومة لنساء صبايا، الأسماء موجودة عليها، بل وبحروف كبيرة لا يمكن لها أن تخفى عنّي، غير أنّها أسماء صعبة على الحفظ في ذاكرتي، لم أكن أعرف من هنّ أولئك النسوة، ولا لماذا كنّ هناك، ما هي المزايا أو العيوب التي يمكن أن تكون قد سبّبت في وضعهنّ على غلاف تلك الصحيفة، على مرأى من الجميع. قد يكنّ أميرات من دم ملكيّ أو غير ملكيّ، أو رابحات في مسابقة ما، أو

مغنّيات، ممثّلات، أو ربّما نساء بلغن مكانة بارزة في حقل لا أتوقّعه أبداً، أي في السياسة التي كانت بالنسبة إليّ هواية مريضة هدمت حياتي.

بعض الوجوه التي كنت أراها في الصحف، كنت أراها أيضاً في ذلك الجهاز الذي تعلّمت أن أسمّيه تلفزيوناً، الملصوق على جدار مقهى قريب من هنا... بعض الشقراوات بلحم وعظم، وأخريات شقراوات ونحيفات حتّى ليظهرن كأنّهن من جليد، بعضهنّ بجلد كالزبدة، وأخريات بجلد كالنحاس... كم هنّ كثيرات، وبتلك الأسماء الشيطانيّة التي يصعب على الذاكرة أن تحفظها، أسماء غريبة، أجنبيّة... كاتي، ميشيل، ميغان، جنيفر...

يمكن لي أن أضحك من نفسي وأصنع قائمة لنساء الشاشة: يمكن لي أن أسمّيهنّ هكذا... لكنّي لا أثق بصور التلفزيون، ولا بصور الصحف. وقد عشت لوقت طويل من دونها. أريد أن أرى، أن أشعر، وأن ألمس، إذا كان هذا ممكناً. فأنت ترى جمالَ أيّ كائن حيّ في حركته، في اتّساق جسمه واهتزازاته. أمّا الصورة غير المادّيّة فلا يمكن لها أن تكفيني. فهل تكفيك أنت؟

يبدو لي اليوم أنّك تعيش أنت وأشباهك في الشاشات الكبيرة، أو الصغيرة التي توضع على راحة اليد، بصور فانية تظهر وتختفي بلمسة إصبع، ولن تحتاج بعد شيء من الوقت إلى أيّ شيء آخر، لا تحتاج إلّا إلى أنامل أصابعك، هذه وحسب، ويمكن لك أن تنسى كلّ ما تبقّى من الجسد.

إنّك لا تعلم ما معنى أن تفقد الجوهر، ثقل الجسد بكلّ اكتنازه وأوجه العيب فيه. لأنّك اعتدت العيش على السطح، في حاضر بلا مادّة، في ضوء ليس هو ضوء الشمس ولا القمر. وأخشى أنّك لا تعرف إلّا القليل عن الموت، لأنّك لم تعد تعرف امتلاء النفس وحياة الحواسّ.

جميلة هي حياة الحواسّ. دعني أخبرك بهذا. فلقد بقي لي ثلاث حواسّ. أستطيع أن أرى، أن أسمع، وأن أشمّ.

أرى أنّك تسمعني، وأرى أشباهك من الذين يسيرون دون وازعٍ من عدم احترام حول قدّيسِي يوحنّا الرائع. إنّي أسمع كلّ أحاديثهم المزعجة، أشمّ رائحتهم النتنة عندما يقتربون منّي، تغمرني روائح المرأة، ويمكن أن تكون روائح حلوة حتّى عندما تكون رائحة حيض أو عرق.

لكن لا يمكن لي استعمال اليدين، ولم أعد أشرب ولا آكل، لا أستطيع تذوّق طعم الحجل ولا أفضل نبيذ من نوع كيانتي. لا شعور لمس، ولا مذاق.

ما ظنّك بذلك؟ وليس ما بي مرضاً نادراً ومرعباً. ليس نتيجة فيروس. من المنطقيّ بالنسبة إلى أناس ينتمون لحضارتك ولزمانك أن يظنّوا مثل هذا الظنّ. مرض. فيروس. علاج. لَقاح.

لا، أنت مخطئ. ليس هناك علاج لي. ليس لي عينان، ولا أذنان، ولا أنف، رغم أنّي أراك، أرى الجميع، وكلّ شيء أنشأتموه حولكم. ورغم أنّي أسمع أصواتكم والأصوات التي تخرج من الأجهزة التي غزت وجودكم، ضجيج محركاتكم ونفخ الريح وهزيم الرعد، ورغم أنّ رائحتكم تتناهي إليّ، تلك الأقذر من الهواء الذي تستنشقون، وكذلك الرائحة اللاذعة لكن الجميلة التي تصدر عن الأرض بعد المطر.

هل فهمت الآن؟ ليس لي جسد. أنا غير مرئيّ بصورة كاملة، يمكن لك أن تمرّ فوقي، يمكن لك أن تجتازني، من غير أن تشعر بذلك. لكنّي أملك العقل والعواطف، الرغبات، وذكرياتي عندما كنت مثلك، عندما كنت إنساناً. لهذا فأنا أحدّثك.

قلت لك ذلك مباشرة. لكن ليس بوضوح كاف.

على كلّ، من الصعب الكلام بوضوح عن شيء ما غريب وغير عاديّ مثل الذي حدث لي.

عندما كنت على قيد الحياة، كنتُ رحّالة زرت ووصفت أماكن بعيدة جدّاً، تمتدّ من طرف الكون إلى طرفه الآخر. ثمّ متّ، إذا صحّ القول. وقد جئت الآن من بعيد. أبعد ممّا تتخيّل. أعتقد أنّك ستدعوني في لغتك «شبحاً».

أنا الذي أجيء عندما تمّحي ظلال المباني والمارّة من على وجه الأرض ويصبح كلّ شيء بلونها، بينما يتقدّم الظلام مسرعاً عبر المدينة مثل ماء داكن اللون، وقد كنت أرى نفسي دائماً على أنّي ظلّ.

أجل، ادعُني أنت أيضاً بهذا الاسم. ظلّ.

***

أصل عندما تهبط الشمس، وفي اللحظة نفسها التي تغيب فيها، غير مادّي وغير مرئيّ وحُكم عليه بالرؤية والسمع والإحساس بالروائح. وأنا كظلّ قد لا أمتلك الحقّ حتّى في الحصول على اسم، لكنّني كنت أملكه، ومن المؤكّد أنّك تعرفه.

هذه هي الليلة السبعمئة التي أقضيها في هذا المكان. ولنقل ذلك، ليس ليلة بعد ليلة، ليست متتالية، فلن يكون بوسعي تحمّل هذا.

جئت إلى هنا في المعموديّة، في قلب مدينتي البغيضة والمحبوبة... لم أوفّر مشاعر قاسية، انتقاميّة، عنيفة، من التي تحملك على غرز حديد في صدر العدوّ، مشاعر سياسيّة، منحازة، أنكرها اليوم، ومشاعر حبّ قد تكون شديدة الحلاوة أو وحشيّة قاسية، كم أوّد اليوم أن أشعر بها من جديد، رغم أنّ كلّ شيء أصبح صعباً على الظلّ...

إنّي أجيء إلى هنا مرّة كلّ سنة، دائماً في الليلة نفسها، عندما يكون الاعتدال الربيعي قد مرّ للتوّ، ويسمح لي بتمضية وقت هنا يمتدّ من الغروب إلى الفجر.

هكذا سارت الأمور دائماً، منذ سبعمئة سنة، رغم أنّي قد أكون أخطأت، إذ يمكن أن تكون السنون أقلّ من ذلك قليلاً، أو أكثر قليلاً. ستمئة وتسع وتسعون؟ لست متأكّداً. وأنا مرهق.

قد تسألني عن إرهاق الأشباح التي لا تعمل، وليس بها حاجات جسديّة، لا تأكل ولا تشرب ولا تتغوّط ولا تتبوّل، وتمضي بخفّة كما لو أنّها لا تخضع للقانون الذي يجذب الأجسام إلى أسفل.

إنّي قادر على النهوض، على التقلّب، على تسلّق جدران الكاتدرائيّة وأن أجثم كالطير على قبّتها، وأن أسير على طول برج الناقوس بموازاة الأرض وأن أصل إلى القمّة. من يدري ماذا يمكن لي أن أرى من هناك، قد أرى مدن براتو، بيستويا، فيزوله...

لم أفعل هذا أبداً، ولم أفعله هذه الليلة، لأنّي لا أرغب في اللعب، عليّ أن أجابه الحقيقة، وأن أبقى كما أنا بالفعل. لست عفريتاً، لست ملاكاً، لست شيطاناً... أنا إنسان، نفسٌ مسخت إلى ظلّ، لكنّ وضعي هذا ليس

وضعاً أبديّاً، فهناك ميثاق ينظّم المدّة، وقد تشعر بالدهشة عندما تسمع ما هو هذا الميثاق.

إنّ التعب والإرهاق بالنسبة إليّ أنا الظلّ، هما شيء آخر. فلا شيء يثقل كتفيّ، ولا شيء يعضّ على ربلتيّ، وقد استلقيت الآن على جنبي، كما لو أنّي في سبيلي للنوم حتّى لو كان من المستحيل عليّ أن أشعر بالنعاس، ولا أشعر بعظامي تصرّ، ولا برأسي يضرب على حجارة الجدران.

لا بدّ أنّك لاحظت أنّي أصف حركاتي كما لو أنّها حركات شخص له جسم، هذا صحيح. هذا لأنّي أقوم بها وأشعر في ذهني أنّي أقوم بها، رغم أنّي لا أشعر بنتائجها الطبيعيّة... تذكّروا أنّ تكويني هو أقلّ من تكوين الضباب وهو يتلاشى. لا أخشى من الارتطام، ولا الصدام، ولا الأمراض. لا يهمّني أن أملك نقوداً في محفظتي، فهي لا تفيدني في شيء.

التعب بالنسبة إليّ هو أن أرى من هنا، من ليلة ما، هي نفسها كلّ سنة، تحوّل الأزمان والناس مع بقائي شاهداً سلبيّاً، غير كامل، لأنّي أعي التاريخ بصورة مجزّأة، بحسّ الصور التي تضيفها كلّ ليلة تمرّ إلى فضولي وإلى رغبتي في المعرفة.

فأنا كنت دائماً أريد أن أعرف. فهل أنت لا؟

لقد رأيت من هنا كلّ شيء وهو يتغيّر. عبر طرقات المدينة كانت تجري حولي هنا أحصنة يركبها فرسان ملعونون، كان أحدهم بصدد أن يصدمني، أن يسحبني ويقلبني على الأرض فتتناثر أحشائي كأنّها أذرع أخطبوط ودماغي كأنّه مجرّد حساء، لكنّي تمكّنت من العودة ظلّاً إلى مكاني، غيمةَ ضباب يمكن عبورها من غير إدراك شيء البتّة من هذا. لكنّي شعرت بالخوف، اللعنة على أولئك الفرسان السود الذين كانوا يستأسدون في مدينتي.

ثمّ بدأت أرى عجلات العربات، أكبر فأكبر، مغلقة وأشدّ تعقيداً، ثمّ فغر فمي عندما رأيت أوّل عربة تتحرّك لوحدها، لا يجرّها ولا حصان واحد، وكانت تصدر صوت ضفدع آليّ لم أسمعه من قبل، وكانت تلفظ من أنبوب خلفها دفقات دخان...

ثمّ تعلّمت أن أعرفها، تلك السيّارات، كان لا بدّ من ذلك، إذ كانت تمرّ

بالقرب منّي، أو فوقي عندما يتشتّت انتباهي لبرهة، وكانت تغمرني بالدخان يخرج من أنابيب العوادم، وكنت أرتعد لزئيرها، بينما كانت أعدادها تزداد أكثر فأكثر، وتصبح بنِسبٍ وأجسام مختلفة تماماً عن بعضها البعض، كعلب زلقة أو جبال من صفائح ضخمة كآلات الحرب... ثمّ الباصات والشاحنات الكبيرة، والدرّاجات ذات العجلات على الأشعّة صامتة، والدرّاجات الناريّة الصغيرة والكبيرة وهي تسير جيئة وذهاباً كنسوة تتغاوى...

عاماً بعد آخر، تمّ استبعاد السيّارات والدرّاجات الناريّة، لكنّي أشعر من بعيد أنّها تحيط بهذه المناطق كأنّها حزام حولها، ويمكن لي أن أراها وهي على الحدود، لكنّ المارّة هم الآن من يصنعون هذا التجمّع ويثيرون هذه الضوضاء.

لقد رأيت من هنا، من معموديّة القدّيس يوحنّا، رأيت مرور التاريخ، ورأيت أشكالاً جديدة من الحكومات تظهر، وتناوب رجال جدد على السلطة.

السلطة، بحثت عنها أيضاً في المكان الأكثر ظلمة من أمكنة وجودي على الأرض، وقد حزت عليها لمدّة شهرين، أي خلال تغطية المهمّة التي استلمتها، قبل أن يحلّ الدمار. الأوّل. لقد وصلت إلى هذه المكانة، شعرت بنفسي في القمّة، كما لو أنّ حياتي بلغت أهدافها، لكنّي كنت قد خنت نفسي. وفي تلك الأيّام خنت الأوّل بين أصدقائي، فسمحت بأن يرسل غويدو إلى المنفى، غويدو الذي مرض في المنفى ولم يعد إلى فلورنسا إلّا ليموت فيها. لا تتصوّر الآلام التي عانيت منها، واللّوم الذي وجّهته لنفسي، كم لعنت ذلك الإجراء الذي لم أعرف كيف لي أن أعترض عليه، أو لم أرغب في الاعتراض عليه.

لا أعرف أن أقول لك ما هي الميول والعواطف السياسيّة بالنسبة إليّ. لماذا امتصّت حيّزاً كبيراً من حياتي، وحادت بي عن الطريق نحو الدمار؟ كانت طموحاً، من كلّ بدّ. لكن ليس فقط. لا أقول هذا للتبرير، كانت أيضاً شعوراً قويّاً بالولاء لأسلافي، وتوقاً إلى عدالة شاملة.

ومع ذلك فإنّ السلطة هي بالنسبة إلى أناس كثيرين هي مجرّد رغبة في

السيادة، شهوة خالصة في التعاظم وفي الانتهاك والقمع. وإلّا فهي ليست إلّا طريقاً مختصرة تسهّل وضع أكبر عدد ممكن من النقود اللعينة في الحقيبة.

لقد رأيت تواصل صراعات دمويّة بين الأشقاء حول يوحنّا قدّيسيَ الرائع، ورأيت ارتفاع أبراج إلى علوّ برج بابل، ثمّ رأيتها، تلك الأبراج وهي تهوي بين الغبار. رأيت أيضاً مؤامرات، خيانات، حرائق، خراباً، ورأيت كلّ ما يجرّه التاريخ البشري معه من شرور.

آخر مئة عام... بالنسبة إليّ آخر مئة ليلة، هل هذا واضح؟ كانت الأكثر عنفاً. الأسلحة الأخطر، وأشرس أحلام التسلّط والقوة.

رأيت الجنود الألمان بالصليب المعقوف الموضوع على أكمام زيّهم العسكري، رأيتهم أمامي وهم يقفزون ذات ليلة من الشاحنة ليحاصروا شابّين، ثمّ وجّهوا أسلحتهم عليهما وضربوهما بأعقاب البنادق على ذقنيهما... لم يكن بوسعي أنا الظلّ أن أعقّب، فكنت أتلوّى بين الغضب والألم، وأصرخ بشتائم بقيت في حلقي، كم كان بودّي أن أمتطي من جديد حصاني لأنطلق برمحي وأهجم لأصوّبه إلى صدورهم، لقد ذبحوهما بطلقات من رشّاشاتهم... وعندما سقطا على الأرض مثل كيسين فارغين، قلبوهما وهم يركلونهما بالأقدام، ثمّ علّقوا الجسدين على عمودي مصابيح...

ثمّ رأيت الشيوعيّين، المناديل الحمراء على رقابهم، المنتصرين، تجمّعوا في مواكب طويلة جابت المدينة وهي تلوّح بالأعلام الحمراء ذات المنجل والمطرقة، كانوا عمّالاً ورجال أدب، تجمعهم آمال الفداء التي لا تعمّر طويلاً في العادة... «هيّا أيّها الشعب، إلى الخلاص»[4]، هذا ما أذكره من أناشيدهم.

والآن لا توجد منذ سنين مواكب، ولا مطرقة ومنجل، ولا نصر وخلاص، وربّما لم يعد هناك حتّى الشعب.

فمن هم أصحاب السلطة اليوم؟ أسمع أنهم ما زالوا يتكلّمون عن فاشيّين وشيوعيّين، وهم ليسوا موجودين بعد كما أنّ الغويلفي والغيبيلّيني[5]

4- «Avanti popolo, alla riscossa» (م)

5- i Guelfi e i Ghibellini فئتان متناحرتان في عصر دانتي (م)

غير موجودين بعد أن ابتلعهم إعصار التاريخ. ما زالوا يتكلّمون عن ماض كان الصراع فيه بالمواجهة، والرايات متعارضة والدم يسيل في دوّامات... لكن، أقوياء اليوم، من هم؟

حتماً، هل هم من لحم ودم، هل هم سمك؟ أو لا هذا ولا ذاك الشيء؟ وهل هم لاشيء، لاشيء على الإطلاق؟

لم أعد أستطيع أن أحكم على أحد، لكنّي قلت لنفسي عندما سمعت كلامهم من الشاشة المضيئة المسطّحة على جدار المقهى: يا للكركوزات! أولئك المشاكسون، المضحكون، أيّ دمى هم؟ متشاجرون مضحكون. يا لهم من كركوزات حمقى! لقد كنت أسمّيهم في نفسي: بارباريتشا، ليبيكوكّو، كانياتسو، غرافّيكانه[6]...

إنّي غالباً ما كنت أسمع لهجتي المجيدة ولهجة مدينتي خلال هذه السنوات الأخيرة وهي تجري على أفواه بعض رجالات وبعض نساء السلطة، وأنت تعرف بالتأكيد ما معنى هذا، أمّا أنا فلا، رغم أنّي قد أعجبت بواحدة بينهم، ومن المؤكّد أنّي قد أضعها في قائمة الستّين، إذا تمكّنت من الحصول على اسمها...

هل أنا متأكد من أنّني تخلصت من عواطفي السياسيّة؟ لقد أصبح الأمر واضحاً الآن بالنسبة إليّ، فمن الأفضل إلى أبعد حدّ تنمية عواطف الحبّ، لكنّي عشت جزءاً كبيراً من وجودي على الأرض بمجموعة مضطربة مؤلمة من محبّة منحازة لمدينتي ولمثلي الأعلى المتمثّل بوجود مجتمع مسالم ونزيه. كما أنّي كرهت الأعداء، واحتقرتهم. وقد حكمت وأدنت وشجبت...

لكن عبثاً. لا تغيّر السلطة وجهها، والخادمة إيطاليا لا تتغيّر بالفعل أبداً، كانت سفينة ليس عليها قبطان يسيّر دفّتها وسط عاصفة مميتة، كانت ماخوراً، ويبدو أنّها ما زالت كذلك بعد مرور سبعة قرون. ليس للحكّام أيّ تحكّم في الفوضى والاضطراب الدائم السائد في المجتمع: والظلم يسود أكثر فأكثر، وهو قرين الفساد وعدم الكفاءة، فضلاً عن تنامي الجوع إلى الذهب، الذي

6- Barbariccia e Libicocco, Cagnazzo e Graffiacane أسماء شخصيّات شياطين في الكوميديا الإلهيّة - دانتي (م)

لا يُلعن بما فيه الكفاية. ذلك كما أنّ الحسد والأنانيّة والظلم والسطحيّة والحماقة تصول كلّها وتجول بكلّ هدوء في أروقة السلطة وفي الساحات...

أجل، إنّها ماخور. لكنّ في الماخور عاهرات، ولا بدّ أنّ عاهرة مثل راحاب، التي ساعدت يشوع في أخذ أريحا، وأخرى مثل المجدليّة، التي مسحت قدمي يسوع بشعرها، هما أفضل بكثير من أولئك الذين يتاجرون، ويديرون ويتخمون باسم الشعب، ألا تظنّ ذلك؟

إنّ كلّ سفيه حقير عدّل مظهره، كان يرفع صوته ليبعث الحياة في الفصيل الخاصّ به، وهو عندما كان يأتي مرّة إلى المدينة كان يمثُل فيها بطلاً طاغية، ذلك كان يحدث في مدينتي فلورنسا، فكان هناك قوانين تسنّ في شهر تشرين الأوّل لتصبح غير سارية في منتصف شهر كانون الأوّل. لكن أليس هذا هو الحال الآن أيضاً؟

لقد تعبت، أنا الظلّ، فليذهبوا إلى الشيطان، إذا غرقت السفينة، فسأطفو أنا على السطح وسأبقى واقفاً على سطح الماء.

كانت مشاعر الحبّ هي أوّل مشاعري، وعرفت بمرور الوقت أنّها كانت أفضل المشاعر وأكثرها حقيقيّة. وماذا تظنّ أنّي كنت أفعل خلال هذه الليالي السبعمئة؟

من هنا، جاثماً هنا، كنت أنظر إلى النساء خلال مرورهنّ، وحاولت صياغة قائمة الستّين ملكة، وهذا كلّه، كما قلت لك، من غير استعمال اليدين ولا دفتر ولا قلم، فهذا يستحيل عليّ فعله.

تتغيّر الثياب والتسريحات والزينة والسلوك، حسناً، لكنّي أقول لك إنّ الحسن والجمال لا يتغيّران، لأنّه لا علاقة لهما بكلّ ما يمرّ وينقضي. الجمال خالد، أعني الجمال الحقيقيّ، إنّه مادّة تصبح نوراً يجذب نحوه كلّ اهتزازات النفس وزلازلها... وإلّا فيا للخشية منه... سيجعل الركب ترتخي، وتنقبض المعدة، لماذا؟... إنّي ما زلت أعرف كيف أتعرّف عليه، وإنّي لأنحني أمامه.

لكنّه لا يمكن لي أن أنحني وأنا جالس، كما أنا جالس الآن. فلنقل إذاً أنّي أهزّ الرأس ثمّ أخفضه في إشارة احترام وتبجيل، لأنّ كلّ امرأة وكلّ جمال يستحقّان ذلك.

انظر إلى تلك، يكفيني أن أكون صديقاً لها وحسب، محلّ ثقتها، خادماً لها، يبدو أنّها امرأة ذات فكر وحكمة، تلميذة الإلهة القديمة منيرفا. لكنّ أخريات يمررن أمامي، وحشيّات، عنيفات كالصيّادة ديانا، صغيرات لا يمكن المساس بهنّ، بل كأنّهن صعبات حتّى على النظر إليهنّ. هاك أيضاً هؤلاء هناك، يبدو أنّهن زوجات وأمّهات مكرّسات، يعطين بهدوء تامّ أوامر جازمة، غيّورات، تحميهنّ الآلهة جونو[7].

أخطرهنّ هنّ من سماء عطارد، يثرنني برغبات تشبه لهباً يرتمي إلى الأعلى، ينشطر لساناً بعد لسان ويطلق حرارة ونوراً، ثمّ دخاناً يثير السعال ويحرق العيون.

ما هي الرغبة بالنسبة إلى ظلّ ليس له جسد وليس فيه دم؟ إنّها إحساس باضطراب يفور، بارتعاش، بتسامٍ، ببلبلة عنيفة لأنّها نتيجة إدراك عميق بأنّ أيّ متعة لن تصل إلى الإشباع.

إنّ الرغبة تتغلّب على قوّة الجاذبيّة. فإذا كان كلّ شيء ينخفض إلى أسفل وفق القانون الشامل، كما الماء مثلاً، فإنّ الرغبة تخرق هذا القانون وترنو إلى الأعلى، كما تفعل النار، بدافع الحنين إلى الشمس. إنّها ترفع، تدفع نحو الخارج، وتحرِق. لكن دعني أخبرك أنّها ليست بدون جسد إلّا خليطاً من خمائر نقيّة، وهذا هو العذاب بعينه.

إنّي، كما أنا، غير مرئيّ، بلا جسد، لذلك فإنّ إرادتي تنطلق نحو المارّات اللائي ترى فيهنّ علامات على وجود سماء أفروديت. أودّ أن أوقف إحداهنّ، لأحيّيها وأبجلّها وأطلب منها الإذن بضمّها، بتقبيلها، بمداعبتها، وأكثر من ذلك، حيث لا بدّ من الوصول عند الوقوع في قبضة الرغبة: أي إلى تقديم اللّذّة وبلوغ اللّذّة.

لكن لا جدوى من ذلك، فهذا مستحيل في وضعي أنا الظلّ. وهكذا فإنّ الإرادة تفشل. إنّي لم أحبّ منذ سبعمئة سنة. هل تفهم؟ أنا الذي جعلت الحبّ صنمي. كلّ شيء محرّم عليّ الآن، ما عدا تورّماً بلا فائدة وهذا العجز والقصور.

7- Juno آلهة لاتينيّة مقابل أيرا الإغريقيّة، وهي زوجة زيوس. (م) عن ويكيبيديا.

لا واحدة من المارّات تراني. لا واحدة تشعر ولا بجزء من المليون من غليان الاضطراب الذي يعصف بي ويدفعني نحوها. ليس لديّ إحساس اللمس، فلا أستطيع حتّى أن ألمسها. وقد أرضى بلا شيء سوى لمس بعض الجلود التي يبدو أنّها من قنّب أو عنبر، من عسل أو قشطة.

أفكّر كم سيكون جميلاً لو أنّ واحدة منهنّ تلقي عليّ السلام. أن تردّ عليّ سلامي، لأنّي ألقي عليهنّ السلام بكلمات مضمّخة بالورد، كلمات من يعرف كيف يحيّي جمال النساء، وأحياناً بإشارة باليد، بتكشيرة، بعصرة عين، بصرخة قد تفلت منّي وفيها شيء من قلّة الحشمة، على كلّ فلن يسمعها غيري.

إنّها من أحلامي، هذه التحيّة لامرأة. فمن الضروريّ أن تراني قبل هذا، أنا اللامرئيّ.

أو ربّما كان هكذا أفضل. ربّما لأنّه إذا تحقّقت هذه المعجزة ورأتني إحداهنّ في أسفل بناء المعموديّة، فإنّها ستجد نفسها أمام رجل أصبح هرماً، قليل العتاد، منحنياً أكثر من أيّ وقت مضى، عليه عباءة كانت حمراء في الأصل وأصبحت الآن متّسخة كما لو بالوحل وبأوراق شجر جافّة، جالساً قرب فتى مشرّد، بائس مثله.

لا تنظر الظلال إلى نفسها في المرآة، لكنّي أنا أشعر أنّي على هذه الصورة.

المشرّد. هذه هي المرّة الثالثة التي أجده هنا. الوقت بالنسبة إليه طويل، ليس كما هو بالنسبة إليّ. فإذا استبعدت المصادفة التي لا يرجّح حدوثها أي أنّه لا يأتي إلّا في الأيّام التي أجيء فيها أنا أيضاً، فهذا يعني أنّه قد مضى أكثر من عامين كاملين على وجوده هنا. فهو موجود بالفعل عند غروب الشمس، ولا بدّ أنّه بقي موجوداً طيلة اليوم لأنّ آثار الشمس تظهر على وجهه ذي البشرة الفاتحة. رغم أنّ شيئاً من الحمرة يمكن أن يظهر بسبب ضربة سدّدت، فشخص يعيش في الشارع بهذه الطريقة، يمكن له أن يتوقّع دائماً تلقّي الأذى من أحد شرّيري النفس أو الأوغاد.

إنّه دائماً بالقرب من مكاني، وهو دائماً بالضفائر الشقراء نفسها، ودائماً بقميصه المصنوع من قماش أزرق خشن، يقرأ بين الحين والآخر كتاباً غطّى

غلافه بورق جرائد، ولذلك فإني لا أعرف عنه شيئاً، ثمّ إنّه ينام مطمئناً، ويتناول عندما يستيقظ علبة البيرة فيحملها إلى فمه ويتجرّعها. وعلبة البيرة الأسطوانيّة مغلّفة بصورة تلتفّ حولها تمثّل قيثارة، وكتبت عليها أيضاً كلمات قمت مرّة بفكّ تشفيرها، ماك فيرلاند أو ماك فارلاند، أو شيء من هذا القبيل، أي من أسماء أشخاص من الشمال، ومن يدري لعلّه هو أيضاً من بلدان الشمال.

إنّه الآن مستلق قربي بالذات. لماذا هو دائماً هنا؟ إنّه لا يعرف بالطبع أنّ هذا هو مكاني. إنّه ينهض الآن، ثمّ يدلّك جفنيه بأنامل سبّابتيه، ثمّ يضع كلتا يديه خلف رقبته ويرفع ضفائره إلى الأعلى، على شكل تاج صغير مضحك حول رأسه.

كيف انمسختَ إلى هذه الحال يا أخي؟ من أين أنت؟ لماذا اخترت هذا المكان لبؤسك؟ هل تفهم لغتي؟ إنّي أتحدّث معه كما لو أنّ صوتي يخرج منّي ويستطيع هو الاستماع إليه... هل كان هذا هو خيارك، طريقة في هروبك؟ أم أنّك ضحيّة... هل أساء شخص ما إليك، وسحقك على الأرض مثل التين الفاسد، ولكن من؟ هناك أحداث تمزّق الرجل إلى أشلاء، وأنا أعلم ذلك جيّداً، لكنك ما زلت شابّاً، فهل من الممكن أنّك لم تجد في نفسك الطاقة لاستعادة قواكِ والوقوف مرّة أخرى؟

لذلك فإنّي أظنّ أنّ حبّاً انتهى هو الذي أوصلك إلى هذه الحال. فليس هناك ردّة فعل ممكنة على الحبّ عندما ينتهي، إلّا تركه أن ينتهي. لكنّك قد تنتهي أنت أيضا وأنت تتركه ينتهي، فتنهار دائرة حياتك وترى أنّك تبتعد أكثر فأكثر عن المركز، لتضيع في مساحة فارغة، وتنتهي في هاوية مشوّهة الأشكال. إذ لا يوجد دواء لمرض الحبّ. ولا يمكنك أن تتخيّل يا أخي كم عانيت أنا. كم هزّة، كم من الدموع والكوابيس والحمّى. ومع ذلك فقد تمكّنت من الخروج منه، من دوّامة تدمير الذات.

لقد خرجت منه في الحياة، عندما كنت رجلاً بدم ولحم وعظم. وقد تجشمت عناء رحلة طويلة جدّاً للخروج منه. لكنّي لم يصل بي الحال إلى ما وصلت إليه، لقد عانيت من الإذلال والظلم وصفعات القدر وأيدي

متجبّرين قذرة، كما صعدت ونزلت درجات قصور الجبابرة لأتوسّل منهم شيئاً من الخبز. لكن الحبّ كان خلاصي.

تذكّر أنّ الحبّ يؤذي لكنّه ينقذ، يقدّس ويدين... إنّه من ورد وخراء. وعلينا نحن أن نختار. وأنت؟ هل لك امرأة ترفضك، هل أنت مهجور، هل أفقدتك مأساةٌ الشخصَ الذي أحببت؟ هل تعرف ماذا عليك أن تفعل؟ شيئاً واحداً فقط، أن تحبّ، وأن تواصل الحبّ.

لا جدوى من أن أتحدّث إليه. ربّما كان من غير المجدي أن أتحدّث إليك أيضاً. فماذا تسمع؟ إنّ صوتي يبقى في داخلي. وأنا من مادّة الهواء نفسها، لو أمكن لي على الأقلّ أن أسمع صوتي وكأنّني نسمة، وأن أحلّ ضفائره، تلك الضفائر الشقراء السخيفة.

ومع ذلك... فهذه هي المرّة الثالثة التي أجده فيها هنا، وقد وجدته في العام الماضي أيضاً عندما كنّا في قلب الليل بمفردنا بين المعموديّة والكاتدرائيّة وبدا أنّه لا يوجد غيرنا نحن الاثنين في المدينة بأكملها، رجلاً مشرّداً بلا مأوى وظلّ، ولا أحد غيرنا.

أذكر أنّه كان مستلقياً، يغطّي رأسه ويخفي سلّته تحت الغطاء، وعندما مرّت سيارة شرطة لم تقترب حتّى، فذلك الغطاء المهجور لا يثير شكوك أحد.

ثم إنّي أذكر أيضاً أنّ امرأة شابّة ملفوفة بوشاح ملوّن وترتدي قناعاً أبيض كان يغطّي وجهها من الذقن إلى رأس أنفها، أذكر أنّها أعطته قناعاً مثل قناعها، وأصرّت على أن يرتديه هو أيضاً. فهمت ذلك من الحركات، لأنّهما كانا يتكلّمان بلغة مجهولة بالنسبة إليّ، لكنّي أسمعها منذ سنين تحكى هنا حولي في كثير من الأحيان، لغة الأنغل.

كان هو يهزّ رأسه ليقول لا، وكان يتذمّر كما لو أنّه يتألّم، كان يشكرها لكن لا، ثمّ يبقى قليلاً بعينين منفجلتين، ثمّ كان يعود ليتخبّأ تحت ذلك الغطاء الوسخ.

وقفت هي هناك. بدا أنّها تنتظر لتكلّمه من جديد. ثمّ تركت له على طرف الغطاء حقيبة فيها علب بيرة وأطعمة، ثمّ انصرفت.

بقيت أنا وهو متجاورَيْن طيلة الليل. غطاء مرميّ على الأرض، وظلّ. يا

لهذا المنظر. ربّما على الأقلّ شيء شبيه بتموّج الهواء، فهذا فقط، قد يكون قد سمعني، آخر مرّة؟ هل تسمعني الآن؟

كم تغيّر الهواء. إنّي أذكر أنّه كان هناك في شوارع المدينة، داخل جدرانها، هواء تفوح منه رائحة الياسمين وعبق العطور والزيت والروث والخبز، كان هواء يدخل إلى الرئتين ويوسّعهما كالمنفاخ.

أنا لم تعد لي رئتان، لأنّي ظلّ، لكنّي ما زلت قادراً على استعمال حاسّة الشمّ، بلطفٍ من وهبها لي. لم يعد الهواء يحمل رائحة العشب ولا الورود، مع أنّ البرد صار وراءنا والربيع اقترب... يعبق الهواء الآن بهذه الرماديّات التي يسمّونها إسفلتاً، وبمحرّكات وبدخان وعرق وقيء وبول. إنّه قاتم، مفعم بالغبار، وليس فيه شفاء لمن يملك رئتين.

كم تغيّر كلّ شيء. يحلّ الحرّ الآن عندما لا يجب أن يأتي، لقد عرفت ليالي قيظ، ليس بالنسبة إلي، ليس بالنسبة إلى ظلّ، لكنّي أدرك ذلك عندما يخلع المارّة ملابسهم، ويسكبون زجاجات المياه على رؤوسهم حتى بعد غروب الشمس، من قصر الأنفاس، من نتانة روائحهم، من تراخيهم الجماعيّ. بل كان بعضهم يهوي فوقي عند سفح المعموديّة بكلّ ما عليه من حقيبة ظهر وكلّ شيء، فاضطرّ للانزلاق والابتعاد، بدافع النفور أكثر من أيّ شيء آخر، لأنّني لا أستطيع تحمّل أيّ صدام، لأنّ الأجسام تخترقني.

في بعض الليالي، هطلت الأمطار فجأة، بشّر بها بالكاد هزيم رعديْن، ثمّ اكتسبت في لحظة قوّة وحشيّة غير متوقّعة، فطمست كما يطمس الضباب أشكال المدينة أمام الأنظار، وكان وقع صوتها أقوى من صخب البحر العاصف، وقد تضخّمت المياه في وقت قصير بالطين وغمرت كلّ من تجرّأ على مجابهتها، وكان بوسعها أن تسحبني وأنا في أسفل بناءِ المعموديّة لتجرّني ومن يعرف إلى أين، ربّما إلى مدينة لوكّا أو مدينة بيزا، لولا أنّ الظلال لا تعارض بطبيعتها الماء المنهمر. ولا لهب النار المتصاعد.

رأيت بعد ذلك الوفيات والأوبئة تعود، وكنت أعرفها منذ قرون حقّ المعرفة عندما كنت إنساناً من لحم وعظم. بدا ذلك كأنّه هزائم، ذكريات

حقبة مضطربة ومظلمة. وكان يمكن للناس أن ينصرفوا مبتهجين كالأغنام الهائجة، ظنّا منهم أنّهم أصبحوا أسياد كلّ شيء، وأنّهم روّضوا الحيوانات والأشجار والأنهار والجبال والبحر والسماء واستعمروها فأصبحت مسخّرة لهم. وعندما أرفع رأسي، كنت أرى في السماء أذيالاً بيضاء تنسحب وراء سفن طائرة أصبحت أكثر عدداً من النجوم.

ثمّ لا بدّ أنّ شيئاً ما قد حدث في السنوات القليلة الماضية، لا أستطيع معرفته بأقلّ قدر من الكمال، فأنا آتي إلى هنا في ليلة واحدة في السنة، أتوقّف هنا من غروب الشمس إلى شروقها، لا أرى إلّا نتفاً وخرقاً من القماش الذي ينسجه التاريخ لكم أيّها البشر، لكنّني فهمت أنّه لا بدّ أنّ أبقاراً وخنازير ودجاجاً نفقت، ولم أعد أرى نحلة في الهواء، ولا حتّى لو بدفع مقدار وزنها من الذهب ثمناً لها...

ثمّ، علاوة على ذلك، لقد نسيت، أليس كذلك؟ لم تكونوا تريدون أن تفكّروا في الأمر، لأنّ الدور جاء عليكم. فالشرّ يرتفع بمقياس الكائنات الحيّة، فيهاجم أصغرُها وأكثرُها خفاءً تلك الأكبر فالأكبر، بالتدريج، وصولاً إلى أعظمها وأقواها. فيصيب الوباءُ الفئران والكلاب والبغال ثمّ يصيب البشر. ذلك كما حدث في زمني، عندما انتشر الطاعون والكوليرا. وكذلك الملاريا اللعينة بحممها المميتة.

في هذا العام غزت حشود الناس من جديد قلب المدينة. وعادت النشوة كما كانت دائماً من قبل. فالناس لا يعتبرون بعلامات الزمان الشائنة، وهم أعداء النبوءات، يسدّون آذانهم ويضعون الشمع فيها كي لا يسمعوا منها شيئاً. ها هم هؤلاء يذهبون، يجيئون، يدخلون ويخرجون يصرخون ويشربون ويتجشّؤون ويضحكون، كأنّ شيئاً لم يحدث.

إنّي أراهم، وأراك. لكن يبدو لي من هنا أن لا أحد منكم يرى أحداً. تسيرون خافضي الرؤوس، وليس احتراماً للكاتدرائيّة وللمعموديّة، وهما من بيوت الله والجمال، وليس لأنّكم ستبتهلون، بل لتحدّقوا بالشاشة المضيئة الصغيرة على ذلك الجهاز الذي تحملونه بأيديكم، كما لو أنّه ليس هناك شيء آخر حولكم. لكلّ منكم جهازه، وأنتم تسيرون به في موكب، خاشعين

له، كما كنتم ذات يوم تخشعون أمام القربان المقدّس، كلّ لوحده، لا كلام بينكم حتّى عندما تسيرون جنباً إلى جنب، حتّى لو كنتم زوجاً من العشّاق.

أعدّ المارّة ممّن يلمس بسبّابته الشاشة الصغيرة ليظهر عليها من يدري أيّ صور، إنّهم كثيرون، أكثر من أولئك الذين يلتفتون ويرفعون رؤوسهم نحو قمّة الناقوس. يا صديقي جوتّو[8] المسكين، أيّ شكل يمكن له أن يكون جذّاباً أكثر ممّا أبدعته يداك؟



برج جوتّو في فلورنسا بجانب كاتدرائيّة قدّيسة مريم الزهور (الدوّمو).

مرّ الآن شخص حسن الهندام يتكلّم بصوت مرتفع مع لا أحد... لا، هذا ما ظننته لأوّل وهلة، فباركت الجنون الذي يحمل على توجيه الكلام إلى العدمَ وإلى القمر. لكنّي أعلم الآن أنّ ذلك الشريط الذي ينشطر عند العنق وينتهي بالأذنين يسمح بالحوار مع شخص آخر بعيد.

8- Giotto جوتّو دي بوندوني 1266-1337 رسام ومهندس معماري إيطالي. واحد من كبار الفنانين الذين ساهموا في النهضة الإيطالية. وينسب برج الناقوس في فلورنسا إليه. (م)

تكلّموا بصوت مرتفع، أيّها البشر، ستغزو ثرثرتكم الشوارعَ والساحات، في المقاهي يرتفع صوت تلفزيوناتكم، فأصبح مجبراً على الاستماع إليكم. أعترف، فإنّي أشعر بالفضول كي أسمعكم. هذا كان دائماً دأبي.

في سنة الربّ ألف وثلاثمئة ذهبت حاجّاً إلى روما بمناسبة احتفالات اليوبيل[9]، أذكر قلعة سانت أنجيلو، وقد أحاط بها متسوّلون يعتمرون القبّعات، ولهم لحى وشعر أسود طويل، يجلسون ثابتين بلا حراك تحت جدرانها الدائريّة. وما زالت هناك آثار قدميْ رئيس الملائكة ميخائيل، قائد الميليشيات السماويّة التي نزلت من السماء، وقد امتشق سيفه ليضع حدّاً لاضطرابات روما في زمن البابا غريغوريوس الكبير، فيضانات وغزوات فئران ومجاعة وطاعون... كنّا فوق جسر، آلافاً متلاصقينِ الكوع بالكوع، ولم أصدّق أنّ الحواجز ستقاوم من غير أن تنتفخ وتنفجر. كنّا مسنّين، فتية، رجالاً ناضجين، نساء مع أطفالهنّ، بملابس فخمة أو بمزق بالية، من حرير أو من قماش أكياس، بالصنادل والجزم أو حفاة، مهلهلين أو فرحين. كان هناك من يتكلّم لغة الأنغلي، أو لغة ألمانيا، أو لغة أويل الفرنسيّة القديمة أو الأوسيتانيّة أوك أو لهجة سردينيا أو لهجة بيرغامو أو نابولي أو جنوى أو بعض اللغات البربريّة الأخرى التي تروّع سمعي. كان كلّ ذلك يختلط ضمن موجة هائجة من كلمات لا يمكن لأحد أن يجد لها معنى.

وغالباً ما أشعر هنا أيضاً بانطباع بأنّني قد انجرفت ضمن مدّ مماثل من بابل. فبعض اللّغات التي أعرفها ماتت. وهناك مئة لغة أخرى لا يعرف من أين جاءت، هل من الشرق، أو ممّا وراء المحيطات، وأنا لا أستطيع فهمها.

بل إنّ الإيطاليّة بالذات بدأت تصبح بالتدريج بالنسبة إليّ لغة غير معروفة. لكنّي كنت أسمعكم سنة بعد سنة، ففهمت ماذا فعلتم بها، وكيف لوّثتموها ودمّرتموها وأضعفتموها، لذلك فبوسعي الآن أن أتكلّم كما تتكلمون. يمكن لي أن أفهمكم ويمكن أن أجعلكم تفهموني، هذا إذا أمكن لصوتي أن يخرج منّي.

أين انتهى الأمر بلغتي الجميلة لغة si، ولغة أوك، واللغة البروفنساليّة

9- احتفال ديني لدى الكنيسة الكاثوليكية يقام بمناسبة معيّنة أو عند مرور فترة معيّنة، ومن هنا اليوبيل الفضّي (25 سنة) والذهبي (50 سنة). (م)

لغة آرنو دانييل، بيرتراند دي بورن، بيرنارت دو فينتادورن، واللاتينيّة، ولغة فيرجيليو وأوراتسيو وأوفيدو...أمّا الآن فلا تسمع في الكاتدرائيّة حتّى لغة القداديس، لغة نيوز دي، أوزانّا إن إكشيلسيس ديو[10]. لا جدوى الآن من الحسرة، وخاصّة بالنسبة إلى ظلّ.

إنّي أستطيع أن أفهمكم، لكنّ بعض الكلمات التي أسمع أنّها تستخدم هنا لا أعرف ما هي. بل لا تبدو لي أنّها حتّى كلمات. ولا أعرف ما إذا كانت تشويهات، أو ألعاباً لتسلية الأطفال، أو أشكالاً خرقاء من بعض اللهجات، أو أنّكم استعرتموها من لغات الحيوانات، أو من أغاني الطيور، وهي ليست في أغلب الأحيان أغاني. فكّر مثلاً في طيور النورس وزعيقها، وفكّر في الغربان ومثيلاتها التي تؤذي الأسماع بمجرّد أن تفتح منقارها.

اللغة التي تعلّمتها بالاستماع من بين شفاه والديّ، لغة بيلا وأليغيرو، اللغة التي كنت أتحدّث بها والتي صغتها بتشكيلها في ألف شكل، كما يشكّل الحداد المعادن...

أستمع للتعابير التي تستعمل هنا حولي، التي تستعمل في شاشات ما يسمّونه التلفزيون، وعلى أفواه البؤساء والجبابرة. هذه هي، حتّى في هذه الليلة... تويت تويت، فاك فاك، فيس فيس، بوك بوك، سبوت سبوت، شوت شوت، ويب ويب، تاغ تاغ، بيك بيك، توك توك، شو شو...غربان وأشباه غربان...

أنا، دعني أقول ذلك، ولا تحكم عليّ بأنّي متكبّر، أنا ابتكرت لك لغة عمليّة، تعجّ بالحياة، مصنوعة من القار والذهب، من ظلام عميق ونور متوهّج، من لهب ومن جليد، من طين ومن ريح...

لغة جيّدة لا مثيل لها في العالم بوسعها أن تضمّ كلَّ ما هو جيّد لاحتواء كلّ شيء. كلّ شيء. من أقسى الشتائم إلى أجمل الأدعية. من أعنف المشاجرات وأكثَرها شغباً، إلى التسامي بسكون نحو مكان كلّ ما فيه سلام ونور.

لغة يمكن أن تجعل حتّى أولئك الذين لا يحتاجون إلى اللغة يتكلّمون،

10- Arnaut Daniel, Bertrand de Born, Bernart de Ventadorn, Virgilio, Orazio, Ovidio… Agnus Dei, Osanna in excelsis Deo.

إلى أولئك الذين ينقلون أفكارهم بدون كلمات: من الملائكة الكبار الأقرب إلى الله، ذوي الأسماء المقدّسة المعروفة، إلى الشياطين من خدّام إبليس لوسيفر، إلى عصابة من أفحش الغوغاء عمّدتهم بنفسي، إذا صحّ القول: مالا كودا، آليكّينو، كانياتسو، كالكابرينا، روبكانته، سكارميليونه، دراغينياتسو، شيرياتّو، غرافّيكانه، ليبيكوكّو، فارفاريلّو، بارباريتشا...[11].

بهذه اللغة قصصت عليك عن رحلة إلى الآخرة لم يقم بها ولا حتّى أوليس ولا إينيس[12] في قصيدة فيرجيليو، دليلي ومعلّمي...

إنّك تعلم أنّي كنت أحلم أن أُتوَّج شاعراً هنا، في بناء سان جيوفانّي الجميل، لكنّ هذا لم يحدث، لقد حرمت من كلّ شيء في الحياة، حرمت حتّى من العودة، من مجرّد العودة إلى مدينتي. فعدت إليها ظلّاً، وهل ترى بأيّ حال أنا، كمشرّد من المشرّدين... هذا بينما أخذت الملحمة التي تحكي عن رحلتي تجري على أفواه الفلّاحين وعلى أفواه المثقّفين، على أفواه مقدّسين في الكنائس وعلى أفواه الشرهين في الحانات. وأنا أعلم أنّه عندما يجري الحديث عن اللغة الإيطاليّة، فإنّه، ولا فخر، حديث عنّي.

لا بدّ أنّك فهمت ظلّ من أنا، ولربّما كنت قد فهمت ذلك في الحال. هل رفعت كتفيك، ماذا تعني بذلك. أنّك لا تصدّق؟ لست حتماً من أولئك الذين لا يعتقدون بوجود الأشباح، وأنّ الشعر قد مات... اصقل أحاسيسك، وسّع مداركك، حاول، فهذا هو الوقت المناسب.

ها هم من جديد. إنّهم يثيرون الضحك بالفعل. تويت تويت، توك توك، شوشو، بيك بيك، ويب ويب، بريند بريند، فيس فيس، بوك بوك، تويت تويت... هل تسمعهم؟ لقد نقلوا العدوى حتّى إلى ظلّي، فأخذ يتكلّم مثلهم. سنتكلّم سويّة بهذه اللغة المرقّعة، المتوحّشة، المتوغّدة... حسناً، أوكّي، هل هذا يروق لك؟

11- Malacoda, Alichino, Cagnazzo, Calcabrina, Rubicante, Scarmiglione, Draghignazzo, Ciriatto, Graffiacane, Libicocco, Farfarello, Barbariccia...
وهم مجموعة من شخصيّات ابتكرها دانتي ووضعها في كتاب الجحيم من الكوميديا الإلهيّة (م).

12- Ulysses, Aeneas

لقد فهمت من أنا. لم يخرج صوتي من تلقاء نفسه، لكنّي أتظاهر أنّك تسمعني، وأنّك تصدّق كلامي.

هذا محض جنون، أليس كذلك؟ لقد حان الوقت الآن لأوضّح لك كيف أمكن أن يحدث هذا، ولماذا أنا هنا، لماذا أنا ظلٌّ، شبح.

سأبدأ بقصّ القصّة.

***

كان اسمي دانتي، الفلورنسيّ المولد، الشاعر. وما زالوا يدعونني بهذا الاسم في أنحاء الأرض.

آليغييري مشتقّة من آليجر، وتعني «مجنّح». والحقّ أنّي حلّقت عالياً. وأنا الآن أطير ظلّاً كلّ سنة، في ليلة كهذه الليلة، من السماء إلى الأرض ومن الأرض إلى السماء. إنّي أهاجر كما يهاجر البجع والسنونو. لكن ليس بحثاً عن الربيع والشمس.



صورة دانتي آليغييري وهو يحمل كتابه الشهير: الكوميديا الإلهيّة

في الليلة بين 13 و14 أيلول من سنة الربّ 1321 انفصلت روحي مرتعشة وباردة عن جسمي، فانتهى كلّ عذاب آلامي البشريّة.

لقد تعذّبت على سريري ذاك في مدينة رافينّا، هزّتني قشعريرة برد وحمّى

شديدة، كان العرق يتساقط من ذراعيّ، ونبض قلبي يتسارع في صدري. لقد أصبت بالملاريا، تلك الملاريا اللعينة التي قتلت غويدو بالفعل، أثناء عبوري وديان كوماكيو، بين المستنقعات والضباب. كنت عائداً من مهمّة سفارة إلى مدينة البندقيّة لصالح زعيم رافينّا، الذي استضافني بعد ذلك وقدّم لي ذلك المنزل وذلك السرير، حيث أمضيت فترة احتضاري.

حلّقت روحي، بينما عانى جسمي من جهود رهيبة قبل أن يستريح بسلام.

هل تتابعني، أم أنّ زورقك صغير، صغير جدّاً إزاء هذا العبور من المرئيّ إلى اللامرئيّ، من الجسد إلى الروح الخالدة؟

لا وقت حتّى للروح كي تقف وتنظر إلى الجسد الذي خرجت منه، لأنّها منهمكة جميعها في التحليق بعيداً، إلى حيث ما زالت لا تعرف. تشعر أنّها عارية، كما لو أنّ رعشات الجسد قد انتقلت إليها.

إلى أين يمكن أن تكون قد ذهبت؟ هل نحو دوّامة من الظلام أشدّ حلكة من بئر مياه سوداء، نحو الأسفل، أو إلى داخل عمود من ضياء، يزداد إشراقاً، نحو العلى؟

ستتوقّف الرعشات عندما تدرك روحي أنّ حركتها حركة صاعدة، وأنّ دفء النور سيغمرها كما تفعل شمس الصباح.

قد تقول لي إنّي قد ابتعدت وإنّي أطيل الحديث، لأنّك تريد أن تعرف لماذا أنا هنا، ظلّاً يفكّر، في أسفل معموديّة سان جوفانّي لكن عليك أن تعرف قبل هذا كيف استُقبلت روحي البائسة في العلى، عندما أصبحت أمام سيّد الأكوان.

كنت هناك في الأعلى، متفاجئاً بسعادة جديدة، واسعة بلا نهاية. كنت وقتها أشعر بخوف شديد من أنّه لا يزال يتعيّن عليّ رؤية كارونته[13] بعينيه الشبيهتين بالجمر، وفرائه الأبيض القديم، وقاربه، ومجذافه، بينما مينوس[14]

13- Caronte ويدعى شارون أو أورفيوس، وكارونته هو الاسم الإيطاليّ لبحّار يظهر في كثير من أبيات أسطورة أورفيوس. (م) عن ويكيبيديا

14- Minosse أو مينوس، شخصيّة من الأساطير الإغريقيّة، استعارها دانتي من فيرجيليو ليجعل منها اسم أحد قضاة أنشودة الجحيم. (م) عن ويكيبيديا

يحكم وهو يزمجر زمجرة مخيفة، ويلفّ ذيله بعدد المرّات التي يريد للخطّائين أن ينزلوا فيها إلى هاوية الجحيم.

لقد كنت مذنباً خطّاءً. لكنّ توبتي كانت على ما أعتقد صادقة بما فيه الكفاية. فأصبحت في جنّة لا تشبه ما كنت أتخيّله أنا في جنوني كمنجّم، وفي ذروة جنوني كرحّالة في الآخرة. لكنّها لم تكن أيضاً مختلفة كثيراً عنها. هذا بينما سيطر النور، بكلّ انعكاساته وألوانه وطاقته. والروح تدرك هذه الطاقة على أنّها سلام وفرح. لا توجد وردة السماوات العلى، والجنّة لا تشبه بتلة ذات محيط واسع بلا نهاية. بل إنّها تشبه القمع، إذا حقّ لي أن أقول ذلك.

بهذا فكّرت. قمع. ثلاث دوائر ضوئيّة ذات مركز واحد، مرتّبة حسب الحجم، الأولى هي الكبرى، ثمّ دائرة الوسط، ثمّ الصغرى في الأسفل، تبدو بعيدة، لكنّها مشرقة جدّاً، ونقطة تألّق مبهرة لدرجة أنّه من المستحيل النظر إليها، على الرغم من أنّه مفهوم أنّها موجودة وأنّها مصدر حركة كلّ الفردوس الدورانيّة البطيئة، حركة الكون كلّه.

هناك يقيم ربّ الكون. ليس في وردة أو في قصر ذي أبراج بجدران من زمرّد: بل في قمع، قلت لنفسي، لكنّي بدأت ربّما أقع في الخطأ. لقد دفعني فرحي الشديد إلى التجرّؤ، فماذا كنت أظنّ أنّ ربّ الكون يعمل؟ هل يصبّ النبيذ والزيت، هل يعمل بالنبيذ أو في معصرة؟

عادت روحي لترتعش من جديد. لا أرى ملائكة ولا ملائكة كبار يرحبّون بي، ولا خفقان أجنحة أو بريق سيوف، فقط تلك الدوائر الثلاث من ضوء غير ماديّ وحيويّ للغاية.

شعرت كما لو أنّ بصري قد قوي واحتدّ، فتمكّنت ذات لحظة من أن أميزّ داخلها شيئاً كنت قد توقعت وجوده، لكنّه صدمني في الوقت نفسه، من دهشة وفرح: فبدءاً من الدائرة الوسطى ثمّ الصغرى والكبرى، رأيت أنّه قد بدأت تتشكّل سمات شبيهة بالبشر داخل ذلك الذي سمّيته قمعاً، تهوّراً منّي.

لا أفهم إذا كان هو رجلاً أو امرأة، وبأيّ عمر هو. دقّقت النظر، وقد أصبح أساساً أشدّ حدّة، فوجدت أنّ الملامح قد تكون ملامح رجل يشبه

المرأة، أو امرأة تشبه الرجل، وأنّه في عمر يجمع جميغ الأعمار وقد ارتبطت بعضها بعضاً بشكل غامض، أي من عمر طفل وليد إلى عمر رجل عجوز. وجه وعينان وحاجبان وأنف وفم، لكنّها ليست مصنوعة من لحم وعظام وغضاريف، بل مصنوعة من مادّة سماويّة، لا تلمس، وشديدة النقاوة.

فكّر قليلاً فيما شعرت به عندما رأيت نوعاً من الابتسامة تظهر على ذلك الوجه: أقول نوعاً، لأنّها كانت ابتسامة فيها ألف ثمّ ألف ابتسامة أخرى: ابتسامة رضا وقبول تخفي ابتسامة تساؤل، تخفي ابتسامة سخرية، تخفي ابتسامة سرور، تخفي ابتسامة تفاهم، تخفي ابتسامة تأنيب، تخفي رسالة أخرى من الرضا والقبول، وهكذا إلى ما لا نهاية.

ثمّ فكّر عندما أسمع صوته، صوتاً يحتوي على ألف وألف صوت، لكن بدون دويّ، صوتاً واضحًا مثل خرير مياه صافية بين ضفّتين شديدتي الخضرة ومتقاربتين.

يتحدّث سيد الكون بلغة ليست لغة إسرائيل، ولا لغة روما. وربّما ليست تلك التي كانت شائعة قبل أن يسبّب برج بابل تحطيمها وانتشارها. لكنّها، أتت من أين أتت، فإنّها ومع ذلك، لغة أفهمها، ويمكن أن يفهمها أيّ كائن حيّ، بل ربّما غير حيّ، موجود بين الأرض والسماء.

لقد وصلتَ الآن يا بنيّ، وإنّك ترى الآن الحقيقة التي طالما بحثت عنها. لستُ واثقاً فيما إذا كانت هذه كلماته بالفعل وعلى وجه الدقّة، أو فيما إذا كانت نتيجة تفسيري الأخرق. لكن هذا ما أراد قوله.

لا أجرؤ على الإجابة، أعتقد أنّني سأستخدم اللاتينيّة، ثمّ لا، الفلورنسيّة، الإيطاليّة، على كلٍّ فهو يفهمها، وقد قصصت بالإيطاليّة قصّة رحلتي نحوه.

التزام الصمت أفضل.

لكنّ قلقاً غريباً يلمّ بي. لقد تمّ استقبالي، لكنّني ما زلت هناك، على عتبة الفردوس، ولا أرى القدّيس بطرس بمفاتيحه، القدّيس جاكومو، بارون غاليسيا، القدّيس يوحنا، المبشّر، ولا أولئك الذين فحصوني في الإيمان والأمل والمحبّة عندما تخيّلت أنّي أمثل أمامهم خلال رحلتي وأنا على قيد الحياة. كما لا أسمع ترانيم الملائكة والمطوّبين.

ما الذي يحدث لي، يا روحي البائسة في بردها، لماذا لا أشعر بما أستحقّ من سلام وخلود؟ وبينما يستمرّ سيّد الكون في الابتسام بتلك الألف ابتسامة، فإنّ قلقي يزداد عندما تهيمن ابتسامة التأنيب أو ابتسامة السخرية.

أوه، يشتدّ القلق، بالتأكيد. وأواجه سؤالاً رهيباً: هل حدث أنّ روحاً وصلت إلى مجد النور السماويّ ثمّ رمي بها بين لهيب يعذّب أولئك الذين يتعيّن عليهم تطهير أنفسهم، أو في نيران الجحيم الرهيبة؟ أو أنّ شخصاً ما اقترب من أجنحة ميكائيل وجبريل البيضاء ثمّ انتهى به الأمر ليقلب رأساً على عقب في مملكة إبليس لوسيفر ويقع بين مقاعد بارباريتشا ولبيكوكّو القذرة؟ لا أعرف، لكنّني ما زلت أفكّر في ذلك.

لا تخف -قرأ سيدّ الكون أفكاري، فليس عبثاً هو ذكاء وطيبة لا حصر لهما، وفي ذلك راحة لي- لقد جاءت بك رحمتي إلى هنا، ولم يأت بك فيرجيليو، ولا بياتريشه، كما كتبت.

ربّما كان سيّد الكون هو سيّد أيضاً للمكتبة الواسعة الكبيرة بلا نهاية التي تضمّ كلّ الكتب التي كُتبت، بل حتّى الكتب التي فكّر بها أو خطّط لكتابتها واحد منّا نحن البشر، خلال آلاف السنين. على أيّ حال فهو يبرهن على أنّه يعرف كتابي الذي وضعت السماء والأرض عليه الأيادي، كما لو أنّه شارك هو أيضاً في كتابته.

إنّك الآن خالد في النعيم. لكن...

كان حرف العطف والنفي الصغير هذا كافياً لإحداث بلبلة مخيفة في نفسي، مثل ريح شماليّة عصفت بين أغصان شجرة في الربيع. ماذا يعني ذلك؟ ما الذي سيحدث لي؟

إنّك تعلم، ولقد وبّختك بالفعل على هذا فتاتك بياتريشه لدرجة جعلتك تبكي -لقد قرأ كلّ شيء، ولا مفرّ أمامي- إنّك أحببت بشدّة الشعر والجمال الأرضيّ، أحببت أجساد النساء، ونساء الشاشات، كما سميتهنّ، أجسام النساء القاسية كالحجارة، والبنات الصغيرات، والصديقات تحملهنّ في زورق سحريّ مع أولئك الكفرة من أصدقائك، وأجمل ستّين امرأة في فلورنسا، الستّين ملكة، وقد كان لدى سليمان أكثر من ذلك، وقد عبد الأصنام مثلك، لأنّك تعلم أنّ الجمال الأرضيّ هو صنم، وأنّ الشعر صنم.

هزّت نفسي ريح أخرى، وكادت تطويها في انحناءة.

لقد أنقذتك نعمتي ورحمتي، لكنّك ستدخل بصورة نهائيّة إلى نور الفردوس وسلامه بشرط واحد -هذا ما كان يعنيه ذلك التموّج المطويّ على السخرية في الابتسامة الإلهيّة الواسعة بلا نهاية- بهذا الشرط فقط.

لقد كتبت أنّك رحلت بجسدك، بلحمه ودمه، بين ظلال الآخرة وصولاً إلى الفردوس، لذلك فإنّك ستقوم الآن بالرحلة المعاكسة، ستقوم كظلّ بترحال بين الناس، بلحمهم ودمهم. وسيحدث هذا في ليلة واحدة كلّ عام، ستنزل من الخلود في الزمان، وستبقى هناك من غروب الشمس إلى شروقها، غير مرئيّ، بدون حاسّتي اللمس والتذوّق، غير مادّي على الإطلاق، لكنّك ستكون قادراً على الرؤية والسمع والشمّ...

وهكذا فإنّ الجمال الأرضيّ سيكون غير ملموس بالنسبة إليّ، وفي ذلك عذابٌ أكثر من اللذّة، ولا يمكن لي أن أنتظر تحيّة من أيّ امرأة، ناهيك عن أيّ مزيد.

أليس في هذا عقاب؟ ما رأيك أنت؟ لكن هكذا قرّر سيّد الكون.

وختم كلامه وقال وهو يبتسم بواحدة من ابتساماته الألف: «هذه إرادة من بيده الملكوت، فلا تسألنّ من جديد»[15].

لو سمعت في وقت آخر أنّ سيّد الكون يقتبس كلامي بحرفيّته، لامتلأت بذلك فخراً لا حدود له. لكنّي الآن قلق جدّاً بحيث لا يمكنني أن أحسّ بشعور آخر.

وجدت الشجاعة على توجيه سؤال. ألن ينتهي هذا؟

سينتهي بكلّ تأكيد، لأنّ هذا هو بيتك الحقيقيّ، يا بنيّ. ستعود إلى هنا بشكل دائم، لكنّي أنا الذي سأقرّر متى، ربّما في آخر الزمان.

15- هذه ترجمة مجتزأة لبيت من أنشودة دانتي في كتاب «الجحيم». لكنّ الرواية الحاليّة أوردت البيت بصيغته الأصليّة:

«Vuolsi così colà dove si puote /ciò che si vuole» e colà dove si puote è qui.

وقد جاء في ترجمة حنّا عبود للكوميديا الإلهيّة (دار ورد للنشر- دمشق ص 60) ترجمة مجتزأة أيضاً لهذا البيت على الشكل التالي: «هكذا تقرّر في الأعلى، فعليك أن تفعل لا أن تسأل. كفى».

حينها اعترتني هزّة، كأنّها من رعب، لانّ الصوت صدر وكأنّه يحجب ابتسامة خفيفة.

ويمكن أن يحدث قبل ذلك.

فسألت وقد اعتراني الاضطراب: كيف؟

يمكن أن يحدث قبل ذلك، على شرط: أن تبادلك الحبّ امرأةٌ ستغرم بها.

وهل الأمر كذلك؟ وكيف يمكن لامرأة من الأرض أن تبادل حبّ ظلّ، حبّ شبح لا يرى مثلي؟

لاحظت أنّي أخطأت، ولا جدوى من مواصلة الأسئلة، بل إنّي كنت سأعض على شفتيّ لو كان للروح شفاه، ففي نيّتي إعطاء انطباع بأنّي أريد أن أكون مشاكساً حتّى في هذا المكان.

استرح الآن، فقد تبدو رحلة الروح من الأرض إلى هنا رحلة مباشرة آنيّة، لكنّها متعبة. أنت الآن في الجنّة، فتمتّع بالفرح والنور، وعندما يحين اليوم الذي تعتبره التقويمات البشريّة الخامس والعشرين من آذار، وهو اليوم نفسه الذي قلت إنّك بدأت فيه رحلة جسدك إلى الجحيم، فإنّك ستذهب كلّ عام عند غروب الشمس لتعيش حياتك كظلّ على الأرض.

لم يكن بوسعه أن يبتكر طريقة في الانتقام أكمل من هذه... ولم أتمكّن من التراجع عن سؤال أخير:

وأين على الأرض؟ هل مُنحت إمكانيّة الاختيار، وهل اخترتُ بالفعل؟

هكذا سارت الأمور، صدّق أو لا تصدّق. كان عليّ الخضوع لهذا القرار الغريب والغامض لسيّد الكون، ذلك كي يمكنني التمتّع بالنور والسلام والخلود.

ولهذا فأنا هنا.

إنّي أتساءل حول حياتي الماضية، حول ما فعلته وما كتبته وما فكّرت به. وكذلك حول وجودي الذي طال بالفعل كظلّ هنا، ولا أعرف متى سينتهي. وهو مستمر بحبّ الجمال الأرضيّ بكلّ الأحاسيس التي سمح لي بها.

هذه هي الليلة السبعمئة، أو الستمئة وتسع وتسعين، قم أنت بالعدّ، فلديك التقاويم اللازمة.

الليلة الأولى كانت هي الأصعب. لسرعة الرحلة من الخلود إلى هنا... ولأنّها طويلة بالفعل، تجري بمليار من مليار جزء من البرهة... وأن ترى فجأة ومن جديد وبعد كلّ سنين المنفى قلب المدينة، مدينتي، والمعموديّة، وأن تكتشف وجوه بعض المارّة، وتشعر بالقلق ريثما تجد بينهم جاكوبو وبيترو... لو كان بمقدور ظلّ أن يشعر بالدّوار، لشعرت بدوار يطرحني على الأرض.

كنت أشعر... ولا أستطيع أن أقول لك ماذا كنت أشعر، من شدّة الوضع الذي كنت فيه وأنا خارج العالم. كان عليّ أن أعتاد على فكرة أنّه لا يمكن لأحد أن يراني، وعلى فكرة أنّه لا يمكن لي بأيّ طريقة أن أشير للآخرين بأنّي موجود.

توجّه تفكيري أوّل ما توجّه نحو أولادي، فقد تمّ جرّهم إلى المنفى، في تلك الحياة البعيدة عنّي، ومن يدري إذا كانوا قد عادوا إلى فلورنسا. ماذا بوسعي أن أعطي مقابل أن أراهم... جاكوبو، بيترو، آنتونيا... بالفعل، ماذا؟ وليس معي شيء، ولم يكن بوسعي حتّى أن أضمّهم في عناق، إسماعهم كلمات من فمي، كلمات عطف وحنان طالما حرمتهم منها، بينما أنا مشغول بأعمالي، بدوّامة الكلمات التي كانت تدوّي وتضربني داخل قلبي ورأسي كي أستمرّ في حكايتي لرحلتي حتّى النهاية.

كان يكفيني أن أراهم، فبقيت بعينين منفلجتين في كلّ الساعات بين الغروب والفجر، على أمل أن يمرّوا من هناك.

غير أنّي رأيت أوّل ما رأيت أشخاصاً من عائلة دوناتي مع أتباعهم من المرتزقة، فليعلنهم الله وليغرقهم في أحلك طبقات الجحيم الممتلئة كلّها بخراء الشياطين، في أنتن طبقة، مع كانياتسو وبارباريتشا.

لم تمرّ زوجتي جيمّا. وكنت قد نسيتها، دونما بغضاء، وكان زواجنا عقداً بين العائلات، وليس غراماً، ولم أكتب عنها أبداً، ولن أقول لك عنها أكثر من ذلك.

كان يمرّ من أمامي أعدائي، فكنت أفور من الغضب مثل الماء في طنجرة تركت على النار لفترة طويلة. كان يمرّ أمامي أولئك الذين كانوا في الجهة

المعادية لي، الكلاب السود التي كانت تلعق قدمي البابا بونيفاتشو، تلعق خاتمه الذي كان يقال إنّه قادر على استحضار الشياطين، وكانوا قد نفوني، وحرموني من أملاكي، وحكموا عليّ بالحرق.

فكّر في عذابي لأنّي كنت لا أملك وسيلة لمجابهتهم، وكنت سأجابههم حتّى لو كانوا عصبة، كثيرين مقابل رجل واحد، حتّى مقابل رجل ركب حصانه وغرز رمحه في صدر العدوّ خلال معركة كامبالدينو. كنت في الصفّ الأوّل من الفرسان، وما زلت أذكر مشاعري المزيج بين الفرح والخوف والتي شعرت بها خلال ذهابي إلى الهجوم.

كنت أفور من شدّة رغبتي في مجابهتهم، لكن دونما جدوى. وما زالت في قلبي الشتائم الدمويّة، المليئة بالازدراء، بالحقد، وبالرغبة في الانتقام، ويثور منها زبد كما يثور من نبيذ داخل إبريق مضطرب. كيف يصحّ أنّي جئت من السماء، بينما ما زلت أشعر بمشاعر أرضيّة كهذه، لا بدّ أن تحملني مباشرة على الندم؟

لكنّي أدرك أنّي، وأنا في وضعي هذا كظلّ، سأكون محمياً من كلّ أذى في الجسم، لكن ليس من بلابل النفس.

ما زلت أبغض.

وإذا لم أدخل إلى سان جيوفانّي، لا وقتها ولا في أيّ وقت، فذلك لأنّه في داخل هذا المكان على وجه التحديد، حيث توجد أحواض المعموديّة، حدث شيء ما أثار على الفور شائعات جرت عنّي كفاعل لعمل تجديفيّ. وقد ساعدت تلك الشائعات لعبة أعدائي اللعينة، الذين لم يروا ساعة التخلّص منّي.

كنت منفيّاً، محكوماً عليّ بالحرق، فانظر لترى فيما إذا كنت مبغوضاً بالفعل. ألم يكن عليّ أن أبغض أنا أيضاً؟

هذا ما حدث، أقسم لك. رأيت صبيّاً نحيفاً، مضطرب الوجه، قصير الذَراعين كما لو أنّهما متقلّصتان، رأيته ينزل إلى جرن من أجران المعموديّة، وكان الماء فيه مرتفعاً بدرجة كافية لتغطيته بالكامل. ترك نفسه تذهب، لكنّ ذراعيه القصيرتين لم تطولا حوافّ ذلك الجرن، فبدأ يهتزّ بحركات آليّة كالدمى، لا بدّ أنّه شعر بخوف قاتل عندما انزلق، وبدأت تطفو بعض

الفقاعات وهو يقرقر داخل الماء. من الواضح أنّ تلك المياه مقدّسة، لكن هل هذا سبب وجيه لترك هذا البائس المسكين يموت داخلها؟ لذلك فقد تناولت فأساً، وكسرت بضربة واحدة جدار الجرن الدائريّ، فتدفّق الماء وأصبح الصبيّ بأمان.

لكنّ أصوات الاستنكار ارتفعت بين بعض الحاضرين، وهتف أحدهم مندّداً بهذا العمل... لقد كانت فعلتي نابعة عن شفقتي على الصبيّ، شفقة رحمة واسعة من أجل إنقاذ حياة بريئة، لكنّ بعضهم رأى في هذا العكس، رأى فيه تجديفاً وتدنيساً.

سرت الشائعات، وتضخّمت في أفواه أعدائي، فأنا الزنديق، عدوّ البابا، الذي كان قد صوّت ضدّ إرسال جنود فلورنسا لمساعدته في روما، شاعر الحبّ، صديق كفّار مثل غويدو ابن كافالكانته كافالكانتي.

اختفى بالتدريج في القصّة التي دارت حول الحادث، ذلك الفتى البائس الذي كان يغرق، وبقيت وحدي، بطل الرواية الشرّير الذي تجرّأ بفأسه وكسر جرن المعموديّة، وأسال الماء المقدس، في ازدراء واضح للشعيرة التي تجعل منّا مسيحيّين.

لقد جرحني هذا التحريف للحقيقة، هذا العكس الشرّير المغرض لمعاني فعل ظننته فعل خير وكان كلّه فعل خير.

لقد تعلّمت أنّ الخير يساء فهمه، وأنّه يثير الاستياء، وأنّ فعله أمر خطِر يقع على مسؤوليتنا، أمّا الشرّ الذي يدان، فإنّه يدان بالفعل، لكن بطريقة سطحيّة، بالكلام وحسب... بينما يعجبون به في قلوبهم، بل يحسدونه لأنّه يعتبر برهاناً على القوّة، على تلك القوّة الجذّابة والشنيعة التي تميّز الشيطان وتهيمن على تاريخ البشر.

أدركت مباشرة أيضاً أنّ الانجذاب نحو الجمال الأنثوي كان يعيش في داخلي وأنا ظلّ، بالشدّة نفسها التي كان عليها عندما كنت في ثوبي الجسديّ، عندما كنت قادراً على التفكير بما يمليه الغرام. وقد رأيت في الأمر نوعاً من العزاء، لأنّ الشعور بالكراهيّة فقط سيكون شيئاً حزيناً بالفعل.

ما زلت أشاهدهنّ وهنّ يمررن أمامي، أولئك النساء اللواتي كرّست لهن

أبيات شعري: شاهدت الفتاة الصغيرة الجميلة وقد أصبحت امرأة، بعينين كانتا تذبحان قلبي حتّى الموت، لكنّهما أظلمتا الآن، وهي مثقلة تجرجر أطفالها، ورأيت السيّدة بيّترا وقد انحنى ظهرها وابيضّت ضفائرها، رغم أنّ نظراتها ما زالت متعجرفة وقاسية.

ثمّ، وعاماً بعد عام، انقرض ما كان عليه عالمي وأنا حيّ، لكنّه كان لا يزال لديّ وقت للاستماع إلى جيوفاني بوكاتشيو، وهو كاتب قصص جيّد، ولا بدّ أنّه كان طفلاً عندما غادرت المدينة إلى المنفى، وكان يقرأ أناشيد قصائدي في الساحة. كان بارعاً في ذلك، كان يحسن القراءة ويعلّق عليها بشكل صحيح. بل إنّه هو الذي أضاف كلمة «إلهيّة» إلى عنوان «الكوميديا»، فعُرفت ملحمتي بهذا العنوان منذ ذلك الحين.

لقد انقضت قرون كثيرة الآن. وبدأت الرحلة الآنيّة من الخلود إلى الزمن المتصرّم الفاني تقضّ مضجعي، وتجعلني أشعر بائساً مهجوراً، وحيداً، قذراً، غير ذي فائدة في أيّ أمر. كما بدأت حالة الظلّ تلقي بثقلها عليّ، لتجعلني غير سعيد إلى حدّ ما. وأتمنّى أن تنتهي.

لكنّي أعترف أنّ هذا كان إضافة في حياتي، غريبة كما تشاء، غير كاملة وغير سليمة كما تشاء، لكنّها تبقى دائماً حياة أرضيّة، فيها إمكانيّة الاستمرار في الإعجاب بالجمال وتكريمه.

وأعترف لك أنّي، قرناً بعد قرن، عندما أرى أمامي النساء يمشين، كثيرات، بين صبايا وفتيات وناضجات، من بلدان مختلفة وبلغات شتّى، فإنّي أتذكّر حينها ومن جديد الملك سليمان:

من هي تلك التي تشرق كالفجر،
جميلة كالقمر، نقيّة كالشمس،
ورهيبة مثل راية الجيوش؟

أشعر كأنّه كان يغنّي بمصاحبة قيثارة، بين وسائد من حرير، سجّاد، وأوانٍ فضّيّة وذهبيّة... وأنا أمام جمال كثير من المجهولات، حتّى بكوني ظلّاً، مهلهلاً، ممسوخاً إلى شخص مشرّد، فإنّي على استعداد لأن أفعل مثله، لأن

أشرّف أنا أيضاً كاموس صنم المعابيّين، وميلكوك صنم أولاد عمون، وآلهة آدوم وصيدا ومنفي... والحقيقة أنّني صدقاً نسيت الفردوس.

كانت دائما أسماء غريبة، أسماء أولئك النساء المرسومات على أغلفة المجلّات. فكّرت بهذا الآن وأنا أنظر إلى الكشك المغلق، ربّما بصورة دائمة، والذي غزاه الصدأ والغبار.

أسماء أجنبيّة، يبدو لي أنّي أذكر أحدها، رانية، واسم آخر رلى، هل هذا ممكن؟ في الصور المرسومة ظهرت كلتاهما ببشرة مذهّبة، ونظرات كبرياء وذكاء.

أحاول تقديم اسم للجميلات بلا اسم اللائي يمررن أمامي: فانّا، لادجا، فرانشيسكا، بيكّاردا، بيا... لكن بغير جدوى، أن أحاول الوصول إلى فهرستهنّ وأن أسعى إلى تذكّر ستّين منهنّ:

النساء الصبايا لا يمكن تعدادهنّ

إنّي، عن غير قصد منّي، مثل بينيلوبه[16]، أنكث عند الفجر نسيج الأسماء التي نسجته خلال الليل... لو أنّ بوسعي أن أكتبها. لكنّي لن أتمكّن عندها من إنهاء القائمة، وسأخجل بما فيه الكفاية لأنّي فكّرت في ذلك.

إنّي أشعر بالتعب، ولي الحقّ في ذلك في هذه الليلة السبعمئة. ولا أدري إلى متى سيستمرّ هذا. أن أعشق... إنّي قادر على هذا في كلّ مرّة، لكن أن تبادلني الغرام واحدة: كيف لهذا أن يتحقّق؟

لقد سخر منّي سيّد الكون. سأبقى ظلّاً لليلة، ومن يدري إلى متى؟ وحيداً، حتّى المتشرّدُ ذو الضفائر الشقر ليس في مكانه المعتاد، رغم أنّه ترك هنا سلّته وغطاءه.

إنّي أسمع الآن هديراً يعلو ويشتدّ كلّما اقترب على طول الطريق، إنّه شبيه بهدير فيليبّو ديلّي أديماري اللعين عندما كان يأتي على حصانه ذي الحدوات الفضّية، وهو يلسعه بسوطه لسعاً دامياً، ويعدو به بجنون حتّى

16- Penelope زوجة أوديس في ملحمة أوديسّا لهوميروس، وهي رمز الإخلاص الزوجيّ. (م)

في أضيق الأزقة، ويسحق المارّة من كبار السنّ ونساء وأطفال، فلا يكفيهم أن يلتجئوا بظهورهم إلى الجدران لينقذوا أنفسهم، من غضب ذلك الرجل الممسوس... أمّا الآن فهي سيّارة زرقاء جاءت بأقصى سرعة، بعجلاتها ذات الصرير التي تثير الغبار. خرج منها اثنان من رجال الشرطة مسلّحين بالهراوات والمسدسات، فرفعا رأسيهما فوق العنق وباعدا بين القدمين وهما ينظران حولهما، ولا أعرف ما هو سبب مجيئهما.

ثمّ جاء صاحب كشك يبيع المشروبات في جوار المكان، رجل كبير، أصلع، بارز الكرش، يرتدي قميصاً مورّداً يكشف عن جلده ووبره بين الزرّ والآخر، يمشي بصعوبة وهو يصرخ ويهزّ يديه باتّجاه الشرطيّين: «أجل، إنّه هو، هو بالذات!». ثمّ أشار بيده الضخمة الممدودة إلى رجل شابّ نحيل وطويل ذي شعر مجدول بكثير من الجدائل كان يسير باتجاهي.

طارده الشرطيّان ثمّ أوقفاه.

«إنّه هو، لقد سرق لي علبتيْ بيرة، وشربهما لا أعرف أين، إنّي لا أستطيع التقدّم بهذه الطريقة، لقد فقدت الكثير ولم أعد أربح شيئاً، ولا تنقصني إلّا السرقة الآن...».

قال أحد الشرطيّين للشابّ وقد تمّ تقييده: «هل جئت إلى هنا لتسرق؟ ابق في بلادك أيّها الأحمق، عد من حيث جئت».

لم يبد الشابّ المشرّد أيّ مقاومة، ولا يبدو أنّ القيد يزعجه. كان ينظر حوله مبتسماً. ابتسمت له أنا أيضاً وحيّيته بهزّة من يدي، كما لو أنّه يستطيع أن يراني. بدا أنّ الشرطيّ الآخر كان أشدّ غضباً، فرفع يده كأنّه يريد توجيه صفعة على وجهه.

خرجت من بين المجموعة التي تشكّلت حولهم، امرأة شابّة، نحيلة رشيقة، شعرها كستنائيّ غير قصير ولا طويل، بل كثيف ومموّج، ويبدو أنّها صارمة. لديّ انطباع بأنّي قد رأيتها من قبل، يجب أن أتذكّر متى كان ذلك.

صعقت الشرطيّين بعينيها حتّى من خلف نظّارتها ذات الإطار الأخضر:

«ليس لك الحقّ في...».

كان في صوتها لكنة أجنبيّة، كما لو أنّ الكلمات تتجرجر من فمها قبل أن تذوب عليه.

«وأنت ماذا تريدين؟ ابتعدي من هنا».

فصاح صاحب الكشك قائلاً: «ماذا تريد هذه الوسخة؟ لقد سرق لي علبتيْ بيرة».

«ابتعدي من هنا»، كرّر الشرطيّ الأكبر سناً.

هذا بينما أدخلا المشرّد إلى السيّارة وانطلقا بالضجيج الذي أتيا به.

عاد الصمت وخيّم. قلّ عدد الناس، لكنّ البعض بقي في المكان، صامتاً، كما لو أنّه لا يعرف إلى أين يذهب. بقيت الفتاة الشابّة الشجاعة تنظر إلى سيّارة الشرطة حتى اختفت وهي تهزّ رأسها. كانت هي الوحيدة التي تدخّلت في مواجهة هذه الإساءة. هذا العنف غير المجدي.

أنظر إليها الآن جيّداً. لجسدها النحيل حركات حاسمة، وهو قادر على وثبات بالذراعين والساقين. حملتني نظّارتها بإطارها الأخضر على أن أفكّر في شخص رأيته بالفعل، ويبدو لي الآن أنّني ركّزت وتذكّرت حتّى في أيّ ليلة رأيتها. كان بودّي أن أمعن النظر فيها بشكل أفضل، لكنّ الأمر استغرق منها لحظة لتختفي. يا للأسف.

كما لو أنّ الصمت جذب من الجوّ طائر النورس هذا فحطّ على الأرض. وكنت كثيراً ما أرى النوارس عالقة تتسكع بين تحرّكات البشر، إنّها تنقضّ، كما كانت تنقض النوارس من أسلافها على البحر، وتحاول النبش في القمامة ثمّ تمزّق بمناقيرها الأغلفة والأوراق، ثمّ تميل وهي ثابتة جامدة بينما ترتفع رقابها إلى الأعلى، كأنّما هي تحنّ إلى السماء. أمّا هذا النورس فيهبط على مرمى حجر منّي. على غطاء الشابّ المتشرّد. يضع مخلبيه ويفتح جناحيه ويغلقهما دون أن يتحرّك على الأرض أو يعاود الطيران مرّة أخرى. لا يوجد شيء ليأكله هنا، سلّة المتشرّد فارغة. ومع ذلك، فالمنقار الأصفر يبقى ثابتاً، بعرق أحمر في أسفله، مقوّساً ومفتوحاً بعض الشيء، ويمكن له أن يخيفني لو كنت من لحم ودم. لا أعرف ما الذي يبحث عنه. ربّما لا شيء. ها هو يلتفت نحوي، ولا يحرّك رقبته ولا يرفع عينيه عن المكان الذي لا يعرف أنّني موجود فيه.

لكنّي أقسم لك أنّي ارتجفت لأنّي شعرت أنّه يعرف، وأنّه يعكس صورتي في تين العينين الباردتين الشاردتين.

-II-

معجزة من جديد، ولطف كريم Sì[17]

إنّي متأكّد الآن أنّي رأيتها بالفعل. في المرّة الماضية، أي قبل عام بالنسبة إلى البشر الفانين.

لا يوجد لي في السماء تقاويم ولا زمان، لكن عندما أرى أن سيّد الكون يذكّرني بابتسامته التي تتألّف في ألف ابتسامة، أنّ الساعة قد حانت، وأنّ فصولاً أربعة قد تتابعت هنا على الأرض، حسناً، فإنّي أعلم حينها أنّ تلك هي ليلتي، ضربة الحياة التي عليّ أن أعيشها ظلّاً بين الأحياء.

كانت هي، جاءت لتلحق بجاري المشرّد، وإنّي أعترف بأنّها لم تؤثّر فيّ بسبب جمالها. رأيت أنّها كانت نحيلة، شعرها بنّيّ وفيه بعض الخطوط بلون أخفّ، أنّها ليست بالطويلة ولا بالقصيرة، ترتدي ملابس بسيطة للغاية، ونظّارات بإطار أخضر مرفوعة على جبهتها. أمّا باقي الوجه، من الذقن إلى طرف الأنف، فمطموس بقناع من قماش أبيض، ولا أعرف لتحمي نفسها من ماذا، من الهواء نفسه الذي تستنشق، من مصيبة ما جاءت من بعيد، أنت تعرف ذلك، لأنّك كنت هناك.

فهل يمكن أن يقال عن امرأة إنّها جميلة من غير رؤية فمها؟ على كلٍّ فهي لم يكن في جسمها شيء يثير الانتباه، ومن الواضح أنّ ليس لديها أيّ نيّة في إثارة الانتباه.

أذكر أنّها قد انحنت نحوه، فوصلت إلى مسافة شبر من عيني. وهكذا فقد رأيت على الأقلّ لون عينيها، أزرق فاتحاً، قزحيّاً.

17- كلمة Si تعني بالإيطاليّة نعم، وهي هنا إشارة إلى الإيطاليّة كلغة.

بعد أن انصرفت، فتح هو الحقيبة التي تركتها قربه. رأيت أنّها تحتوي على زجاجة حليب، عبوتين من البسكويت وثلاث علب من البيرة. لم يتنازل الشابّ المشرّد بإلقاء نظرة على الحليب، لكنّه بدأ يقرط ببطء وفتور، بلا شهيّة، قطع البسكويت الجافّ بلون العسل، وكأنّما تلبية للواجب وامتناناً لكرمها. ثمّ إنّه كرع علب البيرة الثلاث في خمس دقائق. وهو يتجشّأ بهدوء بين الواحدة والأخرى.

نظرت إلى ذلك البسكويت بحسرة، كيف كنت سآكلها بكلّ سرور، ليس لأنّني كنت يوماً شرهاً، ولكن لأشعر للحظة واحدة، لمجرّد لحظة، أنّ هناك في حنكي طعم حياة مادّيّة ملموسة، حيث لا أقتصر على التفكير وعلى الإحساس بالمشاعر، بل أمضغ وأبتلع وأهضم وأتغوّط، وأنّ الدم يجري في العروق.

أراها الآن أمامي. إنّها هي، أنا متأكّد. لقد كانت شجاعة عندما جابهت رجال الشرطة بتلك الطريقة، وكذلك في حزمها على عدم قبول تهكّم صاحب الكشك، وتطوّعت لدفع ثمن البيرة التي ادّعى أنّها سُرقت منه.

وهكذا فقد سحبت ورقة نقديّة من محفظتها، وأمسكت بها بيدها وذراعها ممدودة إلى الأمام وبنظرة جعلت تلك الاتّهامات تبدو مضحكة وأنّ ذلك المال مجرّد صدقة.

لكنّها الآن هادئة. إنّها أمام المعموديّة، وأستطيع أن أراها بكلّ وضوح. في المرّة الماضية، لم آخذها حتّى بعين الاعتبار في قائمة الستّين ملكة. لكنّي في هذه المرّة لم أعد أفكّر مطلقاً بتلك القائمة اللعينة.

المرأة شابّة بالفعل، ترتدي بنطالاً بلون عاجيّ وقميصاً طويلاً أحمر غامقاً، يكاد يصل إلى ركبتيها. لا تضع على أذنيها قرطاً ولا ترتدي عقداً. بلِ تضع على عنقها شالاً من قماش أخفّ من الحرير، كما لو أنّه تبقّع بألوان حمراء، زرقاء، بنّيّة، عاجيّة. حركاتها واثقة، لها قدمان صغيرتان تبدوان داخل حذائها الخفيف وكأنّهما لا تلمسان الأرض.

إنّها تصوّر المعموديّة، فيصدر عن الآلة التي في يدها، وعند كلّ لقطة، بريق حادّ يعمي الأبصار. تبدو كأنّها شاردة الذهن وهي تبحث عن الأماكن

التي تأخذ منها الصورة. فتبتعد وتقترب وتنتقل بخطوات أخرى، على اليمين مرّة، وعلى اليسار مرّة أخرى.

من يعلم بماذا يشعر الناس عندما يصوّرون بوتيرة كبيرة... أنا أظنّ أنّهم بهذا العمل يضعف بصرهم، كما يضعف تأثيرهم على الواقع، فهم يفضّلون مشاهدة الواقع على الشاشة، بعدما يكون قد تحوّل إلى كومة أشباح.

وعلى سيرة الأشباح، فأنا موجود أمام المعموديّة، وبالذات أمام الواجهة التي تصوّرها، ذلك وأنا أضحك وأهزّ رأسي وذراعيّ كما لو أنّي غير شفّاف ويمكن لي أن أفسد عليها لقطاتها.

لم يبق كثير من الناس في هذه الناحية. لكنّ المرأة الأجنبيّة الشابّة تواصل التصوير بهدوء، ثمّ ابتعدت.

للأسف. كنت أتسلّى بمشاهدتها. وهكذا بقيت وحدي تماماً، لأنّ المشرّد الذي أخذوه مقيّداً ما زال الآن في المخفر، ومن يدري إذا كانوا سيخلون سبيله.

لكن ها هي تظهر من جديد بعد بضع دقائق. لقد فهمت، فهي قد دارت حول المعموديّة، وصوّرت كلّ جانب آخر من جوانب البناء ذي الأضلاع الثمانية. وهي من جديد أمامي، للمرّة الثانية.

بقيت واقفة على حالها، كما لو أنّها تنتظر أمراً ما. ربّما كانت تنتظر المشرّد، ولا تصدّق أنّهم سيبقونه سجيناً بسبب تلك التهمة الغبيّة. ما زالت هناك، شاردة الذهن. إنّها تنظر في اتّجاهي. لا تعرف أنّي موجود هناك، على مسافة خطوات منها، لكنّها الآن وقد أعادت آلة التصوير إلى محفظتها، فإنّها تبدو كأنّ عينيها تصوّرانني وهما تحدّقان في عينيّ.

أستطيع بهذه الطريقة أن أمعن النظر فيهما، إنّهما واسعتان تحت حاجبيها الناعمين، زرقاوان، لكنّهما كثيراً ما تغيّران لونهما، وها هي القزحيّة تتعتّم حتّى تصبح رماديّة مثل الرماد، ثمّ تتلوّن بشفافيّة خضراء زمرّديّة تحيط بسواد البؤبؤ، بسواده الحالك.

القسمات جميلة أيضاً. فالجبين ليس مرتفعاً جدّاً، والأنف مستقيم تماماً، والفم ذو شفاه ورديّة زاهية، بارزة نوعاً ما. والشعر البنيّ ببضعة خطوط من لون أخفّ، يتحرّك عند أدنى حركة تقوم بها.

إنّها الآن قريبة جدّاً، هنا، أمامي. أرى أنّ هناك على وجنتيها غابة كثيفة من النمش. وأشمّ الرائحة الطبيعيّة التي تنبعث من مكان التحام الصدغ بالشعر، إنّها رائحة لا يمكن تحديد فحواها، لكنّها حلوة للغاية.

تخيّلوا خيبة أملي عندما أخرجت من حقيبتها جهازها الصغير بشاشته المضيئة، وأخذت تنظر فيه باهتمام، وتمرّر إصبع سبّابتها عليه بسرعة كبيرة، ثمّ ضغطت عليه بشكل متشنّج بكلا الإبهامين. لا أفهم معنى هذه الحركات، لكنّي أشعر أنّها تبعدها عنّي، وتقودها بعيداً كلّما بدت كأنّها تقترب منّي.

ثمّ انصرفت. فكانت خيبة أملي كاملة.

إنّها الساعة، لو كان بوسع ظلّ أن يبكي، لبكيت. لكنّه لا يمكن لأيّ مزاج أن يصدر عن ظلّ. ودموعي هي دموع غير مادّيّة، الملح الوحيد فيها هو معنى لا يمكن تفسيره، رهيب من هجران وأحزان.

لقد تعبت من المكوث هنا. فيا سيّد الكون أنعم عليّ لمرّة ثانية. اجعل هذا الألم ينتهي مرّة إلى الأبد.

لم أملك الوقت لأنهي هذا الدعاء، ولا جدوى، لأنّ سيّد الكون الذي يسمع كلّ أدعية البشر الفانين، والذي يكلّم في السماء روحي بصوته ذلك الذي يتألّف في ألف صوت، بتلك اللغة السماويّة البسيطة بحيث تفهم، فهو في الليلة التي أنزل فيها ظلّاً على الأرض يتركني وحيداً، ليفتنني ومن يدري بأيّ فتنة، وهو لا يسمعني، ويتركني لأتدبّر أمري وحدي.

ثمّ إنّها عادت. هذه ثالث مرّة. هل تفهمون ما معنى المرّة الثالثة؟

المرّة الثالثة. إنّها كشف بالنسبة إليّ. لا بدّ أنّها دارت حول المعموديّة بالعكس. ربّما لأنّ بعض الصور لم تعجبها فأرادت أن تعيد تصويرها مرّة أخرى. ليس من المهمّ السبب والكيف، المهمّ أنّها أمامي للمرّة الثالثة.

يواصل شعرها الاهتزاز عند أقلّ حركة، أو ربّما هبّت نسمة ليليّة لا يمكن لي أَن أشعر بها. وانتشر من صدغيها عطر أكثر من بشريّ ليغمرني من جديد.

ما أزال أنظر إليها. إنّها هي، هي أمامي. تبتسم. وهي تلتقط الآن صورة تؤطّر فيها قطعة من الواقع، باب المعموديّة الذي يفضي إلى الكاتدرائيّة، على اليمين نوعاً ما بالنسبة إلى من ينظر، أي حيث أوجد أنا بالذات. ثمّ

تلتقط صورة أخرى. تصرّ، كما لو أنّها تريد أن تلتقط بآلتها صورة غير مرئيّة لجميع الآخرين من غيرها. صورة ظلّ.

أشعر للمرّة الأولى أنّ شخصاً ما يراني ولو بصورة مضطربة، يدرك وجودي كشيء غير ماديّ بين كلّ الأشياء الماديّة حولي.

إنّه شعور يثيرني. ولا أستطيع التحكّم فيه. هل هذا هو الخلاص؟ أم هي لعنة؟ لا أعرف، لا أعرف لكنّه يثيرني، يجعلني أرتجف، يجعلني أنسى التعب والملل، يضع في قلبي رغبة بحياة جديدة، حتّى وأنا في هذه الحال النصفيّة، حال ظلّ لا يمكن له أن يلمس ولا أن يتذوّق أيّ شيء، ولكن يمكن له أن يشعر بالرغبات والدوافع.

لا يمكن لي أن أفقدها.

بل هو دافع يجبرني على أن أتبع تلك المرأة الصبيّة عندما تهمّ بالانصراف.

لا يمكن لي أن أضيّعها.

للمرّة الأولى، الليلة السبعمئة، أو هي الليلة الستمئة وتسع وتسعون... وما أهميّة هذا؟ ربّما قد أدرك بعضهم وجودي. لا أعرف كيف يمكن أن يحدث هذا. لا أعرف حتّى ما إذا كان هذا صحيحاً. ربّما ليس هو كذلك. لكنّي أعلم أنّه عليّ أن أتبع هذه المرأة الشابة. هذا أقوى منّي ومن مخاوفي.

إنّي الآن خلفها، على مسافة قريبة، أجعل خطواتي متناسقة مع خطواتها. وإذا كانت خطواتها خفيفة، فما القول في خطواتي، خطوات الظلّ؟

لأول مرّة أبتعد عن المعموديّة، وهي منارتي، وسرّتي على الأرض.

لم أفعل ذلك أبداً. ظننت أنّي سأضيع بين شوارع مدينة لم أعد أعرفها، وقد توسّعت بشكل تدريجيّ حتّى أصبحت هي نفسها غابة مظلمة، من الحجر والطوب والإسفلت والخرسانة والصلب، ومن يدري أيّ خطر سأجابه إذا جازفت وتجوّلت فيها.

إذا كانت المعموديّة هي المركز، فكلّ شيء سيدور حولها. كنت مقتنعاً بهذا فلم أتحرّك من هناك. ألم يكفني أنّي هبطت من الجنّة على الأرض بجزء من مليار من الثانية؟ فإلي أيّ شيطان عليّ أن أذهب ثانية؟

ومع ذلك، فقد تغلّبت على كلّ هذه المخاوف من أجل اللحاق بهذه الصبيّة التي لا أعرف من أين جاءت ولا ما هو اسمها. بالغريزة. دون أن أفكّر بالأمر. من غير أن أجري تقييمات إيجابيّة وسلبيّة. مدفوعاً برغبة لا أستطيع تحديدها أو السيطرة عليها. هذا بشريّ وأكثر من بشريّ، ويسبّب الرجفان. إنّه مفرح وقاتم، يكاد بالفعل أن يكون شبيهاً بالحبّ.

هل أنا على طريق الغرام؟ لماذا؟ كيف يمكن أن يحدث هذا لظلّ؟ مع أنّي قادر على معرفة علامات ذلك اللهب القديم... إنّه يحثّني على اللحاق بهذه الصبيّة، على الظنّ بأنّه سيكون من الرائع لو أنّها شعرت حقّاً بوجودي، لو أنّها ألقت عليّ تحيّة.

وهكذا فقد تقدّمت عبر المدينة التي كانت مدينتي، ودليلتي هذه الصبيّة الأجنبيّة. لقد عهدت بنفسي إلى فرجيليو وإلى بياتريشه خلال رحلتي من الجحيم إلى الفردوس. عهدت بنفسي إلى المعلّم، وهو شرف لبقية الشعراء ونور أمامهم، وإلى امرأة ذات جمال فائق أحببتها طيلة الحياة على الأرض وفي السماء. وأعهد بنفسي الآن إلى امرأة مجهولة. وإنّي أتبعها، بياتريشةُ الطريق هذه، وليس لي أن أجرؤ على تسميتها بهذه الطريقة، لكنّها تسحرني في كلّ دقيقة أكثر فأكثر. نحيلة، جريئة، لطيفة، مختلفة بالفعل عن الناس المحيطين بنا.

الجحيم هو هنا. أفقيّ، مسطّح مثل الأرصفة التي نمشي عليها، يمكن بلوغه بخطوتين بلا حاجة إلى عبور نهر آشيرون[18] ولا بلوغ قارب خارون، ذلك الشيطان ذي عيون الجمر، ولا النزول كلّ يوم بين أحقر الخطّائين.

لا يوجد في هذا الجحيم مهاوٍ ولا عواصف ولا رياح ولا لهيب ولا جليد ولا شياطين. فيه حقيقة كلّ يوم وكلّ ليلة، بائس، هكذا كما هو، وعقيم حتّى في وصفه.

هناك الشهوانيّون، وأرى في أحلك نقطة من أحد الأزقّة اثنين ملتفّين

18- أشيرون Acheronte Acheron/ اسم نهر في الأساطير الإغريقيّة ويعني «نهر العويل» ويستخدم مجازيا للدلالة على مملكة هاديس نفسها. ويقول فرجيل إنّ خارون ينقل عبره ظلال الموتى بمركبه الضخم. (م) عن ويكيبيديا.

على بعضهما البعض، لسانين ينعصران في فمين، الأيدي تفرك كلّ ما يتوفّر لها في كلّ قبضة، ثمّ تنوّرة ترتفع حتّى الخصر. واحد من الجسدين يدور، يتقوس رأسه على الحائط، بينما يندفع الآخر عليه، ينضمّ فيه.

أقترب الآن من الشرهين، على طاولات مطعم منصوبة في الهواء الطلق، أشخاص يلتهمون أطباق الكرشة، والفاصولياء بالبندورة، والنقانق. هناك شخص يلوّث بالصلصة ذقنه وقميصه ويديه بل معصميه، بل وأبعد من ذلك، وهو أمام طبق ضخم من المعكرونة في صلصة تفوح منها رائحة الثوم. وآخر بدأت عيناه تنوصان ويميل رأسه بعد أن وقع فريسة لأبخرة النبيذ.

لم يغب أحد عن مثل هذا المقطع القصير من الطريق. يخرج اثنان عند التقاطع من سيّارتيهما بعد أن يصفعا بابَيْها، ويبدآن الآن بالصراخ وهزّ الأيدي ورفع القبضات، ثمّ يمسكان ببعضهما البعض، فيسقطان على الأرض ويتمرّغان فوقها وهما يتضاربان ويوجّهان الشتائم كلّ منهما للآخر، بينما يسير المارّة لا يبالون بهما.

في المقهى كانت شاشة ما يسمّونه تلفزيوناً تعرض صور شباب يجرون وراء كرة ويطيّرونها بركلاتهم من جهة إلى أخرى وسط حقل أخضر، بينما تحلّق حول الشاشة حشد هائج مائج، كما وقف أمام المقهى أشخاص آخرون يشتمون الله والعذراء وكلّ القدّيسين بتعابير وحركات شائنة معيبة كان يستعملها فانّي فوتشي[19] عندما كان يجدّف ضدّ سيّد الكون بكلّ الطرق. هذا هو الجحيم، لم يتغيّر، إنّه هنا.

أخذت المرأة، دليلي، اتّجاهاً آخر، وعلى وجهها تعابير الملل والقرف. أسرعت خطاها، وكنت أتبعها، حيثما ذهبت سأذهب.

أشعر بإحساس من الحلاوة وأنا أتبعها وسط هذا الظلام، إذ أعلم أنّها ستخرجني منه. كما أشعر بدوري برغبة في حمايتها.

توقّفت أنا أيضاً عندما رأيت أنّها توقّفت لتعانق صديقة جاءت بسرعة

19- شخصيّة تاريخيّة وضعها دانتي في نشيد الجحيم، وكان قد عاش في القرن الثالث عشر واشتهر بتجبّره وأذاه، وقال دانتي عنه في نشيد الجحيم إنّه أحبّ الأفاعي بسببه، لأنّها انقضّت عليه بعد أن صاح بكلام التجديف. (م)

نحوها. كانت تلك فتاة طويلة، لها شعر شديد السواد وأجعد وكثيف جدّاً، فيها وشم على العنق لا أفهم ماذا يصوّر، كانت تمشي وكأنّها تتأرجح، فيبرز نهدها المكوّر والمتأرجح بدوره من قميصها الضيّق. ولا تكفي عيناها البرّاقتان وأنفها المحمرّ كما خدّاها، لمحو ملامحها المتوسطيّة الجميلة. ولا بدّ أنّي كنت سأضع واحدة مثلها بالتأكيد في قائمتي اللعينة.

كانت تجرّ وراءها حقيبة على عجلات تقرقع على الرصيف، نظرت حولها بخوف، ولا بدّ أنّها قد بكت كثيراً.

«ماذا ألمّ بك يا لوشيّا؟».

بهذه العبارة توجّهت إليها وبالإيطاليّة بياتريشة طريقي، وهي تتناول يديها وتضعهما بين يديها وتضغط عليهما.

أخبرتها لوشيّا أنّها هربت من رفيقها ماتّيو. تمتمت وشهقت بالبكاء، كرّرت القول إنّه لا يريد أن يتركها تذهب، ولا يقبل أن تنتهي قصّتهما. وقد ضربها قبل ساعات قليلة، وركلها بقدميه، ثمّ عرضت ندبة كبيرة على ربلة ساقها، وآثار لكمة على خدّها الأيمن. بينما كان هو يصرخ إنّه يريدها كلّها له، وإنّه يحبّها كما لا يمكن لغيره أن يفعل... فأصرّت هي، وكرّرت القول إنّها ستذهب لبعض الوقت فقط، لشيء من التنفّس بهواء جديد، كي تفهم. لكنّه هدّدها. وقد شعرت بالخوف من تهديده لأنّها تعرف أنّه قادر على قتلها، بعد أن رأت في عينيه حقداً قاتلاً.

وأضافت لوشيّا: «مع هذا فإنّه كان يكرّر ويقول وهو يضربني إنّه يحبّني، وإنّه لا يمكن له أن يعيش بدوني لأنّه يحبّني، وإنّي أظنّ أنّ هذا صحيح...».

فهزّت بياتريشتي رأسها.

نظرت لوشيّا حولها، إنّها مسرعة، ولقد انتهزت فرصة غياب ماتّيو لبرهة لتخرج من البيت بعد أن رمت في تلك الحقيبة بضعة ملابس، وتركت له كلّ الحليّ التي كان قد قدّمها لها هدايا، لأنّ ماتّيو رجل كريم، وعليها أن تعترف بذلك:

«لكنّي لا أريد أن يجدني الآن. إذا شعرتُ بغيابه، فأريد أن أكون أنا من يبحث عنه. أريد أن أدير أنا علاقتنا».

«تعالي إلي، سأستضيفك في بيتي».

عانقتها لوشيّا وجفّفت أنفها وشكرتها.

«لا يا غراتسيا، يجب أن أبقي لبعض الوقت مسافة بيني وبينه، هناك قطار سيسافر إلى نابولي، وقد حجزت فيه مقعداً بسرعة».

«لا تشعري بغيابه، أرجوك».

ثمّ رافقتها وهي تسرع الخطى إلى محطّة تكسي قريبة. تبعتهما. تبادلت الفتاتان التحيّة بسرعة، فانطلقت سيّارة التكسي.

يجب أن أعترف أنّي شعرت بالفرح لأنّي بقيت وحيداً مع دليلي. فقد عرفت على الأقلّ أنّ اسمها هو غراتسيا، رغم أنّ، غريس، أي اسمها في لغتها يبدو أطرى وأقصر. وعرفت كذلك أنّ الحبّ ما زال بالنسبة إلى أكثر الناس، إلى أشدّهم عمىً، مصدر خداع وتعاسة.

***

كنت أتبع غريس، بياتريشةَ طريقي، وأنا ظلّ جديد في جحيم مدينتي، فعدت أفكّر ببياتريشةِ أيّامي الخالية. عدت أفكّر فيما هو الحبّ.

هل من الممكن أن ينحطّ إلى هذه الحال؟ ولّدت قصّة لوشيّا عقدة في حلقي من ألم وغضب. فمن هو هذا الرجل الذي يضرب امرأة، ويريد قتلها؟ إنّه يقنّع بالحبّ غريزة عنف وإرادة تملّك، وسيطرة مطلقة. وفي أيّ عالم من الغرائز البدائيّة يعيش هذا الشخص؟ ما أقصر الطريق التي قطعها نحو النور، لأنّ جريمته تبدو لي أبشع جريمة يمكن أن ترتكب، إنّها خيانة جديرة بعقاب يرميه في أعماق الجحيم، وسط الجليد الذي يعيش فيه إبليس لوسيفر.

أجل إنّها خيانة.

قالت تلك التعيسة البائسة إنّ ماتّيو كريم. هل لأنّه أهداها خواتم من ذهب وسلاسل من لؤلؤ؟ إنّها لا تفهم. لو عادت إليه فسيعطيها مزيداً من الألماس والصفعات، هدايا ومَذلّة. يظنّان أنّهما متحابّان. أجل، طبعاً. فهكذا تتحابّ الأغنام المجنونة. وهكذا يخونون الحبّ ويوسّخونه، يجعلونه شيئاً مضحكاً أو مأسويّاً، لكن ليس حبّاً حقيقيّاً أبداً.

قابلت بياتريشه أوّل مرّة في نهاية السنة التاسعة من عمري في الحياة. وكانت هي في عامها التاسع، في بدايته. كانت ترتدي الأحمر، أجمل من أيّ شيء جميل رأيته... كانت كالشمس عند الفجر، وردةً تفتّحت لتوّها، حجراً عقيقاً يتوّج خاتماً من ذهب... عندها تكلّمت في نفسي روح الحياة وهي ترتجف، ففهمت أنّ قوّة أقوى من قوى البشر كانت تطغى عليّ، وتستولي على نفسي، وقتها وإلى الأبد.

رأيتها من جديد بعد تسع سنين. في الساعة التاسعة.



لوحة تصوّر اللقاء الثاني بين دانتي - بياتريشه

لقد فهمتَ. وأنت تعلم. كان رقم 9 هو رقم بياتريشه، رقمها الثالث ثلاث مرّات، رقم سيّد الكون. وكانت هي أكثر من فتاة جميلة ذات سلوك رقيق حلو لطيف، أكثر بكثير.

كانت قادمة بين صديقتين أكبر منها، كانت ترتدي ثوباً ناصع البياض، تلاقينا، وحدث ما كنت بجنون أرغب بحدوثه رغم أنّي لم أكن أجرؤ، على رجاء أن يحدث: أجل، لقد وجّهت إليّ التحيّة.

شعرت أنّ هناك في تلك التحيّة كلّ سعادة العالم تحضنني، وكلّ بهجة في العالم تغمرني.

عدت إلى البيت مضطرب النفس وألمّ بي النعاس فنمت. فجاءتني

مباشرة في أحلامي غيمة من نار، ظهر خلالها بالتدريج شكل لسيّدٍ ذي هيئة يثير منظرُها مشاعر الخوف، رغم أنّه يبدي في ذاته علامات بهجة غريبة. لقد عرفته. إنّه حبّ[20].

جاءني ليعلن بما لا يقبل الشكّ حقوقه عليّ: «أنا الآن سيّدك»[21]. عليك أن تعبدني، أنا وحسب. هذا ما قاله، ولم أملك الشجاعة ولم أكن أستطيع أن أجيب.

كان هناك بين ذراعي حبّ جسد امرأة، عارية، ملفوفة بالكاد بقماش أحمر، نائمة. فعرفت فيها تلك التي أعطتني لتوّها نعيماً كثيراً بتلك التحيّة.

أراني حبّ بإحدى يديه شيئاً كان يحترق، وقال لي: «انظر إنّه قلبك»[22]. وعندما استيقظت المرأة حمله إلى فمها، فكان هذا طعامها.

ثمّ غابت البهجة فجأة عن وجه حبّ، فانفجر في بكاء مرير، وعندما حمل بين ذراعيه المرأة الملفوفة بالقماش الأحمر، طار بها نحو السماء.

عندما قصصت هذا الحلم، الرهيب والتنبّئيّ... الذي حدّثني بشكل غامض، كما يجري في الأحلام، عن إخلاصي المقدّس لبياتريشه وعن موتها المبكّر... كنت بالفعل آنئذٍ من المؤمنين بحبّ، وقد رحّب بي في حلقتهم غويدو كافالكانتي، وهو أوّل أصدقائي، ثمّ لابو جانّي، جانّي ألفاني، تشينو دا بيستويا[23].

ماذا تفعل أيّها المجرم، هل أنت خائف، هل أغلقت أذنيك، هل تقديم القلب طعاماً هو من سمات آكلي لحوم البشر؟ إنّك لا تفهم إذاً حلماً هو قمّة الأحلام، ألم تعد تعلم أنّه يوجد رموز ونبوءات؟ لا، بل أنت تعرف ذلك. لقد قرأت قصّتي بالكامل، في كتابي الذي يحكي تلك القصّة، أنا متأكّد من ذلك. أمّا الآن، في هذه الليلة الحافلة بالأحداث، فإنّي أريد أن أحكيها لكن

20- وضعت كلمة حبّ بلا «الـ» التعريف لأنّها جاءت في الأصل الإيطاليّ كاسم علم، أي كاسم شخصيّة اسمها حبّ، وهكذا سيتكرّر استعمالها. (م).

21- «*Ego dominus tuus*».

22- «*Vide cor tuum*».

23- شعراء من أصدقاء دانتى (م)

ليس لك، بل لغريس. إنّها تمشي الآن بخطواتها الخفيفة، وسأمشي الآن إلى جانبها.

هل تعلمين يا غريس أنّي أردت أن أحمي حبّي لبياتريشه من أعين الكثيرين، حتّى إنّي تظاهرت في الكنيسة أنّ نظراتي تتوجّه نحو امرأة أخرى؟ ثمّ نحو امرأة أخرى من جديد، وذلك بناء على نصيحة من حبّ الذي ظهر لي في الحلم بثياب رحّالة مسافر؟ وكنت أعرفها، كانت رائعة الجمال، عليّ أن أعترف بذلك.

لقد أطعت حبّ. لكنّي أخطأت، ولم يكن لي مفرّ من ذلك. وهكذا فإنّ بياتريشه، عندما علمت أنّي رافقت هذه المرأة الجديدة، وعندما التقت بي مرّة أخرى، فإنّها أبعدت نظرها عنّي وحرمتني من تحيّتها. فساد الظلام حولي.

بياتريشه... هل فهمت هذا يا غريس؟... كانت أكثر من امرأة صبيّة بالنسبة إليّ، كانت تلك التي أعطاها حبّ قلبي كما يعطى القربان المقدّس خلال المناولة، وكانت تحيّتها مختلفة جدّاً عن إشارة اليد كما تفعلون اليوم وتقولون «مرحباً»، «تشاو» أو كما تقولون أنتم «هالو»... تحيّتها كانت دعوة للتسامي نحو السماء، وسيلة للنعمة. كانت وعداً بسعادة أبديّة حقيقيّة.

وهكذا فقد غرقت في حزن بلا عزاء، وكانت الدموع تسيل من عينيّ مثل أنهار خلال الطوفان، وهمت نحو طرق لم تكن مقفرة كما ينبغي بالنسبة إليّ، ثمّ سجنت نفسي في غرفتي حيث بوسعي أن أبكي وأشتكي من غير أن يراني أو يسمعني مخلوق. فرجوت حبّ: «كن يا حبّ عوناً لمن أخلص لك»، هكذا كنت أتمتم بين شهقات بكائي.

حبّ، فتى بثياب بيضاء، جاء من جديد ليزورني في المنام. لقد اعتاد هذا وتذوّقه. فعزّاني، بكلمات غامضة مخفيّة في البداية، ثمّ أشدّ وضوحاً بالتدريج، ودلّني كيف أتبعه على طريقه.

رأيت بياتريشه مرّة أخرى من جديد وسط حفل عرس حاشد، فبدأت نساء كنّ حولها بالتوجّه نحوي بنظرات سخرية، أمّا هي فقد بدا أنّها تتباهى بأنّها لا تعرفني البتّة، بل والأسوأ، بالتضاحك معهنّ عليّ.

كان تأثير ذلك عليّ أكثر تدميراً من الزلازل، ارتجفتُ، ترنّحت، كدت أن

أسقط على الأرض فاقداً للوعي. ولم أتمكّن من العودة إلى منزلي إلّا بفضل صديق كان معي وسندني.

مرضت من هذا. وكنت وحيداً، تعيساً. جاءت نساء لطيفات لرؤيتي واستمررن في سؤالي: أين هو النعيم في حبٍّ مثل حبّك لبياتريشه، لا تبادلك إيّاه؟ كنّ يسألنني وابتسامة خبث ترتسم على وجوههنّ.

حسناً، فاسمعي جوابي يا غريس، اسمعيه أنت أيضاً. إنّي أتبع أوامر سيّدي الغامضة الخفيّة، أوامر حبّ، وإنّ نعيمي هو في كلمات تمدح امرأتي. وإذا لم تكن «امرأتي»، فهي المعجزة التي جعلت منّي عاشقاً مخلصاً للحبّ الخالص، حبّ لا يمكن للجسد ولا الموت أن يمحيه.

وهكذا فإنّ بياتريشه، التي ماتت في أوّل صباها، أحببتها للأبد، على الأرض وفي الآخرة:

في عينيها تحمل امرأتي الحبّ،
فيصبح لطيفاً كلّما تنظر إليه.
حيثما مرّت، يلتفت نحوها كلّ الرجال،
ويرتجف قلبُ كلّ من تلقي عليه تحيّة.

هذا ما أذكر أنّي كتبته. لا يهمّني إذا كانت بياتريشه تبادلني الحبّ، فإنّي أحبّ النور الذي يشعّ من عينيها، أحبّ حيويّتها التي تشعّ لطفاً وجمالاً، وهزيمتها لشياطين التكبّر والغضب:

لا يمكن وصفُها عندما تكاد تبتسم،
ولا تذكّرُ ذلك،
فتلك معجزةُ لطف جديدة.

إنّي أحبّ المعجزات التي يصنعها حبّ في قلوبنا، فيحوّلها من الوحشيّة والظلام إلى المعرفة والنور. هذه هي بياتريشه بالنسبة إليّ:

...شيء أتى
من السماء إلى الأرض ليظهر معجزة.

لكنّ حبّ يصنع معجزات قاتمة أشدّ غموضاً، وتختلف جدّا عن هذه المعجزة.

غريس، إلى أين تقودينني يا غريس؟ يبدو لي أنّي أشعر بتيّار هواء بارد، أنا الذي لا أشعر بحرّ الشمس ولا برودة القمر. فإلي أين نحن ذاهبان؟

إنّي، إذا كنت هناك وراءك، مجرّد ظلّ، فلأنّ طريق حبّ تتشعّب في فرعين، وأنا مشيت على هذا وذاك.

أحببت نساء أخريات لسن بياتريشه، وبطريقة تختلف عن طريقة حبّي لها. سقطتُ في خندق الشهوة، وفيه وحْلٌ لكن بجعٌ أيضاً وحوريّات، والماء الفاتر يغمر اللّذة. سلكت طرقاً تبعدني عن بياتريشه، وضِعت فيها.

رغبت في تكثير أهوائي. اشتهيت امرأتين، اثنتين في آن واحد، اثنتين تربّعتا في قمّة أفكاري تقضيان بأمور الحبّ. إحداهما كانت سيّدة الفضيلة، دفعتني نحو الخير، وكانت الأخرى سيّدة الجمال، فدفعتني نحو المتعة. كانت كلتاهما ضروريّة بالنسبة إليّ، فهل تفهم هذا، أو لا يمكن لك أن تفهم؟ لذا تركتهما تتقاسمان قلبي: فكانت فيه من ناحية حكمة وفلسفة وعقل، ومن ناحية أخرى سحر ولعب وفرح وشهوانيّة. كرّر حبّ عليّ القول إنّ ذلك صحيح، وإنّه عليّ أن أحبّ امرأتين بهذه الطريقة في آن واحد.

ثمّ فيوريتّا...وفيوليتّا التي عندما رأيتها بدا لي أنّي أرى نفحة من حبّ وأشعلت النار في قلبي، أنا الذي كنت، كما كنت، مهيّأً للاشتعال.

ثمّ إنّي أحببت فتاة صغيرة جميلة لا يمكن لمخلوق، وأنا قبل الجميع، أن ينظر في عينيها من غير أن يخشى الوقوع مهزوماً أمام العاطفة. لقد جعلتني، تلك الفتاة، أموت. استسلمت أمام سحر عمرها الغامض، بل الخادع إذا أردت، وضحّيت بنفسي أنا وحدي، عسى أن يدرك الآخرون خطر التعرّض لمثل هذا فينجَو. وفكّرت: أفعل هذا كما ضحّى المسيح بنفسه من أجلنا جميعاً.

أنت مسيحيّة يا غريس، فهل تعرفين ماذا حدث على الجلجلة؟ لقد لمستُ بالفعل أسفل القاع عندما أشرت إلى تشابه بين تضحيتي وتضحية سيّدنا. كنت غير لائق وبلا جدارة يا غريس، هذه هي الحقيقة، كما لم أبتعد

عن طريق الخير كما فعلت مع تلك الفتاة ذات العينين من نجم ومن زمرّد. لقد ضحّيت بنفسي في حمأة الخطيئة لأنّني، عندما جاءتني الفتاة بالموت، فإنّي سعيت إليه أيضاً، وأردت ذلك الموت، بل أخذته بسرعة البرق، وجعلته شأناً من شؤوني، وأحضرته عندي لأستمتع به، تماماً كما يستمدّ الزمّرد بريقه من النجم.

والسيّدة بيترا، هي، أقسى امرأة، بشعرها الأشقر، بضفائرها، تلك التي ألهمتني كلمات حادّة، وأثارت في نفسي أشدّ الرغبات، والتشنّج والجنون، من أجلها بدأت اللعان، دعوت حبّ «منحرفاً»، رأيته طاغيةً يلزمني بالأرض تحت تهديد سيفه، ثمّ يجرحني في الجانب الأيسر من صدري.

أخذت أهذي من أجل السيّدة بيترا، لقد خنت نفسي، تركت كلّ الفضائل ورائي، دست على اللطف والرفق، تجاوزت كلّ الحدود من أجلها، بسبب رغبتي بالإمساك بها من ضفائرها، والتنفيس عن شهوتي، وجعلها تتألّم لأتمكّن أخيراً من التغلّب على قسوة تلك القاتلة المضحكة.

كنت أشتمها وأقول أنت مجرمة، أنت لصّة، وكنت أصرخ بجنون، وأسألها لماذا لا تنبح أمامي مثل الكلبة حين الشبق كما أنبح أنا أمامها وأنا أتقلّب في وحل الشهوات الساخن... كنت سأمسك بها من تلك الضفائر الشقراء وأبقيها معي من قبل التاسعة في الصباح وحتّى الليل، من غير أيّ شفقة، ثمّ كنت سأبدأ اللعب معها، كما يلعب الدبّ وقت الغرام، لأعطيها كلّ اللّذات التي تستحقّها.

اعلمي يا غريس أنّ الجسد لزق ووحشيّ، لكنّ حبّ لا يستطيع أن يستغني عنه. فهناك متعة، وهي استسلام وضعف وشهوة ولّذة وجشع وضياع، لا يمكن التفريط بها.

يمكنه فقط أن يتخطّاها. أن يتعرّف إليها ثمّ يتخطّاها.

وإذا كنت أنا هنا، إذا كنت ظلّاً، فلأنيّ قبل أن أندم على هذا ضحّيت لحبّ كما تتمّ التضحية أمام الأصنام، أمام إله قديم. لشدّ ما أحببت الجمال الأرضيّ. حتّى إنّي ألّفت دليلاً عن ستّين امرأة من أجمل نساء فلورنسا ولم أخجل من ذلك. كان عليّ أن أخجل، فهل هذا رأيك أيضاً؟

أودّ أن أتوجّه إليك بأسئلة كثيرة يا غريس. هل أنت عاشقة؟ هل تعرفين ماذا يعني العشق؟

إنّك تعرفين أنّ حبّ قاس، دمويّ، سيّئ الطباع، شرّيد... إنّه أعنف من الحطّابين وأقوى منهم، وفيه مهارة محكمة كمهارة لاعبي الخفّة الذين لا يكتشف أحد حيلهم. إنّه نبّال لا يهتمّ بالهدف، بل يضرب حيثما يضرب. إنّه مستبدّ لا يعترف بقانون غير قوانينه، ويقتضي من مريديه خضوعاً كخضوع العبيد.

وقد قال لي بكلّ وضوح، وهو يتحدّث باللاتينيّة، باللغة التي أدخلت سلطة القانون في العالم: أنا السيّد، هل تذكرين؟ أنا سيّدك[24].

وقد قبلت أنا بالأمر. فعشقت وأغرمت.

لا تنخدعي بتجّار الخردة، بالعبارات المعسولة، بالأحاسيس البائسة. إنّ العشق تجربة صعبة وحاسمة، ورحلة طويلة محفوفة بالمخاطر: تعني حرفيّاً الدخول في الحبّ وفتح معبر على حدوده.

كما لو أنّ المرء يسقط من على حافّة جرف، ليجد نفسه ضمن مملكته: يمكن أن يحدث له أيّ شيء هناك. لكن لا تخافي، يا غريس، يمكن أن تتعرّضي لضرب العواصف المرعبة، وأن تحترقي بألسنة اللهب في حرائق مفجعة، لكن يمكن لك أن تجدي أيضاً أشجاراً أبديّة بأغصان من فضّة، وسهولاً من زهور أرجوانيّة تمتدّ على مدّ البصر وقلاعاً من عنبر وزمّرد بأبراج أكبر من أبراج أنطاكية وأعلى من أبراح سان جيمينيانو... يمكنك أن تلتقي بفينوس هناك، ولاسمها جرْس يشبه جرس كلمة السمّ[25]، بل وله جذر مشابه، يحمل اسماً بالصوت نفسه وجذر السمّ نفسه، وصفة ساحرة. إليك ما يفعله حبّ: إنّه يجعل دمك يغلي مثل نبيذ جيّد في برميل ويسمّمه، ولديه وصفة سحريّة لإخراجك من هذا العالم ليأخذك وتسافري إلى عالم آخر.

في النهاية تكتشفين أنّ حبّ هو سيّد قاسي القلب، وأنّه متطلّب ولكنّه ليس شرساً ويريد مصلحتك. راياته هي اللذّة والحقيقة، يمكن لك أن تثقي

24- *Dominus tuus sum*

25- مطابقة بين Venere–Veleno فينوس– سمّ (م)

بهذا، مملكته بلا حدود، وعرة على الاجتياز، خاصّة أنّ أقدامنا ضعيفة أكثر الأحيان، وخيولنا عرجاء، وزوارقنا بعوارض هشّة للغاية. لكن، صدّقيني، لا يوجد مكان في الكون أجمل منه حيث يمكن لنا أن نسافر إليه وأن نعيش فيه.

ما إن تقعي في الحبّ يا غريس، حتّى تكوني قد وقعت فيه، حتى تكوني بالفعل قد وقعت في الحبّ، وتكوني في لوف[26]، كما يقولون بلغتك. كم أمضيت من الوقت قبل أن أفهم معنى هذه الكلمة التي كانت تتكرّر على أفواه الأجانب الذين يتجمّعون هنا ويتحدّثون مثلك.

لوف.

أعجبتني. فسنة بعد سنة خلال القرن الأخير، كنت أسمعها كثيراً في مقاطع الأغاني التي تصدر عن أجهزتكم، عن ما تسمّونه تلفزيونات، بل حتّى في الدكاكين، أو من أفواه فتية مهلهلي الثياب طويلي الشعر من الذين يجلسون هنا ويقدّمون العروض مقابل بضعة دراهم ترمى في قبّعاتهم.

لا أذكر أغنية كاملة، لكني أذكر صوت لوف، كلمة لوف كانت فيها على الدوام.

انتظري، لا، فهناك أغنية قد تذكّرتُها، كنت أمرّ أمام واجهة المقهى، فرأيت على الشاشة المعلّقة على الجدار، وبصور كانت حينها بالأبيض والأسود، صورة متسوّل وجهه متسّخ بالدخان وله شارب أسود، يعتمر قبّعة من قشّ ويحمل في يده عصا يتوكّأ عليها، وعلى سرواله رقعة كبيرة، لكنّه كان مرحاً ويبتسم بلا انقطاع، رأيته يرشّ الملح على تاج وردة ثمّ يلتهمها، ويرقص بمرح مثل غراب العقعق ويغنّي أغنية لا يوجد فيها تقريباً إلّا كلمة «لوف» لكن ضمن إيقاع يجعل من العسير تقريباً تمييزها. إيقاع سريع جدّاً، متلاحق، كقرقرة جنونيّة، كأنغام عود تعزف عليه أيادٍ آليّة: لوف لوف لوف لوف لوف لوف لوف لوف لوف لوف لوف...

لوف لوف لوف لوف لوف لوف لوف لوف لوف لوف...[27]

سمعت ذات ليلة فتاة صغيرة، يا غريس، لم تكن من بلادك، كانت

26- in love (م).

27- lovelovelovelovelovelovelovelovelovelovelovelovelovelove...

تتحدث الإيطاليّة بلكنة بلادي المميّزة، وكانت تقول لابنها الصغير: «هل تعلم يا ولد أنّني ألفّك[28]»، هذا ما قالته بالفعل. كانت بشرتها ناعمة، عليها نمش رقيق مثل نمشك، وشفتاها بارزتان... وبدا لي أنّه لا بدّ من التسامح مع تلك الإهانة للغتها، وللغتي ولكلّ لغة في العالم... هل تصدقّين ذلك؟ لكنّي أعترف أنّه بدا لي محبّباً بالفعل.

لقد دخلت في حبّ مبكّراً. كنت فتى أنا أيضاً، كما كانت بياتريشه. من وقتها وأنا في لوف. أُلفُّ.

وإذا تسنّى لي أن أخرج من تلك المملكة، فقد كان في هذا ضرر لي، لأنّي أكون قد ضللت الطريق، لكن عندما أعود إليها مرّة أخرى فإنّي لا أرغب بمغادرتها ثانية.

في سنوات المنفى... هل عليّ أن أحدّثك عنها، عن ما عانيته، وسيرقّ لهذا قلبك، أعرف ذلك، سيرق بمجرّد أن يصل صوتي إلى سمعك وإلى قلبك...

لقد سافرت كثيراً عبر مناطق توسكانا، لونيجانا، بولونيا، فيرونا، بيزا، رافينّا، سافرت بلا وسائل مادّيّة، غير واثق من غدي، وإدانة الحرق تثقل كاهلي، خائباً من هزيمة كلّ ما كنت أعتقد به، سقوط فكرة الإمبراطورية العالميّة التي كنت أتصوّر أنّها وحدها القادرة على أن تضمن للأرض السلام والعدل، وليس زنبقة فرنسا، ولا سفن جنوى، ولا حتّى بابا روما...هنري الثامن، الإمبراطور، به تعلّق أملي، لكن دون جدوى.

وصل بي الأمر إلى أنّي بدأت أتوسّل للحصول على حماية سادة أجانب ومساعدتهم. هل تتصوّرين ذلك؟ لم يعد لديّ مسكن ثابت، ولا أملاك، ولا شيء يمكن أن أعتبره لي حقّاً. باستثناء شيء واحد: البهجة العارمة التي كنت أشعر بها عندما كنت أكتب ملحمتي، كان هذا عزاء لي يسلّيني عن كلّ ما فقدِته، ويعوضّني عن كلّ شيء، ويعيد ولائي لحبّ الذي كنت قد جازفت بفقدانه. ولقد وجدت بياتريشه، وكانت قاسية هذه المرّة، فاستولت على روحي لتأخذها إلى أعلى فأعلى، نحو نور الله.

28- كتصريف لفعل love – لوف: أحبّ (م)

كنت أقول لك إنّي ذهبت خلال سنيّ تشرّدي من ليريشي إلى توربيا ومشيت على دروب على سفوح جبال تتهاوى بين الأمواج، ثمّ عبرت بروفانس، ومن أفينيون سلكت طريق الشمال، حتّى وصلت إلى باريس.

كتمت خبر هذه الرحلة عن أكثر الناس. كان هناك في باريس حينها جامعة تنشر المعرفة في أنحاء العالم. ولطالما كنت أتوق إلى المعرفة بشوق تتساوى حدّته، في بعض الأحيان، مع حدّة شوقي إلى الحبّ.

كان الأساتذة يلقون هناك، في حارة سترامي، دروس الفلسفة، ويشرحون أعمال سيّد العلماء، أرسطو أعني، وهناك علّموا دروس توماس الأكويني وسيجيري دي برابانته[29]، ولا أعرف ما إذا كان العالم لا يزال يتذكّرهما حتّى الآن.

وكان جاك دي بايزيو[30] قد قال قبل قرن من الزمان إنّ حرف «أ» في كلمة «أمور = حبّ» تشير إلى النفي و«مور» تشير إلى «الموت»، وبالتالي فإنّ معناها الحقيقيّ هو «بلا موت». أمّا عند قراءتها بالعكس، فنرى أنّ كلمة «أمور» تصبح «روما»[31]. هل سبق أن فكّرت في هذا؟ أنّ روما هي عكس الحبّ، لأنّها القانون، السلطة، المؤسّسات، الكنيسة...

كنّا نشعر حينها بالخوف، إذ كان يكفي القليل وقتها للصق تهمة الهرطقة، فيضطهد المرء ويعذّب ويقتل. وقد أحرقت في تلك السنة بالذات في باريس في ساحة عامّة مارغريت بوريت[32] وهي حيّة بتهمة الهرطقة والسحر، ولم يكن يجري وقتها حديث آخر، لكنّها لم تستسلم للمحقّق، وكان هو نفسه الكاهن الذي يعترف لديه فيليب البيلّو[33]، كما لم تتنازل عن فحوى كتابها المعنون «مرآة النفوس البسيطة»، فوضعت الله - الحبّ حيث تفنى الروح لتنضمّ إليه بحرّيّة، وتصبح حبّاً هي نفسها... مسكينة يا مارغريت، أيّ ثمن دفعته، وبأيّ شجاعة... هل تعلمين يا غريس، أنّكنّ أنتنّ النساء تملكن بعد

29- Sigerus de Brabantia (1240-1282) من أساتذة كلّيّة الفنون في باريس، كان يقال إنّه من أنصار نظريّات ابن رشد. (م) عن ويكيبيديا

30- Jacques de Baisieux شاعر فرنسي - أواخر القرن الثالث عشر. (م) عن ويكيبيديا

31- Amor x Roma (م)

32- Marguerite Porete

33- Philippe le Bel ملك فرنسا 1285 (م)

كلّ شيء شجاعة أكبر من شجاعة الرجال. وقد أخبروني أنّ مارغريت تحدّثت في كتابها عن الحبّ بصيغة المؤنّث، السيّدة حبّ = داما أموري.

جميلة عبارة السيّدة حبّ، مؤنّثة مثل السيّدة الروح، السيّدة فينوس...

كانت الشكوك تحوم حولي... فبعد ما جرى في المعموديّة، وبعد النفي، وبعد الإدانة بالحرق... كنت أعرف، كان يكفي أن أقول: «حبٌّ هو الله»، لتكلّفني هذه العبارة حياتي.

ذات مساء، ومع وصول البرد وحلول الظلام الذي يجعل باريس سوداء مثل جناحي غراب، لاحظت وجود عجوز منزو، يستمع إلى كلّ شيء دون أن يتكلّم. كانت له لحية طويلة غير مشذّبة، ويرتدي ملابس شرقيّة لكن غير مزخرفة: عباءة حوافّها عاجيّة داكنة ولها غطاء رأس طويل يمتدّ إلى أسفل على الكتفين، وحذاء من حبال متعدّدة الألوان، ينتهي برأس مدبّب مرتفع بشكل يثير الفضول.

من يدري إذا كانوا مثله الحكماء الذين تناقشوا مع فرانشيسكو[34] في قصر السلطان. ذلك القدّيس الذي كان يعظ الفقر ويتحاور مع جميع مخلوقات الأرض والسماء ويعتبرها أخوات، أبحر حتّى الشرق. ذهب إلى أبعد ما ذهبتُ إليه. فأنا لم أصل إلّا إلى شاطئ نهر السين، الذي بدا لي أنّه يصبح أوسع وأعمق عندما يخرج من بين أزقّة سوّدها الدخان.

لا أعرف كيف بقينا نحن -الاثنين- نتحادث، فالعجوز يعرف اللاتينيّة، صوته دافئ يهجّئ به الكلمات فتخرج كما يخرج النبيذ الحلو من الدنّ، نقطة بعد نقطة.

يا أخي...

هكذا ناداني. الدين الذي ولد فيه ليس ديني. لكنّه من الواضح أنّنا إخوة في ذلك الدين الجديد، دين المخلصين لحبّ، نحن الذين نعتقد أنّ حبّ هو الله الذي نعبده، وأنّه هو وحده، وليس علماء المساجد ولا الكهنة، ولا العقائد، ولا طقوس كنيسة فاسدة، هو وحده القادر على إيصالنا لمعرفة سيّد الكون.

كان اسم ذلك العارف أبا مهدي، جاء من وراء نهر الفرات، وكان يحمل

34- فرانشيسكو دا آسّيزي Francesco d'Assisi (م)

كتاباً ترجم عنوانه بشيء من الصبر «موجز أو كنز» أو «دليل المخلصين لحبّ». وقد عرضه عليّ. كان مكتوباً بالفارسيّة، ولن أفهم شيئاً منه لو أعطاني إيّاه لأقرأه، لكنّه عرض عليّ أن يشرحه لي.

أخذت أستمع له. كان أبو مهدي يتحدّث ببطء، بلاتينيّة تتخلّلها تعابير فارسيّة، كان يتوقّف عن القراءة ليترجمها لي.

بدأ بالقول بسم الله الرحمن الرحيم – جوهر النور هو أوّل مخلوقات الله. كلّ شيء بدأ من النور. من تفجّره من خلال كتلة الظلام المتماسكة العمياء. لهذا فإنّنا ما زلنا نعبدها، ونبقي النار حيّة إلى الأبد في معابدنا. بعد ذلك فقط، خلق الله الجمال والحبّ. تبارك اسمك يا مهر –بالفارسيّة– وبكلّ لغات العالم... يا شوق. تذكّر أنّنا نحن نسميّها ثلاثيّة. جمال، حبّ وشوق. كانوا إخوة، أو أخوات إن شئت. كانوا يعيشون سويّة، سعداء، وهم يطيرون داخل كرة نور ذكاء الله مثل أسراب الزرزور أو صفوف البجع في عرض السماء التي لم تكن قد وجدت بعد. ثمّ تفرّقوا ذات يوم. فالجمال، الابن أو الابنة البكر، رأت نفسها في المرآة فابتسمت، ويقال إنّ آلاف وآلاف الملائكة ولدوا بغتة من تلك الابتسامة، كما تتفتّح الورود في حقل سطعت عليه الشمس بعد المطر. أمّا حبّ الذي كان يعيش في خدمتها، ودائماً بالقرب منها، ينظر إليها على الدوام، فقد أذهلته روعة تلك الابتسامة، فهرب بعد أن استولى عليه دوار من الفزع والجنون. وهكذا فقد خاف الشوق، الأخ الأصغر، من فكرة بقائه وحيداً، فقفز على أكتاف الحبّ وعانقه بقوّة، متوسّلاً إليه أن يبقيه دائماً معه.

من وقتها والحبّ – مهر– العجوز لكنّه مراهق على الدوام، الفقير لكنّه كريم المحتد، أخذ يتجوّل مضطرب النفس عبر العالم، ويعيش مع الشوق ويذهب معه لزيارة أنفس البشر، فيشعلانها بالرغبة إلى الجمال المفقود.

لا يمكن لي أبداً أن أنسى أبا مهدي، وقد أنهى حديثه بابتسامة، وأخذ بيدي وهو يتمتم: الله الجليل جميل، يحبّ الجمال. هل تفهمين هذا يا غريس؟

***

لقد قطعتُ حبل السرّة الذي ربطني بالمعموديّة لوقت طويل، فكان كأنّي ولدت من جديد حيت تبعت غريس، وأنا أمشي معها في طرقات فلورنسا،

وراءها أحياناً، أو بجانبها عندما أتوهّم أنّ بوسعها أن تسمعني، وأن تفهم ما أقصّه عليها.

إنّي ظلّ، لكنّي ولدت من جديد. أشعر برجفة الغليان... هناك حياة جديدة تنبت في داخلي وحولي. بل يبدو أنّني أشعر أنّ الهواء أصبح أبرد وأحلى كلّما تقدّمنا. لم يحدث لي مثل هذا أبداً، لأنّ الظلال لا تلاحظ تغيّرات الجوّ، لأنّها لا تعاني من الحرارة والبرودة والمطر والجفاف والرطوبة...

هناك غيوم تتكثّف حول التلال المحيطة وعلى أبراج المدينة وقبابها، بينما تواصل غريس مشيتها بعدما أسرعت بعض الشيء، وكأنّها قد اقتربت من المكان الذي تنوي الذهاب إليه، وأنا في ذلك معها، واثقاً بها، أتبعها دون تساؤل، مدفوعاً بمتعة قربها البسيطة، التي لا تشعر بها ولكنّها بالنسبة إليّ مصدر سعادة غريبة تكاد أن تكون جارحة.

فهل هو حبّ ما زال يحكمني؟ من المفترض أنّه ليس عليّ أن أجعله سيّدي. لقد جعلني سيّد الكون أنزل من النور، ومن النعيم والخلود إلى هذه الفوضى الشرسة في العالم ليختبرني، فهل من الممكن أن يكون هذا هو جوابي؟

لا يزال الحبّ الدنيويّ يثير الاضطراب في نفسي، رغم أنّي أنا الظلّ يجب ألّا أشعر بالآلام التي يمكن أن يسببّها. من اضطرابات واختناقات ونقص تنفّس. بالإضافة إلى عكس هذا كلّه: أي النشوة والتمدّد والأنفاس المليئة بالحياة. يا له من خليط هذا الحبّ. نحن فيه كقارب بلا مجاديف وبلا شراع، يسحبه بحر الوجود العظيم أنّى شاء. انظر إليّ، أنا ميّت، أنا روح من السماء، وأنا ظلّ أرسله سيّد الكون إلى الأرض. ومع ذلك، لا يزال حبٌّ هو سيّدي الحقيقيّ. هو يملي عليّ سلوكي، وهو الذي يملي عليّ هذه الكلمات، هو يأمر. وأنا أطيع، مؤمناً بدينه، ومطيعاً لأوامره.

يقول لي حبّ: أنا السيّد إلهك، وليس لك إله غيري. اخرج من خمول القلب وجموده، اهجر كلّ برودة، كلّ حكم مسبق، لا تستبق نفسك، لا تنغلق ضمن صدَفة نفسك، لا تظنّن أنّك مركز الأشياء، اترك كلّ ما لديك واتبع طريقي، ادخل في مملكتي، ففيها ستكون أنت نفسك بالكامل، وسيمكنك أن تستعيد سلوك طريقك نحو النور.

أحبّ وإن لم يبادلوك الحبّ. أحبّ ولا بدّ أن شيئاً سيحدث...

لا أعرف ماذا يمكن لك أن تسمّي أنت وضعي هذا، أمّا أنا فاعتبره معجزة. وعليك بتصديق المعجزات، لا تكن خبيثاً.

ها هو، ها هو المكان الذي تقودني غريس نحوه. ها هو، ها هو، فهل من الممكن أنّها تعرف، هي، كم هي كبيرة رغبتي بالعودة إليه، وأنّي لم أعرف هذا إلّا في هذه الساعة؟

ربّما من هذا المكان جاءت أحاسيسي بوجود تيّار هواء بارد يجري بسرعة لا يصدّها شيء، ليبارك ويهدّد هذه المدينة، وهو يعبرها ويعكس صورتها. هناك أثرة من ضوء القمر تتمدّد فوق سطحه، قبل أن تبتلع القمرَ غيومٌ أخرى، من جديد. فيعود هو ليكون هذا حشداً هائلاً من الظلام يتماوج جميعه في الاتّجاه نفسه، نحو جهة لا يمكن رؤيتها، ولكن من المعروف أنّها موجودة هناك في البعاد: نحو البحر.

إنّه نهري، نهر آرنو[35]، كان لا بدّ من مجيء غريس، وهي بياتريشةُ طريقي، هي الأجنبيّة، هي المجهولة، لتعيدني كي أراه من جديد.



لوحة تصوّر طرفاً من نهر آرنو عند عبوره فلورنسا

35- Arno هو النهر الذي يعبر مدينة فلورنسا ويتوجّه ليصبّ في البحر التيراني بعد أن يعبر أيضاً مدينة بيزا. (م)

المياه المتدفّقة. أنظر إليها فتسحرني. هكذا تفعل أيضاً نفس الإنسان، تتحرّك باستمرار داخل مجرى الحياة ويمكن لها أن تفيض، وأن تغرق، وأن تجرّ معها الوحل القاتل. ولكن يمكن لها بعد ذلك أن تستعيد مرّة أخرى طريقها بين الضفاف، وتستأنف من جديد تدفّقها بين النبع والمصبّ، البداية والنهاية، حتّى تصل إلى بحر شاسع متّسع دون شواطئ.

من الذي يخاف من مياه تتدفّق؟ أنا لم أعد أخافها. إذ يمكن لي أنا الظلّ أن أنزل إلى سطح النهر وأن أمشي فوقه، وأن أتشقلب عليه، ولا أستبعد أن أفعل الآن هذا كلّه لو أنّ بإمكان غريس أن تراني، عسى أن أثير دهشتها، وأن أسلّيها، وأن أضحكها كثيراً.

فليس مغرماً من لا يرغب بإضحاك محبوبته. وحبّ هو مهرّج أيضاً. أجل، فعليك أن تعرفي. إنّه يخلع بين الحين والآخر ثياب السيّد، لأنّه يحبّ أن يظهر بمظهر آخر: الحاجّ الرحّالة، عابر السبيل، السكّير الثمل، بل المجنون أحياناً الذي يميت من الضحك من يستمع إليه.

جلست غريس الآن على طرف النهر، ساقاها متدليّتان، وقد استدارت نحو المياه المتدفّقة، ومن الواضح أنّها ليست خائفة هي أيضاً. إنّها تنظر إلى الضفّة الأخرى وترفع رأسها نحو السماء بنجومها القليلة، وتبحث عن قمر يأتي ويذهب بين الغيوم.

جلست حينها بالقرب منها. بينما لمست كتفي غير المجسّدة كتفها، كما تداخلت لحيتي غير المادّيّة في وسط شعرها، ولمست إطار نظّارتها الأخضر.

قلت قبل هذا إنّي قد لا أضعها في قائمتي اللعينة التي تضمّ ستّين ملكة. ما أغباني، لأنّي لا بدّ أنّي سأضعها الآن في المكان الأوّل ومن غير أن أفكّر بذلك لحظة واحدة. هي وكفى. غريس. ولا شيء بعدها.

- أرى الآن، على رعشة المياه، شبح ذلك الزورق الذي وقع في مخيّلتي عندما كنت صغيراً وألهمني الأبيات الأشدّ فتوّةً ممّا كتب في العالم كلّه... دعني ألّا أكون متواضعاً لمرّة واحدة فقط، فقد كنت متواضعاً بالفعل وبما يكفي عندما تحدّثت بلغتك البائسة، الهجينة، الفاشلة، وغير القادرة على أن تجوب الكون وأن ترى الأمور غير المرئيّة. اسمع أبياتي:

غويدو، أودّ أنّك أنت ولابو وأنا
أن نؤخذ بسحر وأن
نوضع في زورق يتهادى مع كلّ ريح
عبر البحر كما تشاء أنت وأشاء أنا.

غويدو كافالكانتي، لابو جانّي، صديقاي في ذلك الحين، رفيقا مغامراتي في الشعر وفي الحياة.

لا شيء ينتمي إلى الصبا مثل الصداقة.

في ميزان المشاعر، تقع الصداقة في درجة أدنى من الحبّ. لكنّها تقع خلال فترة الشباب المبكّر في درجة أعلى. فهي لا تعذّب الجسد، ولا تسببّ الهوس، ولا تملأ الليالي بالشهوات، ولا تستعبد الإنسان. بل إنّها على العكس من ذلك، تجعلنا شركاء، لأنّها رغبة متواصلة في المشاركة، إنّها أفكار وعواطف وآمال في المستقبل. هل تتابعينني يا غريس؟

وصل الزورق إلى هنا، إلى ضفاف الأرنو، يرسله ساحر طيّب... هناك سحرة سود، من الأفضل الابتعاد عنهم، لأنّه يريدون الشرّ للإنسان ويسبّبونه له... وهناك الساحر القويّ الذي يعيش بين المدّ والجزر والضباب وغابات الشمال، وهذا طالما استوحاه الشعراء في قصائدهم. إنّه يلبّي رغبتي من بعيد، ويعطيني سحره.

لا شيء ينتمي للصبا مثل السحر.

لا يحتاج الزورق إلى من يدير مجدافه ولا إلى بحّارة، ولا يحتاج ربّما إلى مجاديف ولا إلى أشرعة، لأنّ إرادتنا هي التي تسيّره فيتحدّى كلّ ريح. لا العواصف، ولا السكون، ولا التنانين، ولا القراصنة، لا شيء يمكن أن يؤذينا ويمنعنا من مواصلة الرحلة، ولن ينشأ أيّ سوء تفاهم بيننا على الإطلاق... يحدث ذلك ونحن محبوسون في مساحة ضيّقة على متن القارب... ولكنّ هذا لا يحدث معنا. على العكس من ذلك، فإنّ العيش في وئام تتشارك فيه الأرواح بالمشاعر نفسها، سينمّي بيننا متعة البقاء سويّة.

لكن لا يمكن لنا نحن الثلاثة أن نبقى وحدنا. ولا يمكن للساحر الطيّب،

صاحب هذا السحر، أن يتوقّف عند هذا الحدّ. لذلك فقد طلبت منه، وأنا على ثقة بأنّه سيستجيب، إحضار ثلاث نساء على المتن: ثلاث من القائمة الملعونة التي كلّفتني الكثير.

كان هذا أمراً مألوفاً بين الشعراء البرفنسيّين، وفعل ذلك ريمبو دي فاكيراس[36]، بل فعله أوّل من فعله سليمان، وكان أحكم الرجال...

كنت قد وضعت بياتريشه في المكانة التاسعة، لأنّ رقم 9 هو رقمها، لكنّ الساحر طلب حملها على متن الزورق مع السيّدة فانّا لتكون قرينة غويدو والسيّدة لادجا لتكون قرينة لابو، رغم أنّها كانت في المكانة الثلاثين. وإذا لم أكتب اسمها فهذا كان لتضليل الجميع ما عدا الأصدقاء المتواطئين معي وكانوا يعرفونها...

لا تفكير هناك إلّا وعلى الدوام
في الحبّ، فكلّ واحدة منهنّ
مسرورة، أجل
كما أظنّ أنّا سنكون كذلك

لا تفكير في الزورق المسحور إلّا بالحبّ وعلى الدوام. حياة في مملكة الحبّ ومرسى في كلّ الموانئ، في كلّ جزيرة مليئة بالغابات والقلاع، في كلّ مضيق فيه الرياح هادئة. التحدّث بالحبّ يوقظ الحبّ، يوقظ الرغبة بفعل الحبّ.

جرّبي ذلك يا غريس. أمّا أنا فسأطلب من الساحر، من الساحر الطيّب الذي أرسل فوق نهر أرنو زورقاً من بين المدّ والجزر وضباب الشمال، سأطلب منه أيضاً شيئاً آخر: أن تصبح النساء الثلاث مسرورات بالتفكير معنا بالحبّ، وأن يبادلننا متعتنا في حبّهن.

ولا شيء ينتمي إلى الصبا، وإلى هشاشته، مثل هذه الحاجة إلى المبادلة، فهل توافقينني الرأي يا غريس؟

36- Raimbaut de Vaqueiras رايمباوت د ڤاكويراس 1165-1207

هل تعلمين يا غريس، أنّ بياتريشه لم تبادلني الحبّ. لم أتلقّ منها سوى تحيّة واحدة. لم أشمّ حتّى عطر شعرها، ومع هذا فقد أحببتها، وكتبت في مديحها، وعندما لقيتها وأنا رجل ناضج، قد غابت عنه أحلام الصبا، جعلتها دليلي للوصول إلى معرفة الله.

لكنّ سحر الصبا يظنّ أنّه قادر على الاستغناء عن الله. أمّا الإله الوحيد فكان هو حبّ وكانت رحلته نبع سعادة تامّة للروح والجسد، ذلك في الزورق الشبح الذي ارتحلنا فيه أنا وغويدو ولابو مع فانّا ولادجا و«تلك التي كانت في المكانة الثلاثين».

لا شيء ينتمي إلى الصبا مثل الترحال، إلى حيثما وصل، وأنت تعرفين ذلك.

لقد هرمتُ الآن يا غريس، لو تسنّى لك أن تريني بلحيتي الرماديّة الكثيفة وبردائي الذي نرتديه نحن أهل فلورنسا القدماء، الطويل، والمتّسخ بالوحل وأوراق الشجر الجافّة...

أذكر عندما كنت في الحياة، كنت منفيّاً في مدينة فيرونا، وبدأت تنتشر حينها شهرة قصائدي. مررت ذات يوم في طريق كانت فيه نسوة يتكلّمن وهنّ جالسات أمام أبواب بيوتهنّ، فسمعت أنّهنّ يتحدّثن عنّي... هل تعلمين من هو ذلك الرجل؟ إنّه شخص يذهب إلى الجحيم ويرجع منه كما يشاء... فقالت الثانية آه، فهمت، لهذا فإنّ شعر لحيته أجعد وأسود وبشرته غامقة، بسبب الدخان والحرّ اللذين يسودان هناك...

لكنّي الآن ظلّ. بالفعل، ولهذا لا يمكن لك أن تريني.

لو كان بوسعك أن تسمعيني على الأقلّ، بينما ترفعين عينيك نحو القمر، لكنت قد قصصت عليك أنّي، ولو كنت عجوزاً كما أنا عجوز، سأستدعي زورقاً شبحاً آخر إلى هذه الضفّة. وأنا واثق أنّه سيأتي، سيأتي مرّة أخرى ذلك الساحر الطيّب ولن يقول لي لا، ها هو زورق بمقدّمة رقيقة وصارٍ كبيرٍ عليه شراع لاتينيّ ضخم، وعلى متنه مقصورة واسعة محميّة، فيها وسائد أرجوانيّة وأغطية دمشقيّة، مع دِنان نبيذ حلو تحت تصرّفنا. أودّ أن أدعوك إلى الذهاب معي، تعالي، ثقي بي، إنّي كنت شاعراً، وأنا الآن ظلّ شاعر، أتقن السحر والحبّ.

سنسافر هذه المرّة أنا وأنت وحدنا. وسيذهب الزورق إلى حيث نأمره أن يذهب، إلى منبع الأرنو، إلى ليريشي، إلى جنوى، إلى مرسيليا، إلى الجزائر، إلى سيتّا، وأعمدة هرقل ومن هناك إلى المحيط، فهل تريدين؟

المحيط هو اللانهاية. ومن يحبّ فإنّه يريد اللانهاية لمحبوبته. على الأقلّ فإنّي أنا أريدها لك.

لكن هل تعلمين أنّ هناك رغبة خفيّة تدفعني لأذهب بالزورق إلى الشمال فالشمال، حتّى ألاقي الساحر الذي أرسله لنا؟

يقولون إنّه يعيش في مغارة مقابل البحر وأسفل قلعة تينتاجيل في كورنوال. أريد أن أبلغ ذلك المكان. كي أناديه وأوقظه إذا كان نائماً، وأن أرجوه.

اسمه ميرلينو. إنّ بوسعه أن يفعل لي سحراً جديداً.

اسمعي يا غريس، لقد أغرم ملك بريطانيا أوثر بندراغون ووقع بجنون في حبّ إغرين زوجة غورلويس دوق كورنوال التابع له، ذلك كما وقع داود ملك إسرائيل في حبّ بتشبع التي كانت زوجة أوريا. ذلك أنّ حبّ لا يراعي أحداً. ولا يعتبر أنّ أيّ رباط هو مقدّس إلّا إذا كان هو نفسه قد قرّر ذلك وعقد ذلك الرباط.

كان أوثر بندراغون يموت من الشهوة، ويتلوّى كالصبيّ الصغير، هو ذلك الملك العظيم، وبهذا كان حبّ سعيداً لأنّ في الأمر دليلاً على قوّته التي لا يمكن لأيّ ملك على وجه الأرض أن يعارضها.

لكنّ إغرين حبيسة قلعة تينتاجيل الشاهقة فوق صخرة فوق البحر منيعة على كلّ الجيوش، ما زالت مخلصة لزوجها. أمّا أوثر بندراغون فلا يمكن له أن يستغني عن غرامها، يريد بأيّ ثمن كان أن ينام في سريرها ولو ليلة واحدة، وأن يشمّ رائحة شعرها ويحسّ بدفء جسمها، ولا يمكن لهوسه أن يهدأ إلّا بهذه الطريقة.

لذلك فقد لجأ إلى ميرلينو. طلب منه المساعدة منه، من سيّد السحر والتحوّلات. فاهتمّ ميرلينو بعذابه أكثر من اهتمامه بعفّة إغرين. وهكذا فقد قام أيضاً بهذا السحر: أعطى لليلة واحدة إلى أوثر بندراغون مظهر

غورلويس، من شعره إلى عينيه، إلى أنفه، إلى فمه، إليه كلّه، حتّى يمكن له أن يخدع كائناً من كان.

وهكذا فإنّ الملك أصبح قادراً وهو بمظهر عامله أن يدخل بين الحرس لينحنوا له بالتحيّة في قلعة تينتاجيل، ذلك إلى أن وصل إلى مخدع إغرين الزوجيّ، فنظرت هي إليه وابتسمت له لأنّه زوجها الذي يقترب منها، وحيّته كما اعتادت أن تفعل.

وهكذا فقد تمدّد في سريرها ونفّس في ليلة غرام واحدة كلّ شهواته المتراكمة التي أمضت روحه وجسده.

من يدري فيما إذا كانت إرغين قد وجدت أمراً لم تجد له تفسيراً بسبب هذا التدفّق المريع في طلب المتعة والذي لا ينتمي عادة إلى الغرام بين الزوجين. لكنّ أيّ شكّ لم يطرق بالها عندما أشرق الفجر وترنّح أوثر بندراغون وهو يترك مخدعها، إذ لم يبق له إلّا القليل ليبقى بمظهر غورلويس.

فكّري أنّه من تلك الليلة السحريّة الحافلة بحبّ مغتصب، ولد أرثر، الذي سيصبح ملك الطاولة المستديرة.

قد تتساءلين ما علاقتي بهذه القصّة. لكن إذا وصل زورقنا إلى تينتاجيل، فإنّه يمكن لي أنا أيضاً أن أتوسّل إلى ميرلينو كما فعل أوثر بندراغون. فهل تعلمين ماذا سأطلب: أن يعيد لي لليلة واحدة مظهر جسدي، رغم تعاسته، أن يعيد لي جسمي وكلّ حواسّيّ الخمس.

هل فهمت الآن يا غريس؟ إنّي أريد قربك كما أنا قريب منك الآن، على أن أستطيع إسماعك وقع صوتي ومداعبة شعرك ووجنتيك المليئتين بالنمش، ويديك...

لا أعرف إذا كان سيّد الكون يستاء من السحر. لا أرجو ذلك. أرجو ألّا أسيء إليه عندما أكلّم غريس بأحاديث عن السحرة والسحر... والحقيقة هي أنّي يا للأسف لا أكلّم إلّا نفسي... في هذه الليلة الغريبة، الليلة السبعمئة.

كانت واضحة الشروط التي وضعها سيّد الكون، برحمته اللامتناهية، كي أبقى متمتّعاً على الدوام بنوره في الفردوس: عليّ أن أذهب ظلّاً بين الأحياء، لليلة واحدة مرّةً في السنة، ذلك إلى أن يشاء أو... إذا وقعت إحداهنّ في حبّي.

هناك قليل من روح السخرية في رحمة سيّد الكون اللامتناهية: فكيف يمكن لشخص أن يبادلني الحبّ، وأن يقع في حبّي إذا بقيت غير مرئيّ، غير ملموس، ولا أحد يسمعني...؟

ولّدت غريس في نفسي انطباعاً بأنّها تشعر بوجودي. كان هذا انطباعاً. إنّها جالسة على كتف النهر، عيناها تنظران في تدفّق الأرنو وفي القمر، ومن يدري أين تهوم أفكارها، وأين يشطح خيالها، بالتأكيد ليس ناحية ميرلينو وتينتاجيل، حيث أريد أن آخذها.

لا، لا تعرف أنّي موجود، لا يمكنها أن تعرف. وسأبقى أنا معلّقاً بين الخلود والزمان، بين النور والظلام، الفوضى، خليط هذه الليالي الجهنمية.

غريس تلتفت الآن، بحركة جامدة، سريعة بساقيها اللتين ترتفعان، وبجذعها الذي يستدير بشكل يفاجئني... إنّ فيها عظاماً وعضلات وأوتاراً، ووزن جسمها، هل من الممكن أنّها لا تشعر به إلّا بهذا القدر الضئيل؟

تنزل عن كتف النهر وتمشي في الاتّجاه المعاكس له. لا يعتريني أيّ شكّ، فأستمرّ في اتّباعها.

بعد خطوات قليلة، أصبح الطريق ضيّقاً وقلّ ضياؤه، فسمعنا خطوات صبيّين وراءنا.

إنّهما صغيران جدّاً، يرتديان سراويل مثقوبة في عدّة أماكن، عند الركبة وعند الفخذ أيضاً، وكذلك يرتديان قميصين عليهما صورتا تنّينيْن يقذفان من الفم ألسنة اللهب، وقد تركا شعرهما يطول بشكل بيضويّ أسود كثيف في أعلى الرأس، بينما كانت بقيّة الشعر محلوقة على الصفر.

أشعر أنّهما يقتربان جدّاً، تطلق أفواههما شتائم معيبة. تتظاهر غريس بعدم سماع ذلك. وتستمرّ في المشي بثقة، حتّى دون تسريع وتيرة مشيها. أمّا أنا فكنت أعتصر من الرغبة في إسكات هذين الكائنين البغيضين.

عندما اقترب أحدهما من غريس وحاول أن يلمس صدرها، ألقيت بنفسي عليه بغضب أشدّ من غضبي يوم كنت في الصفّ الأوّل من الفرسان، وهجمت على الأعداء الغيبلّيني في كامبالدينو. ويعلم الله كم كنت أكرههم. لكنّي أكره الآن هذين المخلوقين الكريهين أكثر.

رميت بنفسي كالكبش على صدر الأوّل وألقيته على الأرض، ثمّ حاولت أن أمسك بالثاني من حنجرته، وركلتهما سويّة، بل لو كان معي رمح لكنت قد ثقبت به جسميهما دون رحمة. والواقع أنّي أشعر بالأسف على نفسي، لأنّ اضطرابات الظلّ لا ينتج عنها أيّ تأثير مرئيّ على الواقع، ويتوجّب عليّ أن أنظر بلا حول ولا قوّة، وستخرج سيول تفيض بالدموع، لو كان لي عينان.

يا إلهي احفظها. يا ربّ الكون، أرجع لي ساقيّ، ذراعيّ، يديّ، ساعدني على أن أدافع عن غريس. لكنّ غريس لا تبدو خائفة. ها هما يقفان حولها، يشتمانها، يضحكان، ويلمسانها بأيديهما: لكنّها تبدي مقاومة سلبيّة شجاعة.

يصرّ الاثنان. يحاول أحدهما دفعها على الحائط، بينما يضع الثاني فمه المفتوح على خدّها ويصعد به إلى أذنها، ويحاول تمزيق الوشاح عن رقبتها.

كنت جالساً على الأرض، أواصل البكاء وأبتهل بحرارة سيّد الكون، فرأيت أنّها قد خلعت نظّارتها، وألقت بها في حقيبتها قبل أن ترمي هذه على الرصيف، فوقي مباشرة.

أوه، إنّي عاجز، لا يمكنني إيجاد أيّ كلمة بلغتكم هذه، المسطّحة جدّاً: قد يتطلّب الأمر إحضار أوفيد[37] ليصف مثل هذا التحوّل.

ها هي غريس، الصبيّة البائسة ذات النظّارات، تواجه الآن مهاجميها، بل تتحوّل إلى الهجوم، ها هي تثني ذراعها اليسرى لتحمي بها وجهها، ثمّ تتوجّه باليمنى إلى الأمام وتناول بقبضتها المغلقة ضربتين رنّانتين قاتلتين فتضرب رأس أحد المهاجمين وبطنه في آن واحد. لقد أصبحت غريس في لحظة امرأة محاربة. استعملت تأثير المفاجأة فرفعت إحدى ساقيها عن الأرض وانهالت بقدمها كالصاعقة لتضرب وجه الآخر ورقبته، فانطرح على الأرض وهو يتألّم ويترنّح. وعندما عاد الأوّل ليحاول النزال مرّة أخرى، قامت بضربه على رأسه بالحركة نفسها. استدارت غريس على نفسها كأنّها دمية، فقويت بذلك ساقها وقدمها، وانطرح الفتى على الرصيف.

37- أوفيديوس 43 ق م – 17 م. شاعر روماني قديم، من أشهر أعماله «التحوّلات»، عن الميثولوجيا الإغريقية والرومانية. عرف باستكشاف الحب كما في قصيدة «فن الحب» التي كتبها في السنة الأولى قبل الميلاد. (م) عن ويكيبيديا

نهض الاثنان بصعوبة، وابتعدا كأنّما في هروب.

أخذت غريس تلهث الآن. عندما حملت الحقيبة، وجاءت ووجهها فوق وجهي مباشرة، لاحظت أنّ عينيها الجميلتين قد فاضتا بالدموع. عليّ الآن أن أداعبها وأعانقها وأهمس بكلمات لطيفة في أذنها. لماذا لا يمكنني فعل هذا؟ هل يبدو لك عدلاً هذا يا سيّد الكون؟

دخلت غريس إلى أوّل بارٍ مفتوح، جلست على طاولة، وطلبت ماء معدنيّاً، فجاءتها زجاجة صغيرة مع كأس مليئة بالثلج، قدّمهما نادل فاتر الهمّة لم ينظر حتّى إلى وجهها. لقد جفّت الآن دموعها، وبدأت تلتقط أنفاسها، فحوّلت يدها إلى الوراء ومرّرتها خلال شعرها، وأخذت تشرب ببطء من عنق الزجاجة رشفة تلو الأخرى. جلست أنا على كرسيّ بجانبها، ووضعت يدي على سطح الطاولة ذي اللون المزرقّ، وصرت أنظر إليها.

منذ متى لم أشعر بالعطش، عليّ أن أعود قروناً إلى الوراء لأتذكّر تأثير الماء المفيد عندما ينزل عبر الحلق.

خلعت غريس عن عنقها ذلك الشال الشفّاف وأعادت ترتيبه، ثمّ عادت وعقدته من جديد. ثمّ سحبت منديلاً من حقيبتها، ومرّرته بهدوء على وجنتها، كما لو لتمحو آثار تلك اللمسات البغيضة.

إنّي لا أنظر إليها وحسب. إنّي أعبدها. كيف تمكّنت من إفشال اعتداء ذين الشخصين الكريهين؟ كيف فعلت لتحوّل يديها وساقيها إلى سلاح؟ لا شكّ بالفعل في رشاقتها وقوّتها. ترى أين تعلّمت هذه التقنيّة القتاليّة؟ إنّي معجب بطريقة تناولها الشراب، رشفات طويلة وحازمة، وبطريقة مسحها بالمنديل من ذقنها إلى أذنيها... هذا بينما أخذت تستعيد سيطرتها على نفسها.

إنّي مغرم بها، بلا أمل. أضع يدي على يدها، رغم أنّي أعرف حقّ المعرفة أنّها لن تشعر بذلك. لكنّ اليد التي غطّتها يدي تبقى ثابتة، بأصابع مفتوحة كالمروحة. إنّ إصبع خنصرها رقيق جدّاً. إنّها اليد اليمنى، تبقى ثابتة لفترة أطول من الأخرى، أطول بكثير. أرتجف بشدّة متزايدة عندما أفترض أنّي أحسّ براحة يدي قد أصبحت على ظهر يدها. لا أعرف كيف أصبح هذا ممكناً، وليس ليدي وزن، وليس لها لون. ومع ذلك فهي تبدو كأنها قد

اطمأنّت... عرفت ذلك من ابتسامتها التي ارتسمت أخيراً على وجهها... كأنّها شعرت بنوع من الحماية.

غريس، إنّي لست الملاك الحارس، لا أستطيع أن أحميك كما أريد، لكنّي لست أيضاً شيطاناً، وليس لك أن تخافي من أيّ شرّ يصدر عنّي. لست إلّا ظلّاً، لكنّي ظلّ مغرم بك.

وهكذا فعندما نهضت وخرجت من البار، بقيت أتبعها. لا أستطيع أن أكفّ عن ذلك، لا أستطيع أن أتركها تهوم وحدها في المدينة خلال الليل. لا أستطيع إلّا أن أتمسّك بذلك الأمل الضعيف الذي أشعر به. علّها تعرف أنّي موجود، ولا يهمّ في أيّ بعد أو شكل من أبعاد وأشكال الوجود، فالمهمّ أنّي موجود.

وصلنا إلى ساحة واسعة مربّعة الشكل، تحتّل طرفاً من أطرافها كنيسة سانتا كروتشه، اكتشفت أنّ هناك أمام الواجهة، على يسار الناظرين، تمثالاً من رخام يصوّرني.



تمثال دانتي أمام كنيسة سانتا كروتشه في فلورنسا

أعرف ذلك، أعرفه حقّ المعرفة، أعرف أنّ العالم ما زال يذكرني، ويذكر أعمالي، وأنّهم يقرؤونها ويدرسونها، وأنّهم يحتفلون بي تشريفاً. لكن

لا يمكن لهذا العالم أن يتخيّل أنّي أنا هذا الظلّ، ما زلت أجوب، ليلة كلّ سنة، عبر مدينتي البغيضة التي لشدّ ما أحبّها. ولا يمكن له أن يتخيّل أنّ هذا الظلّ القديم لا يعرف ماذا يفعل بهذا المجد، لأنّه ما زال يبحث عن الحبّ وحسب، يبحث بإصرار لا رجعة فيه، عن حبّ.

إنّ نظرة امرأة عاشقة قد تنقذني. يا سيّد الكون، هل تريد أن تلعب معي لعبة القطّ والفأر؟ وسامحني على التشبيه غير اللائق، لكن إذا كنت سيّد الخلق كلّه، فأنت أيضاً سيّد القطط، بل والفئران، أم لا؟

كان هناك قطّ ناصع البياض يجتاز الساحة بالعرض، وكان يموء بحدّة وتوسّل، ربّما كان في فترة حبّ وشبق.

إنّي من رخام في هذا التمثال، كما أنّي أنا الظلّ أقلّ من ضباب في وضعي هذا. فأنا إذاً مادّة غير عضويّة من طرف معيّن، ووعاء بلا مادّة من الطرف الثاني. أنا بحاجة يا إلهي إلى صوت يمكن أن يُسمع، على الأقلّ.

تسألني عن السبب؟ هل تريد أن تمزح من جديد؟

إنّك تعرف حقّ المعرفة فائدة الصوت بالنسبة إليّ.

ذلك لأتمكّن من القول: كنت أنا يا غريس من وضع قبل قليل يده على يدك، إنّي أنا الذي يحبّك.

-III-

إنّ حبّ لا يغفر لمحبوب
ألّا يبادل الغرام

لم يسبق لي أن مكثت في السابق في مكان داخليّ مغلق. وقد أخبرتك لماذا لم أدخل إلى المعموديّة. لكنّي لم أدخل حتّى إلى الكاتدرائيّة.

كنت قد تحدّثت مع سيّد الكون وجهاً لوجه، ومن المفترض أن أعود إليه عند الفجر، فما حاجتي للركوع أمام المذبح؟

لم أشعر حتّى بأيّ فضول للدخول إلى بيت. رغم أنّه ليس عليّ أن أخلع أيّ باب، فالظلال لا تجد مقاومة في عبور الخشب ولا البرونز أو حتّى الحجر.

لكن إلى أيّ بيت؟ فعودتي لأرى بيتي، الذي لم يعد بيتي بعد أن انتزع منّي... قد تثير انقباض قلبي. ثم إنّي لم أكن أشعر برغبة في أن أنغلق ضمن أربعة جدران. لقد تغيّرت الأبنية بالتدريج وأصبحت مرتفعة مربّعة مسطّحة لا شيء فيها يجعلني أشتهي الدخول إليها.

لقد عرفت نور السماء، وفي الأرض أفضّل أن أدع مجالاً حرّاً أمام بصري، وأن أكتشف من موقعي في قلب المدينة ماذا يجري حولي.

هناك حاجة إلى غريس. هناك حاجة إليها من أجل التغيير. هذه الفتاة الأجنبيّة التي أقصّ عليها كثيراً من شؤوني، من غير أن أعرف شيئاً عنها. أعرف ما اسمها، لكن لا أعرف من أين جاءت، ولا أعرف ماذا تفعل، ولماذا هي في فلورنسا... لا شيء... أقول لا شيء.

وعلى أمل أن أعرف شيئاً آخر عنها، فقد قبلت للمرّة الأولى بعد سبعة قرون، بأن أجد نفسي داخل أربعة جدران.

شعرت أوّل ما شعرت بالاختناق. لحسن الحظّ ليس للظلال رئة، ولا يقعون في هذا الخطر. وقد تكيّفت مباشرة مع ذلك الانطباع عن الأماكن المغلقة، كالسجن.

لكنّ الفضول ما زال يسود. بيت، هذا ما هو عليه بيوت اليوم. بيتك أيضاً سيكون مثل هذا البيت.

غرفة: في وسطها طاولة سطحها من زجاج، كرسيّ ذو مسند مرتفع وذراعان... أريكة عليها وسادتان مخطّطتان بلون عاجيّ وبرتقاليّ موضوعة قرب الجدار...على الجدار المقابل هناك رفّ مليء بالكامل بالكتب، بكلّ المقاسات وأغلفة بكلّ الألوان، مصفوفة بشكل عموديّ كتاباً جنب كتاب، لكن وضِعَت حتّى فوق هذا الصفّ كتبٌ أخرى بشكل أفقيّ، في فوضى كاملة.

هناك كتب أخرى موضوعة أيضاً على الطاولة، وفي المساحات الفارغة بين مختلف الأجهزة التي لا أعرف بماذا تستعمل: هناك جهاز له شاشة تضيء عندما تضغط بإصبعها ضغطة خفيفة على زرّ ما.

على طاولة أخرى سطحها أصغر، مغطّى بالقماش، أرى فنجاناً وملعقة، وكأساً، ووعاء سكّر، وزجاجة.

إنّها قرب خزانة بلون أزرق، وإلى جانبها توجد مغسلة لها فوهة أرى بدهشة أنّ الماء يسيل منها. ملأت غريس منها طنجرة ثمّ وضعتها فوق آلة أشعلت عليها دائرة لهب أزرق وأحمر، وهنا شعرت بالخوف أكثر من الدهشة، فتراجعت بأربع أو خمس خطوات، حتّى انتهى بي الأمر جالساً بين وسائد الأريكة.

إنّها هكذا البيوت، الآن. صغيرة جدّاً مطابخها، لكنّ الماء والنار تحت السيطرة على وجه الكمال، وهما خادمان مطيعان. يمكن لي تخيّل الأمر، وقد رأيت بالفعل الكثير عن الأمر.

لقد طوّع الإنسان كلّ الخليقة، وهو يسير في معابر السماء، يرسل

الأصوات والصور عن بعد لا يصدّق، سيطر على الأنهار ومسخ الغابات شرّ مسخ وأحرقها. لكن لماذا فعل هذا؟ هل ليتنفّس هواء لم تعد فيه أيّ رائحة، وفيه سموم أكثر ممّا فيه غبار طلع؟ وهل ليسافر مثل نعجة مجنونة بين نعاج مجنونة، دون رؤية شيء مباشرة بالعيون ودون تثبيت شيء في الذاكرة؟ أو هل لبناء مزيد من البيوت التي تزداد بؤساً ودون بناء معموديّة ولا كاتدرائيّة كما بنيا في مدينتي وبقيا فيها منذ قرون عديدة؟

فعل هذا كي يتمكّن من العيش وهو يخفي وجهه، مقنّعاً كما يتقنّعون خلال رقصة الموت، تهدّده أشياء غير مرئيّة تجعل الساحات مقفرة وتعزل كلّ كائن عن الآخر.

أذكر ليلة من العام الماضي، حين لم يكن متاحاً حتّى الدخول إلى الكنائس. أذكر كيف كانت أبواب الكاتدرائيّة والمعموديّة موصدة... ولم يسبق لي أن رأيتها بهذا الشكل من قرون وقرون... وكان على كلّ كائن حيّ أن يبقي على مسافة بينه وبين كائن حيّ آخر.

حيّ... أيّ مبالغة في هذا التعبير! قد تقول أنت، هذا كلام ظلّ. لكنّني أنا الظلّ ليس عندي حدود يجب أن أراعيها، ولا مرض أخشاه. بل ربّما أنا حيّ أكثر منك، وأكثر من كثيرين من أمثالك.

رأيت القناع الأبيض الذي كانت ترتديه غريس عندما رأيتها للمرّة الأولى، رأيته مركوناً في طرف المقعد الوحيد الموجود في الغرفة، بدا لي مثل حمامة قد بنت للتوّ عشّها...

على الإنسان الآن، وهو المهيمن على العالم المرئيّ، أن يدافع عن نفسه حتّى من الهواء نفسه الذي يحيط به، من أمور لا يراها، من أصغر الأشياء، من أخطار لا يمكن له أن يفعل شيئاً ضدّها. ويمكن له لهذا أن ينغلق في مكان داخليّ، وأن يتحصّن في غرف مثل هذه الغرفة، أن يعيش في متاهة شاشات، كثيرة وبمختلف المقاسات، تصدر ضوءاً أبيض مثل الشبح، وأن ينقلب شبحاً هو أيضاً، شبحاً أكثر ممّا هو أنا عليه.

لماذا لا يعرف الشخص المسجون بين شاشاته، لا الشمسَ ولا الريح، ولا الأمواج ولا النجوم؟ لماذا يعيش بين صور ليس فيها جوهر ولا حقيقة؟

لم يعد له جسم، رغم أنّه يظنّ أنّ له ذلك، بل يعتني به ويكسوه بأحسن ما يستطيع. لم يعد له دماغ خاصّ به، رغم أنّه يعرض على الملأ علبة مخّه، بصلعها أو تحت تسريحات غريبة. لم يعد له مشاعر ولا ذكريات.

أمّا أنا فعندي منها، حتّى وأنا ظلّ.

أشعلت غريس الشاشة المثبّتة على الجدار بجهاز أسود مليء بالأزرار وأصغر من يدها. ظهرت صورتان لرجال يرتدون ربطات عنق ومضطربين... تراكبت الأصوات وسمعت كلمات متقطّعة لا تفهم، وتكشيرات كِبْر ونذالة... تويت تويت، بريند بريند، ترِيند تريند، فيس فيس، بوك بوك، لايك لايك...

ضغطت من جديد سبّابتها على الجهاز الصغير، فظهرت امرأة بذراعين عاريتين ناعمتين، عريضة الفم، وتقوم بحركات عير متسّقة...حبّ ب ب ب ب...

أطفأت غريس الشاشة مباشرة وهي تهزّ كتفيها.

في هذه الأثناء قفزت قطّة نحوها، وثبت من الأريكة حيث كانت مختبئة وراء حقيبة مركونة هناك بل ربّما داخلها. قطّة وبرها أشقر وعلى خطمها بقع أغمق من وبرها وعيناها زرقاوان تومضان بضوء مشتعل جدّاً كاد أن يثير خوفي.

ركنت في البداية على قدمَيْ غريس، وتركتها تداعب لها رأسها، ثمّ وثبت على الطاولة بحركة متعرّجة، دارت حول الكتب المصفوفة دون أن توقعها، وهبطت من هناك على الأرض.

وإذا كادت عيناها قد أثارتا مخاوفي، فما بالكم وأنا أرى أنّها تقبع على بعد خطوة من مكاني، ثابتة هناك على مخالبها المرنة، وخطمها في اتّجاهي، تموء بصوت خافت، بشارب منتصب؟ ثمّ استطالت بجسمها كما لو أنّها ترَيد أن تتسلّل عبر نفق أو حفرة، وقفزت.

وأقسم لك أنّها كانت ستثب عليّ لو كان لي جسم مثلها.

قالت لها سيّدتها: «ماذا تفعلين يا كيلّي؟»، ثمّ كرّرت قولها بلغة أخرى، بلغتها.

لا أعرف أيّ لغة تفهمها القطّة، لكنّه عليّ أن أبدأ بفهم الإنكليزيّة إذا أردت أن أبقى مع غريس... أرى أنّها تكلّمها كما لو كانت كائناً بشريّاً. يعجبني صوتها. لو كان بوسعها أن تتكلّم معي!

تعجبني كيلّي أيضاً. اسمها من الأسماء الغريبة التي بدأت أتعوّد عليها... اسم أنثى، حتماً... كان سليماً انطباعي الغريزيّ الأوّل أمام مثل هذا الجمال الرشيق المرن: فهي بالفعل قطّة أنثى.

أخذت غريس تشرب الآن من فنجان أتت به إلى الطاولة حيث توجد شاشة مضيئة أخرى إلى جانب صفّ من الكتب. لقد نزعت نظّارتها. يبدو أنّ قزحيّتيها قد تحوّلتا هذه الليلة من اللون الأزرق الفاتح إلى الرماديّ إلى الأخضر. وهما الآن بأخضر خفيف، رائع الجمال.

ها هي تداعب بإحدى يديها كيلّي التي تجمّدت في حضنها.

أضاءت على حين غرّة شاشة مربّعة صغيرة على الجهاز الذي وضعته غريس على سطح الطاولة القريبة منها، وهي ثالث شاشة في تلك الغرفة، كما سمع أيضاً صوت يشبه صوت النواقيس. تناولت غريس الجهاز وقرّبته من أذنها، فوثبت كيلّي إلى الأرض لأنّها تضايقت من انقطاع المداعبة.

أصغت غريس للحظة، ثمّ بدأت تتكلّم بلغتها التي لا أفهمها.

الحبّ، أعرف هذه الكلمة فقط، لكنّ غريس لم تلفظها. هناك في نبرتها بعض التبرّم، إنّها ترفع صوتها، ثمّ تطلب المعذرة، ثمّ ترفع صوتها من جديد لتؤكّد على رأيها أو موقفها.

إنّي أصغي إليها في وضع العاشق الذي يجعل كلّ ما يقوله الحبيب جميلاً ورائعاً في عينيه.

لا أعرف عن أيّ شيء تتكلّم، ولا مع من. لكنّها تعجبني.

بودّي أن أذهب لوضع يدي مرّة أخرى فوق يدها، لكنّها رفعت يدها إلى أعلى وهي تحرّكها باستمرار وتشير بها بينما سندت كوعها على سطح الطاولة، وذراعها منتصبة وأصابعها تتحرّك بتوتّر كشفرات المراوح وكأنّما لتأكيد نبرة الصوت.

أرى الآن أنّ تعابير الوجه قد احتدّت، ثم انقطع الاتّصال. لا بدّ أنّ من كان يتكلّم معها قد أغلق الجهاز فجأة.

بقيت غريس جامدة في مكانها ويداها على صدغيها، ثمّ رفعتهما إلى شعرها وأخذت في هزّه ونفشه. لا بدّ أنّ الأفكار أيضاً تهتزّ داخل رأسها بالطريقة نفسها.

عندما تمكّنت من تهدئة نفسها أخذت غريس كتاباً من بين الكتب المصفوفة على سطح الطاولة وفتحته.

هناك صورة على غلافه.



صورة مرسومة لدانتي

صورة رجل يرتدي ملابس حمراء، ويعتمر طاقيّة حمراء، وهناك بياض في الداخل يبرز من تحت الصدغ ويصبح رقيقاً كخيط فوق العنق، كما تخرج من فتحة الثوب يدٌ ذات راحة ضخمة. رغم أنّ الأصابع رقيقة، إصبعه الوسطى المستديرة والخنصر مثنيتان نحو المعصم، كما لو لاستعادة شيء ما. الوجه أمرد، الأنف بارز، الشفة السفلى أكبر، في بروز شديد، التعابير مستغرقة، متصلّبة. وهناك تاج من ذهب يحيط بطاقيّة الرأس.

كنت مستلقياً على الأريكة، محطّماً، دمّرتني المفاجأة.

فصورة الغلاف هي صورتي.

إنّي أنا، كنت أصغر من الآن، أمرد بشكل كامل، بهيّاً، النظرة متوتّرة لكن دون ذلك الحقد أو الغضب اللذين طالما كانا يغيّران ملامح وجهي. وجنتاي هنا محمرّتان، كما يحدث عندما تباغتك شهوة الحبّ وأنت لا تريد إظهار ذلك، لكنّ تلك الحمرة تفضحها بلا مغالطات ولا ستائر... وتلك اليد المطويّة، بتلك الإصبع السبّابة التي يبدو أنّها تشير إلى شيء ما... ربّما كانت تشير إلى حبّ، لتدعوه، فعندها ما تطلبه منه.

لا أستطيع أن أنهض عن الأريكة.

قفزت القطّة كيلّي أيضاً على الأريكة، بينما بقيت أنا ثابتاً في مكاني، وقد تجوف بطني وانحنت كتفاي وتقلّصتا كما لو أنّي أريد أن أدفع عن نفسي ذلك الشعور بالدهشة الذي سحقني وأثارني.

كان هناك متّسع في المكان. لكنّها ركنت بالذات في المكان الذي كنت فيه، يبدو أنّها تريد أن تختلط بظلّي. ألا يقال إنّ القطط هي الحيوانات التي يفضّلها الظلام؟

لكن عند رؤية كيلّي لا يجري التفكير لا بظلام ولا بشيطان. فكيلّي لها وبر مضيء وعينان طفوليّتان لا تخطئان في النظر إلى من قربها، ومخالب طريّة. وهي الآن تمرّ وتعاود المرور فوق بطني وجذعي، كما لو أنّها تراه، ثمّ إنّها تنحجز تحت تأثير مداعبتي كما لو أنّها أحسّت بها بالفعل.

كانت غريس في سبيلها لأن تبدأ القراءة، عندما رنّ جرس الباب، فنهضت وذهبت لتفتحه. دخل فتى وقبّلها على وجنتيها، حدجته بنظراتي وأنا أغرق بين رمال متحرّكة من الخيبة: فلماذا جاء، ولماذا في هذا الوقت، فدمّر سعادة لم أكن أحلم بها؟

إنّه صغير في العمر، ربّما أصغر من غريس، وطويل أسمر، ذو سحنة متوسّطيّة، وجهه من تلك الوجوه المحفورة في الزيتون والملوّحة بالشمس. شعره أسود، عيناه سوداوان، ابتسامته عريضة جدّاً تتبدّى عن طقم أسنان ناصعة البياض.

يرتدي سروالاً أزرق يصل إلى ركبتيه، وقميصاً أزرق تقفقف في كلّ أنحائه، ويضع كنزة على كتفيه عَقَدَ كُمّيها فوق صدره. جاء وجلس على الأريكة.

بما أنّي لا أتحمّل قربه، فقد استعملت سرعة الظلّ لأتجنّبه. وأعجبني أنّ كيلّي أيضاً وثبت معي، وتبعتني وأنا ذاهب إلى الطرف المقابل من الغرفة، كما لو أنّها اختارتني هي على الأقلّ، وليس عليّ أن أغار.

دعت غريس الفتى باسم باولو، ومن الواضح أنّه هو باولو، وعرفت من لكنته أنّه ليس من أراضيّ، بل من بعض مناطق الجنوب.

ذهبت غريس لتجلس إلى جانبه.

جلست أنا على طاولة عملها. اكتشفت أنّ تلك الشاشة المضيئة، ذات الخلفيّة الزرقاء التي يعلوها مربّع أبيض، تحتوي على كلمات، وليس صوراً. لم أكن أتوقّع هذا. لكنّي لا أحاول حتّى أن أقرأ، من شدّة اضطرابي.

قصّت غريس على باولو عن ليلتها الحافلة، وعن اعتقال صديقها المشرّد الذي يثمل في ظلّ المعموديّة والذي تساعده أغلب الأحيان كما تستطيع، وكيف واجهت الشرطة والتاجر الذي ادّعى أنّه سُرق... ثمّ عن الاثنين الحقيرين اللذين حاولا الاعتداء عليها، وكيف تخلّصت منهما، ثمّ عن تلك المكالمة التي جاءتها عندما دخلت إلى البيت...

قالت غريس بالإيطاليّة وبتلك اللكنة التي تضغط الكلمات ولفظ الحركات وتمدّدها في الوقت نفسه: «لا يمكنني تحمّل أمّي، إنّها مزعجة بالفعل، بل إنّها قطعت المكالمة عندما كنت أكرّر عليها أنّي لا أستطيع تلبية دعوتها للعودة إلى بالتيمورا، لأنّ عليّ أن أنهي دراستي، وهناك فحوص يجب أن أنهيها، وعليّ أن أكتب الأطروحة، هل تعلم ذلك؟ أمّا هي فلا تعرف شيئاً، قالت إنّ العالم أصبح أخطر من أن يكون الشخص بعيداً عن بيته... تأفّفت من عاداتي الشبيهة بسلوك صبيّة غجريّة، هكذا سمّتني، لا مركز لي، بدويّة رحّالة بلا عقل، على الأقلّ فإنّ أختي الصغرى بقيت معها في بالتيمورا... قالت إنّ هذا الزمان لم يعد زمن رحلات، وقالت من غير أن تترَك لي مجالاً لأجيب، إنّ الطائرات تنحجز الآن في المطارات والسفن في المرافئ، وإنّ المسافات عادت لتصبح شاسعة كما كانت قبل عدّة قرون... هذا كلّه بلهجة الثريّة المعتدّة بنفسها، بعقليّتها التوراتيّة المليئة بالذنوب والعقاب وكأنّنا سنقاد إلى منصّة الاتّهام عند حدوث أيّ مصيبة وجريمة في

العالم، بل وبالتلميح إلى أنّي لم أبق في فلورنسا إلّا بسبب دلعي وعنادي، ولأكون بعيدة عن البيت وعنها... ولم ترغب بسماع رأيي.

أنا أعبد هذه المدينة، أعبد إيطاليا ولغتها وشعراءها ورسّاميها، أريد العيش هنا، هذا حقّي، أريد أن أتابع دراستي حتّى بعد الشهادة، يروقني أن أكتب كتاباً، وهذه كلّها أحلام لا يمكن لأمّي أن تفهمها. لأنّها تعيش بين الجماعات الخيريّة في بالتيمورا والتسوّق في نيويورك... بالمال الذي ورثته عن أبي المسكين... وكان محامياً شهيراً... تستطيع أن تعيش كما تشتهي، وتريد منّي أن أفعل مثلها. أرجو ألّا تنقاد أختي لها. لقد تمكّنت من الابتعاد في الوقت المناسب. ويطيب لي العيش هنا. كما تمكّنت من التغلّب على الأشهر التي عشت فيها سجينة البيت، كنت لا أخرج إلّا لشراء الطعام من المحلّات القليلة التي بقيت مفتوحة هنا وسط المدينة، كنت أعقّم يديّ خمسين مرّة في اليوم، وكنت كما قلت لي مرّة عصابيّة، فكنت أترك يديّ تحت ماء جار وأفركهما أكثر ممّا أفركهما لو كانتا ملوّثتين بالدم مثل يدي ليدي مكبث.

وصلت في بعض الليالي إلى ناحية الكاتدرائيّة... ولم أخبرك بهذا على الهاتف... هناك رأيت مشرّدين ينامون على فرش قذرة مثقّبة موضوعة على صفوف من الكرتون والأغطية. كانوا فرادى وجماعات، معهم عربات مليئة بأكياس البلاستيك. ففكّرت كيف أنّ مصاعب حياتهم تتضاعف، وكم كانت صعبة ظروف تشرّدهم. كانت لديّ وسائل تساعدني، بل تجبرني على مدّ يد العون لهم، فكنت آتيهم بالحليب والبسكويت، وكنت أحاول أن أكلّمهم، لكنّي لم أجرؤ أبداً على سؤالهم عن كيفيّة انحطاطهم إلى هذه الدرجة من العوز. لا بدّ أنّ بعضهم قد فقد عمله، أو فقد عائلته... وكنت آتي بالبيرة إلى أشدّهم جنوناً، وظننت أنّه كان مغنّياً أفلت شهرته قبل الأوان، ولا أعلم لماذا هذا الظنّ، ربّما بسبب جدائله، ربّما لأنّه كان دائماً وحيداً ولأنّه يتحدّث بلغتي، ويستعمل تعابير بذيئة... يشبه الفنّانين، لكنّي لم أعرف البتّة من أين جاء، وكم عانيت لجعله يرتدي الكمّامة، لحمله على الإقلاع عن التدخين...

تابعت كلّ الدروس عن بعد، وحدي. لقد تمكّنت أنت من الهرب مباشرة من أهلك. تشعرون أنتم الإيطاليّون بحماية العائلة في أضيق نطاق، أمّا أنا

فكنت وحيدة هنا مع كيلّي، ولحسن الحظّ أنّها كانت معي، كيلّي العزيزة، كم سلّتني برفقتها... طبعاً، كنت أخشى من العدوى، لكن أمّي التي كانت تزعق عليّ من بالتيمورا كانت تخوض المخاطر نفسها، بل ربّما أكثر نظراً لعاداتها في زيارة النوادي وبيوت صديقاتها... وقد قلت لها هذا اليوم، لو سمعت كيف كان ردّها...

لحسن الحظّ فإنّ لديّ كتباً كثيرة أقرؤها وأدرس بها. ومع ذلك فقد شعرت بالحزن في كثير من الأوقات، لكنّي لم أشعر أبداً بالملل، ولا حتّى بالقليل منه».

قاطعها باولو بسؤاله: «وماذا تقرئين الآن؟».

أجابت غريس: «أقرأ دانتي».

عندما سمعتها تلفظ اسمي سقطت برأسي أمام شاشة تلك الأداة التي تستخدمها غريس للكتابة، كما لو أنّ أنفي وشفتي السفلى، رغم أنّه ليس لهما مادّة، لمسا لوح الكتابة وما عليه من كلّ أحرف الأبجديّة، الكبيرة، بالإضافة إلى رموز أخرى لا أفهم منها شيئاً.

لديها كتابٌ عليه صورتي، وهي الآن تناديني باسمي.

آه يا غريس، لم تكن صدفة إذاً أنّي قابلتك، وأنّي لحقت بك، وأنّي سمّيتك بياتريشه وأنّي اتّخذتك دليلاً لي... وإنّي أفهم الآن سبب شعوري بانجذاب غريب نحوك يختلف عمّا أشعر به نحو نساء قائمة الستّين. هناك إذاً سبب خفيّ وراء الأشياء، ومن الواضح أنّه يتحكّم حتّى بحياة الظلال.

آه يا غريس، كان من الصواب إذاً أنّي للمرة الأولى بعد سبعمئة ليلة وسبعمئة قرن أشعر بحبّ حقيقيّ نحو شخص ما، إذا كان هذا الشخص هو أنت.

استفقت في الوقت المناسب لأتابع أحاديث ذين الاثنين.

كانت غريس تقول: «كانت هذه ليلة غريبة بالفعل»... اقترب باولو منها ووضع ذراعه على كتفها، وعليّ أن أتوقّف عن التفكير في أنّي أودّ أن أبتر له تلك الذراع بضربة فأس، بل أريد أن أقطعها إرباً إرباً... فمن يدري إذا كانت قطّة كيلّي ستلتهمها بشهيّة...

«لم أوضّح شيئاً مع أمّي، لكنّي تجرأت وأخبرتها أنّي لن أعود إلى بالتيمورا، وهذا يكفيني الآن، فهو انتصار بالفعل... هذان الوغدان اللذان ظنّا أنّهما قادران على استعمالي، تلقيّا درساً لن ينسياه عن قريب. كانت فكرة رائعة بالفعل متابعة تلك الـدورة عن الدفاع الشخصيّ والفنون العسكريّة الشرقيّة... وعليّ أن أعترف أنّه كان لأمّي جزء من ذلك الفضل. كانت تنفخ قلبي بالأخطار التي قد تحدث لي وأنا وحيدة في الليل، وخاصّة بوجود ما يعرف عن الغرائز الجنسيّة الفوّارة لدى الإيطاليّين، كما كانت تكرّر عليّ دائماً، وهكذا فقد فكّرت في النهاية أن أتّخذ قراراً، يساعد حتّى على إسكاتها».

كانت غريس تتكلّم وهي تهزّ قليلاً ذراعيها الطويلتين النحيلتين وتظهر على وجهها أثر المشاعر التي تعتمل في قلبها.

أمّا باولو فكانت نظراته أقلّ تعبيراً، وكان يبتسم باستمرار ممّا يجعله جميلاً بالفعل، لكنّ استمراره في هذا لفترة طويلة قد يظهره، ودعونا نقول، بليداً أحمق نوعاً ما. لا يبدو أنّه يصغي إليها باهتمام، بل يبدو أنّه مشغول فقط بتقريب جسمه، الرياضيّ اللعين، وأكثر فأكثر من جسم الفتاة، رغم أنّ كيلّي قد ركنت وتمدّدت بينهما. وكلّ حجّة ستكون نافعة لمساعدته على تقريب وجهه من وجهها، وأخذها بيده.

لكنّ غريس كانت مستغرقة في حديثها ولم تلاحظ شيئاً من تلك الحركات.

وهكذا فقد استأنفت قائلة: «لكن هل تعلم، هل تعلم ما هو أغرب شيء حدث في تلك الليلة؟ لا أعرف كيف أشرح لك، إذ يصعب فهمه حتّى بالنسبة إليّ، فتصوّر كيف يمكن لي أن أجعل شخصاً آخر يفهمه... ذلك أنّه في لحظة معيّنة من الليل، عندما ابتعدت عن الكاتدرائيّة والتقيت بلوشيّا، أجل، تلك السمراء التي كنت تريد أن تظهر أنّك متيّم بها، التي تريد ترك ماتّيو الذي ضربها وهو يقول إنّه يحبّها بشكل لا يستطيع أحد غيره أن يحبّها مثله. يا إلهي كم أنتم قادرون على تمثيل العواطف أيّها الإيطاليّون... ثمّ عندما وصلتُ إلى نهر أرنو وجلست على كتفه، شعرت بإحساس جنونيّ

أنّ هناك من هو قربي ولا يريد أن يظهر للعيان، وأنّه يكلّمني، رغم أنّي لا أستطيع سماع شيء من كلامه... لا أعرف بالفعل كيف أصف لك الأمر. ثمّ وبعد أن رميت ذين الوغدين ودخلت بعدها إلى البار لأشرب وأنا مضطربة بالفعل بعد أن أجبرتهما على الفرار... وكانت تلك هي أوّل مرّة أطبّق فيها تعليمات تلك الدورة، ولم أكن واثقة البتّة من النجاح في ذلك، لكنّ كلّ شيء تمّ على أحسن وجه... عندها شعرت شعوراً غريباً لا يصدّق أنّ هناك من كان يحميني وأنّه يضع راحة يده على سطح يدي، هل تفهم؟».

التزم باولو الصمت للحظة، عصر عينيه كما لو أنّه يجد صعوبة في التفكير. ثمّ أجاب: «لا، ماذا تعنين؟».

هنا بدأتُ أرتجف، لا ترتجف مثلي حتّى أغصان الصفصاف عندما تضربها أعتى رياح الشمال.

أجابت غريس: «أعني الذي أخبرتك به».

فسألها وهو يلجم ابتسامته: «هكذا إذاً؟ ومن هذا الذي بوسعه أن يحميك؟».

«أخبرتك أنّي لا أعرف!».

قال باولو وهو ينفجر ضاحكاً: «وهل هو ملاك حارس مثلاً؟».

ابتعدت غريس عنه، ونهضت عن الأريكة، فظهرت وهي واقفة في وسط الغرفة كأنّها من المحاربات القديمات، ولا ينقصها إلّا رمح وخوذة.

«لم أتحدّث لا عن ملائكة ولا عن شياطين».

يا سيّد الكون، ساعدني وارحمني، إنّها تكرّر الكلمات التي همست بها إليها بينما كانت يدي فوق يدها في ذلك البار...

«عمّن تتكلّمين إذاً؟ هل تحميك العذراء، هل يحميك سان جينّارو؟[38]...».

استمرّ باولو في الضحك، من غير أن يلاحظ ظهور علامات الغضب على وجه الفتاة.

38- شفيع مدينة نابولي San Gennaro (م)

فقالت له وهي تكشّر: «لا يمكن لك أن تفهم؟».

كفّ باولو عندها بغتة عن الضحك، ونهض وهو يحاول معانقتها.

فقالت له: «من الواضح أنّك لا تستطيع أن تفهم».

«كنت أريد أن أنام عندك هذه الليلة».

ابتسمت ابتسامة خفيفة. فبلغت غيرتي عنان السماء. لكنّ ابتسامتها كانت باردة كالثلج. كما لو أنّها تريد الآن أن تجيب بسخريتها على سخرية باولو. إنّها مصارعة، هذه الفتاة، فلا تنسَ هذا يا رجل.

«لا أظنّ أنّ الوقت مناسب».

اقتربت كيلّي من باولو والتفّت على ساقه ولربّما خرمشت ربلتها.

«كيف يمكن لهذه القطّة أن توجد في كلّ مكان؟».

فأجابت غريس بجفاء: «هذه هي طبيعة قطط الراغدول».

«أبعديها قليلاً خارج الطريق...».

«شكراً على زيارتك، أنت الذي يجب أن تغادر... الآن».

عاد باولو وطبع على وجهه تلك الابتسامة الملصوقة لصقاً، وقال: «أحقّاً؟»

«أجل، يجب أن تذهب».

«لكنّي...».

رافقت غريس باولو نحو باب البيت، وفتحته. اقترب هو منها ليقبّل وجنتها، لكنّها ابتعدت عنه.

«هل أنت غاضبة إلى هذا الحدّ؟».

«ربّما... اذهب».

«سنلتقي».

حيّاها بحركة متعبة من ذراعه، وهو يحاول أن يداعب كتفها، ثمّ خرج.

فأخذت كيلّي تتواثب بجنون في أنحاء الغرفة.

***

بينما كانت غريس ترافق باولو نحو الباب، بقيت أنا جالساً على طاولة العمل، أحدّق بفضول بتلك الشاشة التي تحتوي على كلمات وليس صوراً.

قرأت من غير أيّ صعوبة. إنّ الأحاسيس التي أودعها سيّد الكون في ظلّي حادّة حقّاً ودقيقة، أكثر من أحاسيس البشر التي تُستهلك سنة بعد سنة.

أقرأ، حتّى لو أنّي لا أفهم كلّ شيء، فإنّي أفهم الجوهر.

غويدو، أودّ أنّك أنت ولابو وأنا[39]
أودّ أن نؤخذ بسحر، وأن
نوضع في زورق يتهادى مع كلّ ريح
عبر البحر كما تشاء أنت وأشاء أنا.

غويدو...لابو...اسما صديقيّ الشاعرين المخلصين لحبّ، إنهما المذكوران في البيت الذي همستُ به في أذن غريس ونحن على كتف النهر، عندما حلّ في خيالي ذلك الزورق الذي يمخر المحيط حسبما أشاء، فعرضت على غريس أن تسافر فيه معي حتّى نصل إلى منابع السحر والحبّ، بحثاً عن ميرلينو في تينتاجيل... لربّما سمعتْني، وفهمت تلك الأبيات، بما أنّها تعرف الإيطاليّة، وتدرسها... وها أنذا أجدها الآن على الشاشة بلغتها الأمّ... لا بدّ أنّ نفساً زكيّة، أو هي نفسها، أو شاعراً من شعراء الحبّ قد ترجمها:

غويدو، أودّ أنّك أنت ولابو وأنا[40].

أقرأ مرّة أخرى، إنّها كلماتي بالفعل. إنّها ليلة المفاجآت هذه الليلة.

تقترب غريس، ولا أبتعد أنا، فإذا جلست إلى الطاولة فإنّها ستجلس فوقي بالذات. ولن تلاحظ شيئاً. ولن أستطيع أنا الإحساس بكتلة شعرها، بكتفيها، بوركيها، لن أستطيع تقبيلها على عنقها، وظنّي أنّ هذا يكفيني.

39- وردت بالإنكليزيّة كما يلي:

Guido, I would that Lapo, thou and I,
Led by some strong enchantment, might ascend A magic ship, whose charmed sails should fly
With winds at will wherever our thoughts might wend. (م)

40- Guido, I would that Lapo, thou and I. (م)

لكنّ غريس لا تجلس إلى الطاولة، بل رفعت عن سطحها الكتاب الذي يحمل صورتي على غلافه وذهبت لتجلس على المقعد، فمدّدت ساقيها على الأرض وخلعت حذاءها، وهي ترتدي الآن صندلاً يظهر جانباً كبيراً من شكل قدميها الناعمتين والمدبّبتين إلى حدّ ما... رغم أنّهما قادرتان على الضرب بقوّة مؤذية... رفعت الكتاب إلى مستوى وجهها وبدأت بالقراءة، انهمكت فيه وأخذت تقرأ بصوت مرتفع:

أيّها الإنسان الكريم الطيّب
الذي جئت لتزورنا في هذا المكان المظلم
نحن من لطّخنا الأرض بالدماء
لو كان سيّد الأكوان يقبل لنا دعاء
لكنّا قد سألناه لك السلام، أنت الذي
أشفقت على ذنوب ارتكبناها

يا إلهي، إنّها فرانشيسكا التي تتكلّم، فرانشيسكا التي أعرفها، ومعها باولو الذي يختلف كلّ الاختلاف عن ذلك الذي خرج بشكل غير مشرّف من هذه الغرفة. فهذا باولو لطيف، كريم، هائم، لم يكن لها بدّ من الهيام به. فرانشيسكا ابنة غويدو دا بولنتا، صاحب مدينة رافينّا، كم من الوقت مرّ من غير أن أفكّر بها:

الحبّ الذي سرعان ما يشعل القلب النبيل
جعل هذا[41] يغرم بجسدي الجميل الذي
انتُزع منّي[42]، ومازال هذا الغرام يلسع قلبي. الحبّ
الذي لا يغفر لمحبوب ألّا يبادل الغرام، برّح
قلبي بحبّه.
وكما ترى فلم يَبْرح حبّه قلبي

41- إشارة إلى عشيقها باولو (م)
42- لأنّها قتلت (م)

تابعت غريس القراءة ببطء، وأرى أنّها تردّدت أمام بعض التعابير. كانت تتوقّف، ثمّ تخطّ بالقلم تحت بعضها، ربّما لأنّها كانت صعبة بالنسبة إليها.

لكنّي أنا هنا الآن، يمكن لي أن أفعل هذا، أن أفسّر لك. ومَنْ أفضلُ منّي؟

ثمّ أسرعت بالتدريج، حتّى إنّ نبرة صوتها كانت ترتفع. وهي كأنّها تمثّل الآن، وتغيّر شكلها، كما لو أنّ لذّة كلذّة الحسّ حلّت محلّ واجب الدراسة. بل يبدو كأنّ لكنتها الإنكليزيّة أخذت تعطي قوّة للكلمات، أكثر ممّا تشوّه لفظها. لهذا جمال يشعّ حلواً جميلاً، يثير المشاعر. يا سيّد الكون اجعل هذه لحظة خالدة، والحمد لك أنّك وهبتها لي:

«كنّا نتسلّى يوماً بالقراءة
نقرأ كيف غلب الحبُّ لانسلوت.
كنّا وحدنا لا يعترينا شكّ بما ينتظرنا».

بينما كانت غريس تقرأ غلبني اضطراب شديد، بيتاً بعد بيت، وكلمة بعد كلمة.

أنا كذلك الآن مع غريس، إنّي أحبّها بجنون على الرغم من أنّي ما زلت ظلّاً. كذلك كنت أنا مرّة أخرى، وبعد فترة طويلة، مع فرانشيسكا، تهيّجني رياح الجحيم العاتية الأبديّة، تلك الرياح التي تجرّأتُ وشعرت بشجاعة آثمة جعلتني أظنّ أنّها ستكون رياحاً لطيفة معي ومعها، وأنّها ستهدأ لتتركنا في أحضان غرامنا.

كنت أصغي إليها. أراها وهي تقرأ رواية تحكي عن غرام لانسلوت والملكة جينيفير، وهي مع صهرها باولو، الجميل كالشمس... وكنت قد عرفته. فهل تعلمين يا غريس أنّه كان حقّاً كذلك؟ كان يختلف بالفعل عن أخيه الأعرج جان شوتّو الذي زوّجوا فرانشيسكا به.

إنّهما وحيدان، لا يعتريهما أيّ شكّ في أن يتمكّن جان شوتّو من مباغتتهما، ولا أنّ عواطفهما الخفيّة في سبيلها لأن تتفجّر. جعلت القراءة وجهيهما يتغطّيان بالشحوب، وجفّفت حلقيهما، ومرّت رعشات خفيفة على الشفاه. ربّما كان هذا حدساً بما سيحدث في الجسمين والنفسين. بل

ها هو ذا يحدث، فأيّ شهوات وأحلام تغلّبت فجأة على الواقع. الواقع الذي يحظر عليهما أن يتحابّا. لأنّ حدوثه سخيف، لا يغتفر. بينما تقول الشهوات والأحلام، التي يتحدّث عنها نثر الرواية التي أمام أعينهما، أنّ غرامهما حقيقيّ وصحيح، وأنّ مقاومته أمر مستحيل. ثمّ بلغ بهما الأمر إلى أنّ لانسلوت قبّل شفتَي جنيفير الضاحكتين. فلم يتمكّنا من المقاومة. فانغمرا في القبل. أمّا جان شوتّو الذي من المؤكّد أنّه لا يحبّ الروايات، فإنّه سيسارع إلى قتلهما هما الاثنين.

احتشدت الأسئلة في رأسي صاخبة. حول فرانشيسكا. حولي أنا بالذات.

لقد عادت فرانشيسكا لتكلّمني من خلالك يا غريس، فجرحتني من جديد، كما جرحتني عندما التقيتها في بداية رحلتي، حالما دخلتُ إلى الجحيم، فجعلتني أنسى كلّ شيء، من فراري من الظلمة الحالكة، وندمي، وعزمي على اتّباع طريق النور وارتفاعي إلى مستوى السماء.

لقد استحوذت فرانشيسكا عليّ، جعلتني أهوى جحيمها، وتلك العواطف التي جاشت في قلبها بلا رادع، والتي أعرف ما هي، تلك الطاعة العمياء لحبّ، السيّد[43]، السيّد الفعليّ لحيواتنا وأقدارنا. لقد أحببت فرانشيسكا في جسدها. أحببتها إلى حدّ أنساني بياتريشه، بكلّ حكمتها وكلّ جمالها الملائكيّ الذي كان بانتظاري هناك في الأعلى في سبيل دخول الجنّة.

فكّرت أنّه إذا كانت فرانشيسكا في الجحيم، فيجب أن أكون فيه أنا أيضاً، وإذا كان الشعر والرواية المسؤولَين الفعليّين عن سقوطها في الخطيئة، فمن هو أجدر بالجحيم منّي؟

وقفت في صفّ فرانشيسكا لأنّي مخلصٌ لحبّ، وهكذا كان سيفعل غويدو بكلّ تأكيد، وهو الذي يعرف أكثر منّي الجروح التي يسبّبها حبّ ولا يهتمّ بشفائها وهو في الطريق نحو السماء. لقد قلبت المفاهيم والأحكام التي تدينها، فليست هي التي تخون، بل جان شوتّو، الزوج القاتل، فليحكم عليه إذاً وليلقَ في أنهار الجليد مع قابيل وكلّ من يقتل أقرباءه، في جليد أبديّ دائم، لأنّه من الجليد قُدّ قلبُه.

43- *Dominus*

إنّ فرانشيسكا وباولو زانيان. هل تسمعينني يا غريس؟ لكنّهما عاشقان قبل كلّ شيء، مثل لانسلوت وجنيفر زوجة آرثر، هل تذكرينه يا غريس، ذلك الذي ولد من زنا أوثر بيندراغون بإرغين... خيانات... سحر... لصوصيّة... إطلاق العنان للحواسّ: هذا هو حبّ، ولا يمكن لأقوى رجل، ولا لملك عظيم، أو فارس شجاع، ولا لأيّ كان أن يفعل أيّ شيء ضدّه.

لهذا فإني وقعت على الأرض كالأموات، بعد أن أنهت فرانشيسكا قصّ حكايتها، وإنّي أسقط الآن أيضاً في نهاية قراءتك، إنّي أقع يا غريس كما يمكن أن يقع ظلّ بلا وزن ولا يشعر بالقوّة التي تدفع الأجسام نحو الأسفل... ومع هذا فإني أقع مضطرب النفس، أصرّ على أسناني، وأقبض يديّ، وأعصر جفنيّ بينما جبهتي على الأرض، والآن أبقى جامداً في مكاني، محطّماً تحت وطأة سؤال مخيف لا أملك جواباً عنه.

لماذا تكلّمت فرانشيسكا...؟ لكنّه عليّ أن أقول: لماذا جعلتُها تتكلّم بكلمات من قصائدي الأولى؟ «الحبّ الذي سرعان ما يشعل القلب النبيل»... كلمات بوسعها أن تكون كلمات غويدو، كلماته بكلّ تأكيد، أو كلمات لابو، أو تشينو، كلمات نستعملها نحن جميعاً المخلصون لحبّ.

لماذا؟ لماذا استدعانا جميعاً وحمّلنا مأساته؟ لا أعرف. لكنّي ما زلت أرتجف أمام هذه الأفكار. ربّما أعلن أنّي شريك له. ربّما أجبرني على القول إنّي لن أخرج أبداً، أبداً من جحيم العواطف.

وهل تبكين الآن أنت أيضاً على فرانشيسكا؟ تبكين من أجلي؟ هذا بكاء طيّب نافع يا غريس.

لقد كنت قاسياً في أشعاري على كثير من الخطأة، كنت أحكم، وأتعجّل في إرسال من ارتكب جرائم رهيبة إلى الجحيم، وأولئك الذين خانوا أقاربهم وجماعتهم، ومن لوّث الكنيسة، عروس المسيح، بجشع من أجل المَال وشهوة السلطة، ومن وضع المال اللعين فوق كلّ شيء، كما يضع الكثيرون اليوم اليورو والدولار واليوان، ذلك كما سمعت أنّ نقودكم تسمّى في هذه الأيّام... بل إنّي أدنت بين كثير من الأموات شخصاً حيّاً، وكتبت أنّ جسده في الأرض، وأنّه يأكل ويشرب وينام ويرتدي الثياب، وأنّه تحت

سلطة شيطان بينما تعاني روحه سلفاً عذاباً رهيباً من عذاب الدرك الأسفل من الجحيم... كان اسمه سير برانكا دوريا، قتل غدراً حمَاهُ صاحبَ اللوغودور كي يتمكّن من الاستيلاء على أملاكه... وقد استخدمتُه ذريعةً كي أنهال على أهل جنوى، وهم رجال مليئون بأبشع العيوب، تجّار لا مجد لهم ولا شرف، كرّسوا حياتهم للتجارة وحسب، لأعمال التجارة وبناء السفن وغارقون على الدوام في تجميع الأموال... هكذا كانوا في زماني، ومن يدري إذا بقوا على ما كانوا عليه.

أولئك كانوا المذنبين الذين كنت أبغضهم. وقدّمتهم بقسوة لا أندم عليها، ولم أشعر يوماً بشيء من الشفقة على أيّ منهم.

لكنّي كنت متساهلاً في الحقيقة مع من أخطأ بسبب الحبّ، فوضعتهم كلّهم، حتّى أكثر الملكات شهوانيّة، من سمير أميس إلى ديدون[44] إلى كليوباترا وإيلينا... ثمّ أخيل وباريس وتريستان، وضعت كلّ هؤلاء في الدرك الأعلى من هاوية الجحيم، وهو أبعد درك عن لوسيفر الشيطان، عن الشرّ المطلق.

أمّا النفوس التي تنتظر رؤية الله والمنهمكة في تطهير ذاتها من خطايا غرامها، مثل غويدو غوينيتزيلّي، معلّمنا نحن الذين نستخدم قوافي حلوة جميلة، وآرنو دانييل... «هذا آرنو يغنّي ويبكي»[45]، أفضل حرفيّ في اللغة الأمّ، ذلك البروفنساليّ الذي لم أسمع عنه منذ قرون... لقد وضعت هؤلاء في أعلى جبال المطهر، وهي الأقرب إلى الله.

فلتسر الأمور كما تشاء، لأنّ سيّد الكون لا بدّ أن ينظر بعين الاعتبار إلى من أخطأ بسبب الحبّ، ذلك حتّى لو أنّه أدانهم إدانة نهائيّة، حتّى لو كان سيخلّصهم بعد أن يطلب منهم أن يدفعوا ثمن خطاياهم بمسّ من النار.

44- عرفت «عليسة» بعدة أسماء بحسب الحضارة التي تكلمت عنها. في الإلياذة سميت «ديدو» وترجمت إلى العربية كـ«ديدون». وديدو ذو أصول فينيقية تعني «الرحالة». كما سميت بـ«إليسار» التي يعتقد أنها كلمة فينيقية مشتقة من كلمة «إليشات». وعرفت بدمج الاسمين: «إليسار ديدون» أي «الرحالة ديدون». كما تسمى إليسار بالثقافة اللبنانية. (م) عن ويكيبديا

45- «Ieu sui Arnaut, que plor e vau cantan»

هل هذا ما كنت أعنيه؟ أن نحبّ على الدوام، أن نبقى مخلصين للملك حبّ حتّى لو كان في هذا ضياعنا. لكن علينا أن نحبّ.

صدّقيني يا غريس. فلا بدّ أن يتفهّم سيّد الكون.

إنّ القصيدة التي تقرئينها تتحدّث عن جميع العواطف، حتّى عن تلك الشنيعة الذميمة الدمويّة العنيفة... فمنها عجنت حياة البشر في هذه الدنيا. لكنّ الحبّ هو النار التي دفّأت كلّ أعمالي ودفّأتني أنا بالذات. وهو كما ترين ما زال لم يغادرني.

ولا حتّى الآن وقد أصبحت ظلّاً.

في هذه الأثناء انتقلت غريس إلى غرفة أخرى صغيرة. فنهضت وحاولت أن أعود ببطء لأكون سيّد نفسي، وتبعتها.

غرفة فيها سرير مفرد ونصف رأسه من خيزران، وسادة منفوخة لونها أحمر أرجوانيّ، وغطاء سرير أبيض، خزانة صغيرة إلى جانب السرير، فضلاً عن خزانة من خشب الجوز مسنودة إلى الجدار.

تبرز على مساحات الجدران التي لا يشغلها أثاث صور كبيرة الأبعاد: أحدها لفتاة ينهمر شعرها كماء النهر من كتفها ويكاد يصل إلى خصرها، شديد السواد، عيناها تائهتان تقريباً في الفضاء، بشرتها داكنة، شفتاها غليظتان، بارزتان، في تعبير من يطلب المساعدة أكثر من الدعوة إلى الحبّ، وقد كتب اسمها بأحرف كبيرة، يبدأ بأحرف آمي... دبليو، إي، نون، سي، أو يو، س...

بدأت غريس بخلع ثيابها.

هل هناك قواعد تتعلّق بالآداب حتّى بالنسبة إلى الظلال؟

هل عليّ أن أغادر، أو أن ألتفت إلى الطرف الآخر؟ أستعرض من جديد الصور المعلّقة على الجدار، أرى في أحدها صورتها وهي في سروال قصير على خلفيّة رصيف مع العديد من السفن الشراعيّة الصغيرة الراسية فيه... ثمّ هي في صورة أخرى تعانق فتاة صغيرة أقصر منها، وأسمن قليلاً، ملابسها ذات ألوان كثيرة، لا بدّ أنّها أختها الصغرى. هناك خلفهما مدفأة رخاميّة كبيرة في غرفة فخمة، ربما كانت في منزلهما في بالتيمور... ثمّ هناك صورة

أكبر تبرز فيها الكاتدرائيّة وبرج الناقوس وحبيبتي معموديّة سان جوفانّي، مصوّرة كلّها في ساعات مشمسة، وملفوفة بضوئها العاجيّ والزمرّديّ: غابة من الرخام، طريق معشوشب نحو السماء.

أبعدت نظري عن الصورة فرأيت أنّ غريس قد أصبحت في السرير. لكنّها لم تستلق عليه بعد. الوسادة الحمراء موضوعة بشكل عمودي، وهي تسند ظهرها عليها. ترتدي فقط قميصاً أبيض يختلط بياضه ببياض غطاء السرير. الأحمر والأبيض، هما لونا الثياب التي ظهرت لي بها بياتريشه في التاسعة ثمّ في الثامنة عشرة من عمرها.

كم سيكون عمر غريس؟ إنّها طالبة، لا بدّ أنّها درست في بعض جامعات بلادها قبل أن تأتي إلى فلورنسا، لا بدّ أنّها فوق العشرين، لكنّها تظهر أنّها أكبر من ذلك ببضع سنين بسبب نضجها وهيئتها الجادّة الحربيّة... إنّها الآن بلا نظّارات، لأنّها تستعملها مثل حاسري البصر لتوضيح الرؤية عن بعد. لا بدّ من مجيء أوفيد ليصف تغيّر الألوان في قزحيّة تين العينين، ليستا الآن خضراوين بل بل هما زرقاوان بزرقة عميقة، مثل البحر عندما يأتي المساء.

اقتحمت القطّة كيلي وذهبت للاستلقاء على السرير بجانبها، واتّكأت برأسها على الوسادة.

غريس مستلقية بعينين مغمضتين، وكأنّها تلخّص في ذهنها أحداث المساء. لم تكن ليلة سهلة عليها أيضاً: اعتقال رجل مشرّد، الهجوم المصدود، المكالمة الهاتفية من أمّها، طرد باولو بحزم شديد، نشوة القراءة أمام كلمات فرانشيسكا، ذلك الشعور الذي تسبّب في سخرية القدر. إحساسها بوجود كائن غريب وصديق يحميها ممّا سبّب سخرية باولو التي لم تتحمّلها. وجود أحد ما يتبعها، ويعهد في نفس الوقت بنفسه إليها. ماذا يمكن أن يكون؟ ربّما كان هذا مجرّد وهم، وتخيّل من خيالاتها.

إنّي متأكّد أنّ غريس تشعر بمختلف الفرضيّات وهي تضطرب في رأسها، وما هاتان الشفتان المتدلّيتان إلّا دليل رغبتها في تثبيتها وتنظيمها.

لم يسبق لأحد على وجه الأرض خلال السبعمئة ليلة الماضية أن شعر ولو من بعيد بوجودي أنا الظلّ.

لقد رأيت آلاف النساء يتجوّلن حول المعموديّة: رأيت في البداية فقط نساء فلورنسا الصفيقات وهنّ يعرضن صدورهّن وأثداءهنّ، كنّ صفيقات، أجل، لكن ليس هناك في العالم نساء مثلهنّ بأثداء مغرية... ثمّ رأيت كثيرات غيرهنّ بعدد يكفي لملء كتالوج لامتناهٍ، من نساء من جميع مناطق إيطاليا، من جميع بلدان أوروبا، من جميع أنحاء الكوكب، لكنّ أيّا منهنّ لم تشكّ أبداً أنّ هناك ظلّاً يراقبها.

كان لا بدّ منها هي، غريس، هذه الفتاة التي لم أفكّر بها لأضيفها إلى دليليّ الفاسق، والتي لم تثر حدّا أدنى من الشهوة في نفسي، والتي أحببتها ولا أعرف ما هو سبب ذلك، وكما لو أنّ على المرء أن يحبّ على الدوام، إلى ما لا نهاية، دون تدخّل إرادته، لأنّ حبّ هو الذي يقول لنا إلى من يجب علينا أن نتّجه بقلوبنا، هو الذي يأمر، ونحن نطيع... كان لا بدّ من غريس حتّى يدرك أحد ما، حتّى عن طريق مجرّد الإحساس، أنّني موجود هنا، غير مرئيّ، بلا صوت، إن لم يكن بصوت داخليّ، ظلّ محكوم عليه بأن يبقى غير مجسّد، وأن يشعر بكلّ خليط العواطف البشريّة.

نظرت إلى غريس التي فتحت عينيها، وأنا في أسفل السرير، أمامها.

التقت نظراتي بنظراتها: وقد شعرت برجفة لأنّها لم تخفض بصرها، ولم تغيّر اتّجاهه. بل بقيت عيناها تنظر مباشرة في عينيّ.

إنّها لا تراني، لكنّ أظنّ أنّ شعورها يتزايد الآن بأنّ هناك أحداً موجوداً في غرفتها بنيّة حسنة، وبمشاعر محبّة. أظنّ ذلك وأريد أن أصدّق ظنّي.

ابتسمت. ابتسامة مضيئة أثارت النشوة في قلبي. فتحت الكتاب الذي يحمل على غلافه صورتي، واستأنفت القراءة:

«إنّ حبّ لا يغفر لمحبوب ألّا يبادل الغرام»

فركت الآن جفنيها بمفاصل يديها. لا بدّ أنّها متعبة. انزلقت كيلّي متدحرجة تحت ملاءة السرير، واستأنفت نومها، ولا يظهر منها من تحت غطاء السرير، إلّا نصف أنفها العاجي، وعليه تلك البقعة الداكنة.

ما زالت غريس تبتسم، تناولت الكتاب الذي بقي مفتوحاً في حضنها، ثمّ

أغلقته. لكن قبل أن تضعه على الخزانة الصغيرة... قبلها، قبّلت غلافه بطرف شفتيها، وبكلّ حلاوة وطلاوة، قبّلت صورتي وأنا في الثوب الأحمر وعلى رأسي تاج الغار.

قبّلتني.

ذلك الذي لم أتخيّله أبداً ولم أرجُه البتّة خلال سبعة قرون، حدث الآن في لحظة واحدة.

لو كان بوسع الظلال أن تذرف الدموع، لكنت قد بكيت. لكنّي أشعر بالانفعال، بل هي أمواج غير مرئيّة من الدموع. مدٌّ بحري مرتفع من دموع تتساقط من عينيّ. ثمّ ينفجر الفرح: يمتزج الفرح أحياناً بهياج الغضب، وقد شعرت به، وأرى زهوراً حمراء تتفتّح بالمئات مع ظهور الشمس، وخيولاً تجري، وسهاماً تنطلق من أقواس غير مرئيّة، وصفيراً كرياح تهبّ من النجوم.

سقطت جاثياً على ركبتيّ. أنتشي فرحاً وأضمّ يديّ وأنا أصلّي.

لكنّ البهجة التي أثارتها تلك القبلة، أعطت مكانها فجأة لشعور بالفراغ والضياع. هكذا هي مشاعر البشر، بل مشاعر الظلال أيضاً، تنتقل من نقيض إلى نقيض آخر، وتتشابك وتتناقض مع بعضها البعض، فهي نار ورماد، رياح وغبار، ورود وروث.

أرى أنّ حياتي كظلّ ستنتهي الآن، ذلك كما جاء في عهدي مع سيّد الكون، وأنّي سأعود إلى الأعلى، إلى الخلود والنور.

لكنّي أدرك أنّي لا أريد ذلك.

إلهي، ما أصعب أن أقول هذا، كيف يمكن لي أن أجد كلاماً أقوله ولا إساءة فيه، أقوله ولا أفقد رحمتك التي أنقذتني. هل تفهم؟

أستميحك المغفرة... أطلب معذرتك... إنّي لا أعرف ماذا أقول، من المؤكّد أنّك تفهم، فأنت تعرف خفايا أعماق قلوبنا... لكنّني أنا الآن بخير هنا، لأوّل مرّة، بعد سبعمئة ليلة. أنا بخير في وضعي كظلّ، في المنتصف بين الخلود والزمان، بين السماء وهذا الأصيص الذي يجعلنا شرسين، الذي يدعى الأرض. بين اللارؤية التي تخفيني والحساسيّة التي تجعلني أشعر بالألم والسعادة، خالصين...

لأوّل مرّة أنا بخير كما أنا. يمكن لي أن أحبّ، وأنا محبوب. لقد جعلت تلك القبلة فمي يرتجف بحلاوتها. وعاد حبّ ليكون سيّدي من جديد.

إنّ بياتريشه هي هناك في الأعلى، في مملكة تشعر الملائكة فيها بالسلام. أعرف أنّه عليّ أن أعود أنا أيضاً إلى هناك. لكنّ غريس موجودة هنا. وهي الآن نائمة. وأنا لا أشعر بالسلام. لأنّ قلبي يتعذّب في صدري من أجلها، أنا في غرام، في لوف، كما قد تقول في لغتها هذه الصبيّة الأجنبيّة. عاشق. لقد دخلت متهوّراً، متدحرجاً، في مملكة حبّ، بكلّ مآزقه وملذّاته، عاجزاً عن أن أقول كفى.

لقد انتصرت، ولقد أضعت نفسي. لأنّي أعرف الآن أنّي لا أريد أن أعود إلى هناك في الأعلى.

اتركني يا إلهي كما أنا، يا سيّد الكون، إلى جانب هذه الصبيّة الأجنبيّة النائمة، لأحبّها كما يتسنّى لظلّ عاشق أن يحبّ.

***

نحن ثلاثة في سرير مفرد زائد نصف، تحت ملاءة وغطاء سرير أبيض. تشجّعت وتسلّلت أنا أيضاً، كما فعلت القطّة كيلّي، بطريقة تكاد تكون غير محسوسة.

إنّ حبيبتي نائمة. أمّا القطّة، ويا لها من رائعة هي أيضاً، فقد أصدرت خريراً خفيفاً، ربّما بسبب مسرّتها، عندما انزلقت تحت الملاءة، في الجهة المقابلة لجهتها.

لا أشعر بالحرّ هنا، وأنا مغلق في هذا السرير... لم يحدث لي أن رأيت سريراً منذ قرون وأن دخلت فيه... عليّ أن أكون على وعيٍ بهذا... لا أستطيع أن أقبّل... ذلك النمش الصغير، بودّي أن أقبّله نمشة نمشة... ولا أستطيع أن أداعب وجه غريس، والنوم يضفي عليه جمالاً جديداً، بريئاً، بلا زمان، وعيناها مغمضتان في نوع من الصفاء يضيء كلّ شيء فيه، من جبهتها إلى ذقنها.

لا تستطيع أن تعرف مقدار الروحانيّة الموجود في ملامح وجه امرأة إلّا عندما تتأمّلها وهي نائمة. وملامح غريس تامّة مثاليّة. يتكتّل شعرها على

الوسادة، فيظهر فيه شيء حيوانيّ يحملني على التفكير في الثعلب والسنجاب والمخلوقات الرشيقة والماكرة الأخرى. فأشعر بالرغبة في مداعبة شعرها. في تقبيله. لكنّه لا يمكنني إلّا شمّ رائحته، وهذا ممّا يزيد من رغبتي في لمسه بأطراف أصابعي وبشفتيّ.

لكن لا. أنا لا أستطيع ذلك، وعليّ أن أتذكّر ذلك.

أقترب من جسم غريس، أعانقها من جهة، فأجد نفسي على الجهة الأخرى. لقد عبرتها دون أن تشعر بأدنى ضغط... فللظلال موهبة أو لعنةُ النفاذيّة... مررت خلالها كما أمرّ عبر أيّ جدار، عبر أيّ حاجز من أيّ مادّة أو طبيعة. ولا يمكنني الاستمتاع بأيّ اتصال، ولا أشعر بأيّ دفء. ومع ذلك، فإنّي أشعر بالارتباك الشديد من رغبتي بغريس، وبالاضطراب من ذكرى قبلة غريس لصورتي على غلاف الكتاب. لقد علّمتني هذه القبلة أنّها تبادلني الحبّ، بطريقة مليئة وغريبة مثل كلّ ما يأتي بسبب السحر.

يزداد اضطرابي عند سماع كيلي وهي تخرخر. من يدري ما الذي يمرّ عبر رأس القطة وهي كذلك، إذا عرف المرء هذا الأمر فإنّه ربّما يقترب، وهو يصعد إلى السماء، من أفكار سيّد الكون. أتقلّب على ظهري كما تفعل هي، أدفع ذراعيّ إلى الأعلى، أسحب ساقيّ، أضع الواحدة فوق الأخرى، أطويهما. إنّي في هيجان لا يترك على الملاءة أقلّ ثنية، ولا يثير لدى غريس أيّ حركة.

إنّي أريدها هكذا. برغبة خالصة غير مادّيّة، بلا أيّ أمل في المتعة. وكنت قد قلت في كثير من الأحيان إنّ الظلال لا تبكي. ناهيك بأنّها لا تُمْني.

بقيت جامداً الآن أقف بلا حراك، رقبتي مثبّتة على الوسادة لا تترك تحتها أثراً ولا تحدث تجويفاً، وعيناي متوجّهتان نحو السقف فاكتشفتا شبكة رقيقة شكّلتها انعكاسات أضواء قادمة من مصباح ما، في الشارع.

يا سيّد الكون، برحمتك الواسعة بلا نهاية، أعطني جسداً، أعد إليّ لحمي ودمي وغضاريفي، انشز عظامي، لترجع أحاسيسي سليمة، لا أطلب غير ذلك، حتّى لو كان جسداً متهالكاً وهرماً، بكلّ أمراضه وقبحه، على أن يكون جسداً: جسداً يشعر بحرارة النار وبرودة الماء، يمكنه أن يحتضن ويعانق

ويقبّل جسداً آخر، ويشعر بعذاب الشهوة قبل أن يشبعها... ثوباً من لحم، مهما كان هذا الثوب، كما تختاره... أعطني جسداً ولو كان جسد قطّة كهذه، لأنّها هي أيضاً أفضل منّي بجانب سيّدتها، تشعر بحرارتها، يمكن لها أن تفرك جسمها بجسمها، تخدشه بلطف، كما بودّي أن أفعل أنا أيضاً، لكن دون جدوى... دعني أشعر من جديد بزوبعة المتعة، الرطبة، العمياء، التي تجعل الجسد يسقط بعد بلوغ الذروة كما تسقط جثّة الميّت، فينهار في الشبع وينام...

لكنّ هذا كثير. أدركت ذلك في الحال. فثارت حفيظتي. وأشعر بالرجفان. هذا كثير. فهل يمكن لي أن أمحو دعائي؟

لقد أخطأت، يا سيّد الكون، اغفر لي. إنّك لا تسمعني، هل هذا صحيح؟ وليس لديك آذان تستمع بها إلى الظلال. وما طلبته منك كان عبثاً، مستحيلاً. لا يمكن الغشّ بالأوراق معك. والتحسّر على الجسد، ضعفٌ وجنونٌ تشعر الروح بهما. أعرف أنّك تنتظرني في علاك، وأنّه من الصواب أن أرجع إلى الأبديّة.

لقد اضطربت نفسي بسبب هذا التعاقب السريع في المشاعر. فقبل لحظة كنت أبتهل كي يكون لي جسد من لحم وعظم، بينما أبتهل الآن كي ينسى ربّي ذلك الابتهال.

خطأ. جنون سابق. لم تكن إهانة لسيّد الكون، بل إهانة لعقلي، الذي طالما كنت أفتخر به: فكيف يمكن لي أن أظنّ أنّني قادر على ترتيب خطط الله ونكثها بهذه الطريقة؟

عندما تقع في الحبّ ويكون هذا الحبّ مشتركاً...

لقد حدث هذا. فكفى. لقد حان الوقت للعودة إلى الفردوس. لترى من جديد الجمال في منتهاه.

لن أتحسّر في العلا على حياة الظلّ التي عشتها، لكن كيف لي ألّا أتحسّر على غريس، وحبّي المستحيل الرائع لها؟

مرّت لحظات. صمت مطلق، عميق، كالصمت عندما تخرس أوتار العود في توقّف قبل استئناف العزف.

أدركت أنّه عليّ الخروج من ذلك السرير. نهضت، فشعرت أنّي أترنّح على ساقيّ، وأنظر حولي باضطراب.

لقد أراد سيّد الكون أن يمتحنني امتحاناً صعباً بالفعل. ربّما انتهى هذا الامتحان. إنّي واقف بجانب السرير، أنظر إلى غريس وهي نائمة، أودّ أن أردّ غطاء السرير على كتفيها المكشوفتين.

لكنّي لا أستطيع حتّى أن أفعل هذا.

أرى من خلال مصاريع النافذة المواربة أنّ الظلام أخذ يترك مكانه إلى ذلك الوضع الوسيط الغامض الذي يبشّر بالفجر، ليس هو ظلاماً كاملاً لكنّه لم يصبح بعد ضياء.

نسيت، في خضمّ فوضى هذه الليلة، موعدي مع الفجر. فوضعي كظلّ سيستمرّ حتى ذلك الحين فقط.

من الأفضل لي أن أنصرف الآن. أن أعود إلى الهواء الطلق. فربّما كان على رحلتي نحو الفردوس أن تبدأ في الهواء الطلق، في محيط المعموديّة، وهي سرّتي في هذا العالم.

تشاو غريس، وداعاً، لم أوفك حقّك أبداً لما فعلتِه من أجلي. وسأبتهل سيّد الكون من أجلك، وتأكّدي أنّي أحبّك. كان أسيراً كتابي، ولن ننقطع عن حبّك:

سبعون هنّ الملكات، وثمانون هنّ الوصيفات،

...

لكنّ حمامتي، الكاملة بينهنّ، هي واحدة.

تلك الحمامة هي أنت يا غريس، وداعاً.

أسرعت نحو الباب. لكنّ كيلّي تبعتني قبل أن أجتاز العتبة. لقد استيقظت، وذهبت لتقف على باب المدخل، عيناها بلون أزرق معدنّي، تحملقان فيّ، على خطمها تعبير مضحك وحزين في الوقت نفسه: ولا أعرف إذا كانت قد وقفت هناك لتمنعني من الخروج أو لتودّعني كما يجب، بذلك النوع من

المحبّة المشبعة باللامبالاة والكبرياء التي لا يتّصف بها إلّا القطط. تشاو كيلّي، لو كنت قادراً لغمزتها وأنا أخرج.

ها أنذا في الطريق، بين أزقّة متشابكة، وأنا أسرع نحو المعموديّة. رفعت بصري نحو السماء بعدما انكشف تشابك الأزقة، حتّى لا أتفاجأ بطلوع الضوء: سوف يستغرق أوّل شعاع من أشعّة الفجر وقتاً أطول بعض الشيء قبل أن يشرق. كما لا يزال القمر جميلاً بلونه الفضّيّ، وكوكب الزهرة ما زال يضيء.

إنّ خطوات الظلّ طويلة وخفيفة، ويمكن لي أن أجري من غير أن أشعر بثقل في ربلتي ساقيّ وتعثّر أنفاسي. أرى برج الناقوس يرتفع أمامي، هذا هو الاتّجاه إذاً، دقيقة وأصل، إلى بنائي الرائع، بناء سان جوفانّي.

هناك أحد ما يستلقي في المكان الذي أجلس فيه عادة. عرفت في الحال من هو: إنّه المشرّد الأشقر ذو الشعر المضفور في جدائل صغيرة كثيرة، لم تسجنه الشرطة، لم يسرق علب البيرة. لم يكن يصدّق بهذا إلّا ذلك التاجر المجنون.

شعرت بالسرور لرؤيته هناك. لا بدّ أنّ غريس ستكون مسرورة أيضاً. إنّه ملفوف بغطاء لا بدّ أنّ لونه كان عاجيّاً، لكنّه الآن بلون الأرض. سلّته بجانبه، فيه بضع علب بيرة... لكنّي أودّ أن أعرف من أين يأتي بها، فكلّ شيء مغلق، حتّى البارات التي تتأخّر في الإغلاق... بالإضافة إلى ذلك الكتاب الذي ما رأيته إلّا مغلّفاً بورق الجرائد.

جلست بالقرب منه. انتظرت. إنّها مسألة دقائق وأودّع كلّ هذا. سأقطع بالتأكيد حبل السرّة الذي يربطني بالمعموديّة، بفلورنسا، بحياتي كظلّ.

مع أنّ الشابّ المشرّد يبدو نائماً، إلّا أنّه مستيقظ. يتمدّد، يفرك عينيه بأصابعه، ثمّ يشرب مباشرة رشفة من البيرة.

يَسعل ليصفّي حلقه. ثمّ ينهض، يدمدم بأغنية وهو يرفع بنطاله ثمّ يبتعد، حتماً كي يبوّل.

عندما عاد بعد دقيقة جلس قربي، إلى جانبي بالضبط.

«لقد سارت الأمور معك كما يجب في هذه الليلة...».

التفتّ برأسي إلى هنا وهناك. فمن تراه يخاطب؟ لقد رأيته وسمعته بالفعل، هو الذي تكلّم، لكنّه لا يوجد أحد هنا.

«أكلّمك أنت! وأشار إليّ بسبّابته».

إصبعه طويلة، بأظافر لا تكاد ترى، هذا لا يدع مجالاً للشكّ، فهو يخاطبني.

لن تنقطع هذه الليلة عن إثارة اضطرابي.

فصحت: «كيف؟...».

«اطمئنّ، إنّي أتكلّم لغتك، كما أنّي أتكلّم كلّ اللغات الأخرى إذا شئت، يجب أن تفهم كلامي إذاً».

«فهمت معنى كلامك، لكنّي لم أفهم شيئاً من كلّ ما تبقّى. فهل أنت تراني؟ هل تراني حقّاً؟ وكيف لك هذا؟».

«هذا ما لا أعرفه أنا أيضاً، لكنّني أراك».

«كيف بأيّ شكل؟».

يسعل من جديد قبل أن يجيبني، يبصق شيئاً من البلغم في منديل من ورق.

«كنت أراك على الدوام. كما سمعتك أيضاً، سمعتك من قبل عندما سألتني كيف انمسخت إلى هذه الحال وانسحقت مثل التين الفاسد... هذا ما قلته تماماً... إذا كان ذلك بسبب امرأة، إذا كان بسبب الحبّ، هل تذكر، قلت إن الحبّ مجبول من ورد ومن خراء... لقد أثرت ضحكي. لأنّي لم أتوقّع منك مثل هذا الكلام. إذا أردت أن تعرف فإنّي أراك الآن رجلاً عجوزاً، منحني القامة بعض الشيء، وجهك عريض وأنفك معقوف، وعيناك واسعتان، وشفتك السفليّة بارزة، وشعرك كثيف أجعد، بقي سواده لمدّة أطول من شعر لحيتك التي أصبحت رماديّة ومتناثرة الشعر، وعباءتك حمراء، كانت حمراء، مليئة ببقع بلون الوحل وبأوراق شجر جافّة».

«وهل تعرف من أنا؟».

ثمّ صححت كلامي: «من كنت؟».

«أعرف ذلك طبعاً».

«هل أنت متأكّد؟».

«اطمئنّ، اسمك دانتي، أنت الشاعر».

قال ما قال ثمّ تناول الكتاب من سلّته ونزع عنه الغلاف المصنوع من ورق الجرائد، فظهرت صورتي، إنّه الكتاب نفسه الذي كانت تقرؤه غريس.

قال لي وهو يبتسم: «ثوبك هنا أشدّ حمرة، لا بقع عليه، وعلى رأسك تاج من الغار». صوته لا لكنة فيه، وهو ليس صوت أرضيَ الفخم والمجرس ولا صوت لغة غريس المجرجر الصادر عن الأنف.

«وكيف لك أن تراني وأن تعرفني؟».

ضحك ضحكة رنّانة وهو يعرض عليّ غلاف الكتاب.

«أعني: كيف لك أن تكلّم ظلّاً؟ من أنت؟ من أين أتيت؟».

رفع المشرّد ذراعه الطويلة نحو السماء، نحو الاتّجاه الذي تبرق فيه الزهرة بالذات.

«من هناك».

«من السماء؟».

«من الفردوس يا أخي، من الفردوس».

حاولت أن أمسك ذراعه. لا فائدة. فلا يمكن ليدي أن تمسك شيئاً، هذا ما كان يؤرقني منذ سبعمئة ليلة.

سألته: «وهل تسخر منّي؟».

فأجاب: «لا، لا تتفوّه بهراء».

سحب من سلّته علبة زرقاء أصغر من راحة اليد، وأخذ منها أسطوانة ورقيّة أصغر من الإصبع، رفعها نحو فمه وأشعلها بعود ثقاب: فخرجت في ثانية غيمة رماديّة وزرقاء من فمه.

«يجب ألّا أفعل هذا بسبب السعال الذي أعاني منه».

«من أنت حقّاً؟».

«أنت لا تستطيع أن تلمسني لكن بوسعك أن تراني بالفعل».

«لكن لماذا أنت هنا؟».

«لأنّي أخطأت».

أصدر من فمه خواتم دخان مرتعشة كثيرة، ونظر إليها وهي تصعد نحو السماء، ثمّ أردف:

«كنت أعيش هناك في العلى قرب جبريل وميكائيل. اسمي آرييل. كنت سعيداً بالفعل. ولا أعرف لماذا فعلت ذلك، لا شيء يفسّر فعلتي...».

«عن ماذا تتحدّث؟».

«عن خطئي. عندما قلت لسيّد الكون إنّي أرغب أن أجرّب كيف يعيش الناس على الأرض، كيف يعيش المرء بثوب الجسد، فنظر إليّ... هل تعلم تلك الابتسامة التي لا يمكن تفسيرها والتي تنطوي على ألف ابتسامة وابتسامة... ثمّ أجابني ولا أعلم إذا كان جواب تسامح أم سخرية: حسناً، جرّب. من حينها وأنا هنا، فقيراً، مشرّداً، محتقراً، الأخير بين البشر، وقد عرفت أخيراً كم هي في الواقع قذرة حياة البشر... وهي تزداد سوءاً، خاصّة بعد الذي حدث في السنة السابقة، هنيئاً لك لأنّك لم تبق هنا إلّا ليلة واحدة، ولم يتسنّ لك أن تعرف كم من الأشخاص وضعوا في وحدات العناية المركّزة، وعدد الذين ماتوا وحيدين كالكلاب، وعدد من رأى كلّ ما بناه قد تهدّم وذهب هباء. أمّا أنا فقد عرفت. أمضيت هنا أسابيع من الجحيم، يعصرني حلقي من شدّة الألم، كما أصابني سعال بلغميّ لم يفارقني حتّى اليوم، وعانيت من برد نخر عظامي، ومن الجوع والعطش، كنت أتجوّل في مدينة لعينة مقفرة كما لو أنّ جحافل غير مرئيّة قد هاجمتها بأوامر من ميخائيل الملاك العظيم، أو أنّ الشيطان سيّد العدم قد استولى على مقاليد الأمور فيها... أمّا في الليل فكنت ألتجئ إلى هذا المكان، وأختبئ تحت الغطاء كي لا يتمكّن أحد من رؤيتي. وكنت أتساءل، وأنا أعصر قبضتي من شدّة الغضب لماذا أردت أن أجرّب شعور البشر تحت جسد من اللحم، ولماذا ارتكبت هذا الجنون، هذا الهراء، وفيما إذا كانت الحمّى هي التي تجعلني أرتعد، إذا كان ذلك الفيروس هو الذي يقطع أنفاسي، فيما إذا كنت قد فقدت بشكل كامل وضع الخلود كي أشارك مصير البشر حقّ المشاركة».

تذكّرت فجأة أنّي كنت قد رأيته في العام السابق وهو يتكلّم مع غريس، وأنّي رأيت غريس قبل ساعات وهي تدافع عنه أمام الشرطة...

عليّ أن أسأله عن هذا، وقد فعلت وأنا أرتجف: «إذاً غريس جاءت من العلى أيضاً؟».

فضحك وقال: «لا، لا، غريس هي امرأة من الأرض، لكنّ قلبها مفعم بالرحمة على البؤساء، وهي تحبّ العدل والجمال، بل إنّ هذا الكتاب الذي أقرؤه، كتابك، هو هديّة منها».

«فليباركها سيّد الكون، وليباركك أنت أيضاً يا أخي»، ثمّ سألته: «وهل سيمكن لك أن تعود إلى السماء؟».

فأجابني وهو يخفض رأسه: «لا أعرف. من يطلب ثوب الجسد عليه ربّما أن يرتديه إلى نهاية الزمان».

هزّتني رعشة قويّة. لقد توجّهت بطلب تلك الليلة. قلت إنّي سأرضى حتّى بفراء قطّة وخطمها، إذا كان هذا يعيد لي جسدي وكلّ حواسّي. أجل لقد توجّهت بدعاء التجديف هذا إلى سيّد الكون. لقد محوته في الحال، هذا صحيح. لكن ماذا لو أنّه أصغى إلي واستجاب دعائي؟

أنا لست ملاكاً ولا شيطاناً، لست إلّا ظلّاً، لكن ماذا لو سمعني؟

«قدّوس، قدّوس، قدّوس الربّ إله الكون...». أرى أن آريله يبتهل معي رغم أنّه يواصل التدخين: «قدّوس، قدّوس، قدّوس الربّ إله الكون، السماوات والأرض تسبّح بمجدك...».

سألته: «هل اليوم هو يوم الجمعة العظيمة؟»، فهو يعيش هنا ويعرف تقويم البشر.

فأجاب: «اطمئنّ... للتوّ انقضى يومُ الخميس الخامس والعشرون. قريباً سيكون يوم الجمعة العظيمة...».

أطفأ سيجارته بكلّ عناية وسحقها فوق الرصيف، ثمّ سلك عقبها في جَيب قميصه.

«لكن هل سيسود الشرّ دائماً في الأرض؟».

فقال لي وهو يبتسم: «لقد قام المسيح. ولن يسود الشرّ». ثمّ سعل وكرّر: «لا، عالم لعين، لن ينتصر».

«صحيح. لكن كم بودّي أن ينتهي الآن هذا الترحال من السماء إلى الأرض ومن الأرض إلى السماء».

ثنى ذراعه وأغلق قبضته ورفع إبهامه.

أيّ نهاية تنتظرني؟ فكّرت وأنا أنظر إليه. لم يبق أمامي بالفعل إلّا قليلٌ من الوقت: فضوء القمر ونجم الزهرة بدأ يخفت ببطء، وسأعرف الجواب عمّا قريب.

هل سأبقى على الأرض مثل آرييله إلى نهاية الزمان؟ ومن يمرّ في نواحي المعموديّة من الآن فصاعداً ألن يرى فيّ إلّا مشرّداً بشعر أجعد ولحية غير كثيفة وعينين واسعتين برّاقتين وشفة سفلى بارزة، يرتدي أسمالاً بالية ولا يطلب الصدقة؟ ألن يرى أحد فيّ أبداً الشاعر الذي خدم حبّ وجاء من الحيرة والشرور ومن الغموض ليفكّر في أسرار وجه الله. مع أنّي سأسافر في أوّل لحظة تلمس فيها أشعّة الشمس رخام المعموديّة، وسأستعيد، خلال مليار مليار من اللحظة، وإلى الأبد مكاني في الفردوس؟

فتح آرييله، الجالس بجواري، الكتاب على الأبيات الأخيرة بالذات من قصيدتي، وقرأ:

لكن لم تكن لي أجنحة قادرة
على أن تطير بي وتسمو، لولا أن هزّ
عقلي ضياءٌ حقّق رجاءَه
لكنّ الخيال الشطّاح نبا
بينما تحرّكت رغباتي وإرادتي
مثل عجلة تدور بحركة متجانسة
يدفعها اللهُ، الحبُّ
الذي يحرّك الشمس وغيرها من النجوم.

وأنهى آرييله كلامه وهو يغمز بنوع من الإعجاب: «لقد قمت برحلة طويلة رائعة».

بدأ الضوء يصل، والمعجزة تتجدّد. المعموديّة تدور الآن حول نفسها، واتّخذت الجدران ذات الأضلاع المثمّنة شكلاً دائريّاً في عيني، انتفخ وأضاء ببطء من الداخل حتّى بدا كأنّه دائرة من الزمرّد.

وداعاً أنت أيضاً يا من استمعت إليّ. لم يذهب توجّهي إليك دون جدوى، أليس كذلك؟

سأعرف بعد دقيقة فيما إذا كنت سأنال جسداً من لحم وعظم فأبقى مثل آريبله بين بؤساء الأرض، فتأتي غريس، بورك اسمها، لتحمل إليّ أنا أيضاً كتاباً وبعض الطعام... أو أنّي سأرجع روحاً في النور.

لكن من المؤكّد أنّي أعرف هذا، أنّ وضعي كظلّ قد انتهى، وأن العاشق سيعيش إلى الأبد.

دانتي لي تجلّى

ظهر دانتي وتجلّى أمامي. وهذا ما قاله لي

• فيكتور هوغو، *رؤية عن دانتي*

في «*أسطورة القرون*»[46]

العشق يعني خلق دين إلهه خطّاء

• جورجي لويس بورجز،

تسع مقالات عن دانتي[47]

سبعون ملكة، ثمانون وصيفة،

لا يمكن تعداد صبايا النساء،

لكنّ حمامتي، الكاملة بين النساء، فريدة لا ثانية لها.

• سليمان، نشيد الإنشاد

يقول التقليد: الله العليّ جميل، ويحبّ الجمال

• شهاب الدين يحيى سهروردي، موجز عن مؤمني الهوى[48]

46- VICTOR HUGO, *La Vision de Dante* in *La Légende des siècles*

47- *JORGE LUIS BORGES, Nove saggi danteschi*

48- *Vademecum of the Faithful of Love*

-1-

افسحوا للحبّ مجالاً

«ظهر دانتى وتجلّى أمامي. وهذا ما قاله لي»، بهذا افتتح فيكتور هوغو، سيّد السرد اللانهائيّ الغريب، والذي تمّ اكتشافه من جديد بعد نسيان طويل في القرن العشرين، افتتح قصيدة «رؤية عن دانتى» في كتابه الضخم «أسطورة القرون».

أرجو ألّا يبدو لك هذا مبالغة أو جنوناً، فأنا قزم تسلق على أكتاف عملاق، أريد دونما تردّد ولا مواربة أن أهمس في أذنك تلك الكلمات نفسها، البسيطة والمباشرة: لقد رأيت شبح دانتى وظلّه، وقد قرأت أنت ما أخبرني به.

ففي شباط من سنة 2020، أي في آخر الأيّام الصافية الطلقة التي عشناها في هذه المرحلة من وجودنا، كنت موجوداً في مدينة ميلانو التي كانت، ويا للغرابة، مرحة منيرة وعموديّة، يعبرها أنهار من البشر، ويقف بعضهم بالطوابير ليدخلوا إلى الكاتدرائيّة أو حتّى إلى مقهى سلسلة شهيرة من المقاهي في ساحة كوردوسيو، كما كانت المطاعم مزدحمة بشكل أنّي اضطررت في إحدى الأمسيات، أنا وصديق لي، ممّن يختارون دائماً الأماكن الأنيقة، أن نتجنّب بالكاد جسم فتاة، رغم أنّها كانت جميلة بالفعل، حين كادت تنقلب علينا وهي تتراجع إلى الوراء نحو طاولتنا، بينما كانت تبحث عن أفضل لقطة لتصوير رفاقها في الطاولة القريبة.

كنت قد قبلت بكلّ سرور دعوة الناشر الذي أتعامل معه... وهو أكثر من

ناشر بالنسبة إليّ... كي أكتب شيئاً على شرف دانتي بمناسبة مرور سبعمئة سنة على موته.

فكّرت فيما قد يُكتب في تمجيد هذه الذكرى من كتابات رفيعة المستوى وجادّة، وهنا عادت إلى ذهني فكرة كانت بالكاد قد داعبت مخيّلتي: أن أحكي عن دانتي المخلص للهوى وهو يبحر مع اثنين من أصدقائه وثلاث صديقات على متن زورق ميرلينو المسحور، دانتي الذي يخون بياتريشه، ولا يخفي عواطفه الجسديّة الدنيئة تجاه بعض النساء، والذي يبرّئ فرانشيسكا وهي في الجحيم من فعل الزنا، ثمّ يجد في نهاية المطاف، تلك، بياتريشه، ويتّخذها دليلاً له نحو الفردوس الأعلى، إلى الله، وهو الحبّ.

لكنّ كلّ شيء تغيّر في آذار، وخلال أيّام قليلة جدّاً. وهكذا فقد أرجعتني إلى بيتي، في الريفييرا، هجمة الوباء التي جاءت عمياء على حين غفلة، وأعنف ممّا كان بوسع أحدنا أن يتخيّله.

عشت وقتها محصّناً، مختبئاً، لا أجرؤ على دسّ أنفي خارج البيت. وأعترف أنّي استسلمت وكنت مضطرب النفس، فريسة لآلاف من المخاوف ومشاعر القلق: وكانت كلّ ضربة سعال وكلّ تعثّر في التنفّس يحملانني على التفكير بما هو أسوأ.

لم أكن أخرج حتّى إلى الشرفة، خشية أنّ تعرّض حلقي للهواء قد يرفع حرارتي ببضع درجات. كنت أغسل يديّ وأفركهما وأشابك أصابع كلّ يد بأصابع الأخرى، خمسين مرّة على أقلّ تقدير كلّ يوم.

كان هذا أقلّ ما يمكن أن يفعله شخص متشائم بشكل مزمن، يتجوّل دائماً وحقيبة الأدوية في يده.

لكنّه كان عليّ أن أعمل. رغم أنّ العالم حولي بدأ ينهار فجأة وأنّ الشوارع المحيطة بمكان سكني قد تكنّست وتكدّرت كما لو أنّ غيوماً من رِماد قد غطّتها أو أنّ أجنحة ملك الموت قد حلّقت فوقها.

كنت مسجوناً في البيت، لا بل في مكتبي الصغير، وهو عبارة عن مغارة محتشدة بالكتب فلا موطئ قدم فيه بينها، وكذلك بالكمبيوترات والدفاتر والمغلّفات والطرود، وكانت المرأة التي تتعهّد تنظيفه تسمو به وتسمّيه «مكتباً»، وهنا كان عليّ أن أجد طريقة تساعدني على البدء بالكتابة.

في مثل هذه الظروف ظهر أمامي الشبح. في الأيّام التي كان الواقع بالذات يتّخذ فيه معالم الشبح.

كنت أعيش جالساً على كرسيّ الدوّار بين طاولتين، مزدحمتين بأنواع شتّى من الأشياء، بينها صور لاري، وتمثال صغير من الصندل للإله شيفا، وشجيرة خلنج لا تذبل أبداً، كلّ هذا ضمن أمتار مربّعة قليلة، والمنظر الوحيد أراه من خلال نافذة كبيرة تطلّ على شجرة صنوبر ضخمة وشجرة فلفل بأوراقها التي تهتزّ عند أقل نسمة هواء.

ابتعدت عن كلّ عاداتي في السفر والمشي ومحاذاة ساحل البحر، والذهاب إلى الأماكن العامّة. فلا تدهش إذا رأيت أنّي قد بدأت لا أشعر بجسدي، ولم أعد أمتلك السيطرة على ما يحيط بي، وأنّني لست أكثر من عقل وروح وخيال.

لم يمرّ عليّ اعتدال ربيعيّ كهذا أبـداً. وكان هذا أوّل اعتدال بعد فقدان أمّي.

أمّا أخي، الذي كان يتألّم مثلي، فكنت لا أراه إلّا على شاشة هاتفي الذكيّ خلال مكالمات الفيديو، لكنّ أصدقائي كنت أراهم على شاشة الكمبيوتر عن طريق سكايب أو زوم، بينما كانت ماريّا روزا تطلّ على باب المكتب عندما تعود من جولة مشترياتها القليلة، وهي ملفوفة الوجه بمنديل ملوّن يغطّي فمها وأنفها، ذلك أنّ العثور على كمّامة كان أصعب من العثور على مشروب مذهّب. كانت تبدو بألوانها الكثيرة وشعرها المهيمن على وجهها، وخفّتها، وكأنها عفريت، كأنّها كائن غير محسوس على الإطلاق.

لكنّي كنت أقرأ وأعيد قراءة صفحات من دانتي وعن دانتي. وكنت قد كتبت لتوّي مقدّمة من تسع كلمات أساسيّة لـ «الفردوس». كانت بعض الصور ترافقني خلال النوم، بعد أن أعيد قراءتها في منتصف الليل، وتحتشد في ذهني المليء بعلم الكونيّات ونشأة الكون، وبِكُراتٍ ضوئيّة تدور طاغيةً وتُحدث تأثيرات تشبه تأثيرات المشكال، أو بعد تناول جمض الليسرجيك. ممّا يخلق ظروفاً مواتية للرؤى والتخيّلات.

فتحت أجمل قصّة كتبت في الأدب الإيطاليّ. قصّة فرانشيسكو دي

سانتيس، ووجدت في الصفحات التي كتبها عن دانتى الشابّ وكتابه «الحياة الجديدة» ما رآه من أنّ «ابن الخيال هو الشبح».

وهكذا فإنّ شبح دانتى، الذي سمّيته بعد ذلك «الظلّ»، أخذ يتكوّن أكثر فأكثر في ذهني، وبدأ صوته يتّخذ نغمة متّسقة مع بؤسنا ومآسينا، فكان يتكلّم ويحكي: في ساعات وساعات من العزلة والكتابة لم يعد يختلف واقعي عن حكايته، التي أخذت في هذه الأثناء أنقلها على شكل صفوف غير منتظمة من النمل الأسود، ذلك كما تظهر الأحرف على شاشة الكمبيوتر.

كان ظلّ دانتى يجمع كلّ ظلالي الأخرى. كلّ ذلك التناقض بين الظلام والضوء الذي كنت أشعر بصورة متزايدة بوجوده في داخلي كما في الواقع. كان ظلّه يظهر لي بصورة تزداد وضوحاً وكان يقصّ عليّ أكثر فأكثر، بمقدار ما يمكن أن يكون الظلّ واضحاً، وبمقدار القصص التي يمكن له أن يقصّها. تجلّت لي من خلاله المعموديّة وكاتدرائيّة فلورنسا، وقد رأيتهما ذات مرّة شامختين أمامي خلال ساعات الفجر المقفرة المطيرة، رأيتهما كيانين من خارج هذا الوجود. كذلك آريله، المشرّد، الملاك الذي هوى بين علب البيرة وعلب السجائر، ثمّ سيّد الكون الذي يختلق لدانتى مخرجاً غريباً بالفعل، ذلك وهو يبتسم بتلك الابتسامة الطيّبة والساخرة التي تتجلّى في ألف شكل، ثمّ أيضاً التلميذة الأميركيّة غريس، منقذته الجديدة وبياتريشةُ طريقِه.

هذا كتاب تخيّلات ورؤى، لا يتكلّم فيه ظلّ دانتى إلّا عن الحبّ، تقريباً، لا بل عن حبّ.

لكنّ تلك التخيّلات والرؤى تطوّرت وهي تتغذّى صفحة بعد صفحة بمحتوى أعمال دانتى، وبمعطيّات بقيت، بين فجوات كثيرة، لتنبئ عن وجوده الاستثنائيّ الخارق. وستجد في المقاطع التالية من هذا الكتاب الأبيات التي يشير إليها هذا النصّ التخيّليّ، أو هذا النوع من قصص الأشباح، والمستمدّة مَن دواوين دانتى مثل «القوافي»، «الحياة الجديدة» و«الكوميديا».

أستميح العذر عن المواضع التي تماديت فيها، وأتحمّل عن ذلك المسؤوليّة. لكنّي فعلت هذا حيثما فعلت بسبب نوع من الإخلاص المطلق لموضوع الحبّ، إلهاً وربّاً، أنا آخر وأضعف المؤمنين به.

وحيثما تماديت فلأنّي أيضاً إنسان من هذا الزمان، وأنتمي إلى أوّل جيل في الغرب (وأرجو ألّا يكون الأخير) ممّن عاش الحبّ على أنّه حرّية ومتعة وعودة إلى الطبيعة. ومهما كان زمننا هذا مظلماً، ومهما فقدت أنا ولأوّل مرّة في حياتي ربيعاً كاملاً، فإنّي لا أعرف كيف يمكن لي أن أستبعد ذكريات الأيّام السعيدة التي ظهر لي فيها هذا الفصل على أنّه وعد بالبعث، من الشجر إلى العشب والغيوم والأمواج، وهي فصول عرضيّة قصيرة من فصول كتاب الله.

كان الفردوس عبارة عن قُبلٍ أزهرت بطريقة غامضة على أفواه مجهولة، والرحلة الكبرى كانت عبارة عن تشرّدي وحجيجي مجتمعين نحو اكتشاف نفسي والحقيقة التي أبحث عنها رغم أنّها بعيدة المنال.

كما أذكر الآن ضحكات الفرح التي أطلقتها عندما وجدت هذه الحقيقة وقد صيغت، بوضوح جريء وقح، في صفحات كاتب أميركيّ رائع رغم أنّه عجوز قذر:

«أيّها الأولاد عندي لكم خبر رائع: الله هو المحبّة».

بودّي أن أسوق أنا أيضاً هذا الخبر الرائع إلى عالم يتعتّم ويتسمّم ويبدو أنّه يتوجّه نحو سحق إنسانيّته ونهاية كلّ ما هو مقدّس. فهل لن يبقى لنا إلّا جحيم يوميّ نتعذّب فيه؟

جحيم مجتمعٍ مريض، تهبّ فيه رياح الظلم والقهر والفساد والعنف، وتقف قوّة المال، «الزهرة اللعينة»، لأوّل مرّة في تاريخ البشرية، قيمةً عليا ومعياراً لكلّ شيء.

جحيم تحرق فيه الغابات، ويتبلسك البحر[49]، ويفسد الهواء، ويغيّم ضوء الشمس، ويختفي النحل. حيث عليك بين يوم وليلة، وبينما يحوم حولك خطر مظلم ومميت، عليك أن تسجن نفسك بين جدران منزلك وتبقى فيه، ولا يمكن لك التواصل مع أمثالك إلّا من خلال شاشةٍ، ظلّاً بين الظلال، صورة ثلاثيّة الأبعاد بين صور مجسّمة.

49- يصبح من بلاستيك (م)

أقفرت الأشياء وسادت العزلة. بل أغلقت حتّى أبواب الكنائس والمقابر، ولا يمكن لمخلوق أن يصافح أحداً، ولا يمكن لميّت أن يتلقّى تحيّة الوداع.

ربّما لم يبق لنا إلّا أن نتعايش مع هذا الجحيم اليوميّ. لكن، وكما كتب إيتالو كالفينو في «المدن غير المرئيّة»، وهو الذي كان صديقاً لي ولو لفترة قصيرة والذي أدين له على الأرجح كوني ما زلت أمارس الآن مهنة الكتابة، كتب يقول إنّ أمامنا في هذا الجحيم طريقين علينا أن نختار بينهما: إمّا أن نقبل به ونكون في طرفه إلى أن لا نراه مرّة أخرى، أو أن نختار الطريق الأصعب والمحفوفة بالمخاطر «أن نحاول وأن نعرف من وماذا ليس جحيماً في وسط هذا الجحيم، فنسعى لإبقائه واستمراره وفسح المجال أمامه».

وهكذا فإنّ ظلّ دانتي كان كلّما تكلّم معي يريني كيف يمكن إفساح المجال أمام حبّ. وكيف لنا ألّا نستسلم للظلام. أي بالعشق، بدخول، بل بالسقوط في هاوية مملكة حبّ.

لقد فعل دانتي هذا، بكلّ روعة، ومنذ صباه الأوّل ومنذ تجارب شعره الأولى. ثمّ قرّر أن يمنح حبّ مساحة أكبر، وهو الرجل المتحيّز، الفخور، القاسي، القادر على كراهيّة قاتلة. وقد دلّنا، من خلال حبّ، وبقيامه بأطول رحلة يمكن لإنسان أن يقوم بها، على مخرج نجاة من الغابة المظلمة، من جحيمنا الذي نعيشه هنا الآن، مهما كان نوعه، وفي أيّ ظلام قد يلغي أذهاننا وأرواحنا.

الطريق التي تقودنا إلى حيث «نرى النجوم»، ثمّ الطاقة الإلهيّة التي تحرّك النجوم وراء النجوم. كما أنّها تحرّك الشمس والبحار والغيوم والرياح وتحرّكنا نحن بالذات.

-1-

أنا أودّ يا غويدو

غويدو، أودّ أنّك أنت ولابو وأنا
أن نؤخذ بسحر وأن
نوضع في زورق يتهادى مع كلّ ريح
عبر البحر كما تشاء أنت وأشاء أنا.

فلا يستطيع النصيب ولا ظروف معادية منعنا
من الإبحار. بل تتوحّد هممنا
وتنمو فينا رغبة البقاء سويّة.
وتتمكّن السيّدة فانّا والسيّدة لادجا وتلك
الموضوعة في المكانة الثلاثين، من أن يحملن معنا
الساحر الطيّب.

هناك لا نفكّر إلّا بالحبّ، وإذا
كانت كلّ منهنّ مسرورة، فظنّي أنّنا
سنكون مثلهنّ مسرورين.

إنّي لم أتمكن أبداً من مقاومة جمال أبيات «القوافي» الساحر والفريد. كنت أحفظها عن ظهر قلب، وكنت غالباً ما أقرؤها على نفسي عندما أكون وحدي، أو مع جماعة في كلّ فرصة.

ذات يوم، كنت أعيش في بريتاني بين حركات المدّ والجزر والأعمدة الحجريّة والموانئ والرافعات والحانات الصغيرة، وحيث ضرب جذورَه جزءٌ حاسمٌ من خيالي، وكنت وقتها على وشك البدء في قراءة قصائدي داخل الصالة. فطلبوا منّي كما هي العادة في كثير من الأحيان أن أقوم بتجربة الميكروفون. لكنّي بدلاً من أقول آن دو تروا (واحد اثنان ثلاثة)... بدأت أتلو بصوت منخفض ثمّ بصوت أعلى: «غويدو، أودّ أن...» ووصلت إلى نهاية القصيدة. فارتفع صوت أنثويّ مفعم بسخرية متعجرفة: «لقد أخذتها من دانتي». كان هذا رائعاً لأنّها عرفت مؤلّف الأبيات، لكنّ روعته أقلّ لأنّها اتّهمتني بجنون أنّي أريد أن أنسبها لنفسي.

في مرّة أخرى قرأتها، وقد أقحمتها بطريقة غريبة لا أعرف لها سبباً، أثناء تقديم روايتي الأخيرة التي تتحدّث عن البحر والسفر والبحث عن الحقيقة: «لا قلب لهم». وعليّ أن أقول إنّ ذلك التصفيق على وجه التحديد والذي صعد من الجمهور، ليس لي، ولكنّ جمال هذه القصيدة الساحرة والفاتنة، هو الذي أوحى لي أنّه إذا كان ذلك تكريماً لدانتي، فهو تكريم من كلّ بدّ لدانتي شاعر الحبّ.

إنّ «غويدو، أودّ أن...» تعبر عن رغبة. عن حلم بعيون مفتوحة. كالأحلام التي لا تزهر إلّا في عهد الصبا، لأنّها صيغة من صيغ الجنون الكيميائي، كما كتب سكوت فيتزجيرالد الذي كان يفهم بهذه الأمور. وقد جرّبناها كلّنا جميعاً. ومن يحبّ الصبا لا يمكن له إلّا أن يرى جوهر الصبا في هذه الأبيات التي كتبها شاعر قبل سبعة قرون.

وكانت عزيزة على ذلك الرومانسيّ الإنجليزيّ العظيم، بيرسي بيش شيلي، الذي كان يحبّ، مثل كلّ من كان في وسطه، قصص الأشباح وتجلّيات الأرواح والأحداث الوحشيّة المرعبة الشبيهة بأحداث فرانكشتاين التي اخترعتها زوجته ماري. كان هو صاحب الترجمة الإنجليزية لـ «غويدو، أودّ أنّك أنت ولابو وأنا»، وهي إعادة صياغة رائعة، أتخيّل أنّ ظلّ دانتي يمكنه أن يجدها على شاشة كمبيوتر التلميذة الأمريكيّة، قارئته المعجبة به.

تمجّد هذه الأبيات صداقة تعيش في شباب أزليّ وتجمعها بموضوعات

السحر والسفر والشراكة والحبّ والتوافق بين العشّاق: وبهذا فإنّها جعلت حياة الإنسان أقلّ جهنّمية، سواء في ذلك الوقت، أي في القرن الثالث عشر، أو حتّى اليوم في هذا القرن الحادي والعشرين.

في الأولى بين الثلاثيّتين هناك بيت حمل قرّاء لا معيّنين على التكشير، بينما جعلهم يعجبون ببداية النشيد الطلقة والمجنّحة والمرحة: «وتلك الموضوعة في المكانة الثلاثين». أي التي تحتلّ المرتبة الثلاثين: ولكن من أيّ شيء؟ هنا يكمن كامل الجانب الغامض والخفيّ والخبيث والسخيف من جوانب هذا البيت.

إنّ توضيح الأمر يتطلّب معرفة أمر معيّن: لا يعرفه على الأرجح قرّاء دانتي المعاصرون، بينما كان بالتأكيد معروفاً بكلّ تفاصيله لدى أصدقائه المقرّبين في ذلك الوقت، وخاصة لدى ذين المدعوّيْن إلى الزورق السحريّ.

فلقد ألّف دانتي نصّاً، فُقد الآن، أدرج فيه أسماء أجمل ستّين امرأة في فلورنسا. للأسف. كانت تلك لعبة لامعة وتمريناً في تقنيّات الأدب، كان دانتي يقلّد فيه الغنائيّات البروفانسيّة المعقّدة، وبها افتتح موضوع قائمة أجمل ستّين امرأة، على وقع صدى «ستّون هنّ الملكات» التي غنّاها سليمان في نشيد الأناشيد واستعادها دانتي بالذات في «كتاب المأدبة الثاني»[50]، حيث كتب في الفصل الرابع عشر مستشهداً بالملك التوراتيّ:

ستّون هنّ الملكات وثمانون صديقاتهنّ المحظيّات.
لكن ليس هناك عدد للصبايا الوصيفات: أمّا حمامتي
فهي فريدة، هي وحدها الكاملة بلا مثيل.

إنّها لعبة براعة ورِقّة لا يمكن تصوّرها في أيّامنا هذه، رغم أنّنا تعودنا على البطولات ومسابقات الجمال. وقد حاول، قبل بضعة عقود، شاعر من نيويورك أن يدلي بدلوه في تمرين من هذه التمارين، لكنّه، وباعتباره يانكي أو أميركيّاً حقيقيّاً، فقد توجّه مباشرة إلى بيت القصيد، وعنون قائمته:

50- *Secondo trattato* del *Convivio*

ثلاثون فتاة أودّ أن أنكحهنّ[51]. لذلك فإنّي أظنّ أنّ «لعنة ذكراه»[52] قد نزلت عليه بحقّ.

الشاعر المذكور في افتتاحيّة النشيد هو غويدو كافالكانتي. وهو شابّ رائع الجمال وشديد الغنى، كان يعيش وحده، وكان مغترّاً، جيّاش العواطف، ويتمتّع برشاقة ذهنيّة عظيمة قادرة على أن تصبح جسديّة أيضاً: وقد قدّم بوكاتشيو صورة رائعة عنه في قصّة قصيرة من كتاب «ديكاميرون»، كما اختاره إيتالو كالفينو في «دروس أمريكيّة» ليكون المتحدّث باسم «الخفّة».

كان كافالكانتي من قرّاء ابن رشد، وهو مترجم مسلم لأرسطو اتّهم بالإلحاد، وقد عبّر بطرق حالمة ودراماتيكيّة عن الموضوعات الأسلوبيّة الجديدة التي بدأها كاتب عدل من مدينة بولونيا هو غويدو جينيزيلي: عن عبادة الحبّ وجروح الحبّ. لكنّه كان يعرف أيضاً كيف يعطي، بطريقة رائعة من النضارة والطبيعيّة، صوتاً تتكلّم به بهجةُ الحواسّ والحبّ الجسديّ، ذلك كما في القصيدة التي تذكر لقاءً مع راعية جميلة في الغابة:

في الغابة التقى براعية، كانت
جميلة، رآها أجمل من نجمة

لها شعر أشقر تجعّد،
وعينان مفعمتان بالحبّ،
شمعٌ بلون الورد.

وأخيراً فقد غنّى كافالكانتي أحزان المنفى وخيبات الأمل ونُذر الموت، وذلك في رائعته التي بدأها ببداية لا تُنسى:

51- جاءت بالأصل الإنكليزي وبكلمة نابية.

52- دامناتيو ميموريااي Damnatio Memoriae عبارة لاتينية معناها «لعن الذاكرة» أي محو ذكر شخص من الوثائق الرسميّة. وكانت هذه عقوبة يفرضها مجلس الشيوخ الروماني على من يتمّ اعتبارهم خونة أو ممّن شوه سمعة. وهكذا يتمّ تدمير صورهم أو إزالة أسمائهم من النقوش والوثائق الرسمية بعد موتهم. (م) عن ويكيبيديا.

لأنّني لا آمل أن أعود من جديد،
اذهبي، أنت يا أغنيتي، إلى بلدي توسكانا
بصوتك العذب اللطيف،
اذهبي إلى امرأتي، بلا تأخير.

وهكذا فإنّ الشاعر لا يعهد بروحه إلى بارئها، بل لأغنيته بالذات لتحملها بشفقة إلى حبيبته:

هذه الروح خادمتك
جاءت لتبقى معك
جاءت من ذاك
الذي كان في الحبّ
خادماً لك.

كما كتب جانّي آلفاني، وهو شاعر آخر من عصبة أصدقاء فلورنسا الشباب الذين سمّوا أنفسهم «مخلصين لحبّ»، كتب في «الأغنية المؤلمة» ما كان تكريماً لكافالكانتي حتّى في العنوان:

وعليك يا أغنيتي أن تتسرّبي إلى قلب غويدو
فهو وحده من فهم حبّ

كان دانتي أصغر من غويدو بنحو عشر سنين، وكان ينتمي إلى عائلة أقّل مرتبة وغنى، فشعر منذ البداية بتفوقّ غويدو «أوّل» أصدقائه، بل معلّمه أيضاً، بشكل ما.

كما هو معتاد في عصبة الأسلوب الجديد، فإنّ قصيدة الواحد منهم تعتبر تحدّياً لعدد مختارين من الأصدقاء، لذلك فقد قدّم غويدو كافاكانتي أهزوجة عارض فيها تلك الأهزوجة التي افتتحت بذكر اسمه. لكنّ الجواب جاء غريباً وحزيناً: فمقابل الروح المرحة والساحرة، المشبعة بسرور وخبث صديقه الأصغر منه، أبرز غويدو جرح حبّ بلا شفاء، بدأ يقضي عليه، بحيث كتب:

لو كنت جديراً بحبّ
لكن ليس لي منه إلّا الذكرى

هذا هو غويدو إذاً، كان «وحده من فهم حبّ»، لكنّه يلجأ إلى التنازل والذكريات في اللحظة نفسها التي ينفتح فيها دانتى على أحلامه المجنّحة ورغبته في الابتعاد.

لكنّهما، أي دانتى وغويدو، مثل جميع المخلصين لحبّ مثل لابو جانّي، جانّي آلفاني، تشينو دا بيستويا. يجتمعون كلّهم على أولويّة حبّ وعلى ما يجب تقديمه له من طقوس.

دعونا نتخلّى مرّة وإلى الأبد عن المذكّرات المدرسيّة لدانتى وغويدو، منشدي النساء «الملائكيّات». ومن يدري كم جيل من أجيال الطلّاب، مراهقين وأوغاداً، تضاحكوا وتفوّهوا بألفاظ نابية عند سماع أساتذتهم يتحدّثون عن الحبّ الأفلاطونيّ الرقيق لشعراء كانوا يرون فتيات زمانهم كالملائكة. لكنّ هذا ما كان يحدث بالتأكيد في مدرستي الثانويّة، دي آميشيس دي أونيليا، رغم أنّها كانت تتباهى بتقاليدها النبيلة.

لكنّ الصديقين، دانتى وغويدو، يظهران في أبيات أخرى من عشّاق الجسد الكبار. وهكذا فنحن نرى أنّ أهزوجة «أودّ يا غويدو» لا تتحدّث بالضبط عن نساء – ملائكة، بل عن نساء متعة.

على أنّ دانتى وغويدو، المخلصيْن لحبّ، تعلّقا بمعرفة جديدة تخريبيّة نوعاً ما، تعادي البابا، وفيها رائحة البدعة المارقة. كما يخفيان وراء الشخصيّات الأنثويّة التي تظهر في بريق ملائكيّ، أفكاراً تجديديّة روّجا لها لتحكي عن الجمال والحكمة والحبّ.

إنّ أفكار مخلصي حبّ كانت ثوريّة بالفعل بالنسبة إلى ذلك الزمان. والقلب الطيّب الذي يحتمي فيه حبّ على الدوام هو قلب رجل لا يستمدّ قيمته من أناسه وعشيرته، ومن نبل دمه، بل من النبل الروحيّ، ومن رفعة المشاعر، ومن تأمّل الجمال وتكريس النفس لحبّ بالذات، بما يجعل منها كلّها ديانة كاملة.

وهذا هو بيت القصيد، فالمخلصون لحبّ يعيشون في عبادة خالصة لموضوع حبّهم، ويجعلون منه صنماً، شيئاً ما إعجازياً وسرّياً خفيّا، فكريّاً وميتافيزيقيّاً، بحيث يأخذ وجه الآلهة.

إنّ دانتي وغويدو شخصان من القرون الوسطى، لذا كان لزاماً عليهما التعامل مع الرمز والاستعارة، والرؤية بالفكر أكثر من الرؤية ببدائيّة المشاعر.

لكنّ طريقهما تختلف. لأنّ دانتي عاد بعد فترة من التيه في عتمة العالم، إلى طقوس صباه الخاصّة بامرأة هي حكمة ونعمة، تفتح له الدرب السماويّ الذي يقود إلى الإله - الحبّ. وهذا ليس وضع غويدو. لأنّ الحكمة والإله - الحبّ لا يمكن لهما تجاوز جحيم الحياة، ولا يمكن لهما التخليص منه.

لكنّ حياة الصديقين تقاطعت بعد ذلك بطريقة حزينة للغاية. فقد حُكم على غويدو كافالكانتي بالنفي خلال الشهرين اللذين كان فيهما دانتي مقدّماً في فلورنسا: ولا نعرف إلى أيّ طرف مال دانتي خلال هذه الإدانة التي جاءت بعد أعمال الشغب الشرسة التي جرت بين مختلف الفصائل وشارك فيها غويدو. لكنّ الثابت هو أنّ الصديق سمح بذهاب صديقه إلى المنفى. وقد مرض غويدو في سارزانا وسمح له بالعودة إلى فلورنسا ليموت فيها بمرض الملاريا: وهو المرض نفسه الذي أطاح بدانتي بعد سنوات عديدة، وكانت «الكوميديا» قد اكتملت حينها.

وهنا نرى أنّ وجود دانتي ووجود غويدو قد تلامسا للمرّة الأخيرة في أبيات هذه الكوميديا. نحن الآن في النشيد العاشر من «الجحيم»، وليس محض صدفة في حلقة الهراطقة وبين الأبيقوريّين، حيث «تموت الروح مع الجسد».

وقف دانتي يناقش مفتخراً حول فصيلي غويلفي وغيبيلّيني، وذلك مع فاريناتا ديلّي أوبيرتي، الذي وقف منتصباً بازدراء خارج الفُلك الذي يقضي فيه عقوبته. هنالك برز ظلّ إلى جانب هذا الأخير، وظهر حتّى الذقن فقط، وأخذ ينظر حوله كما لو أنّه يأمل في رؤية شخص ما، أي ابنه، قرب الشاعر. عندما تلاشت آماله، بدأ الظلّ يبكي وهو يسأل لماذا ابنه ليس هناك.

كانت عصبة الأصدقاء المخلصين لحبّ صغيرة. إذ إنّ كافالكانته

كافالكانتي -وهذا هو اسم الظلّ- كان يفكّر ويرجو أنّ ابنه غويدو -وهو ليس أقلّ من دانتى في مستوى البراعة- يجب أن يظهر بجانب صديقه، وأن يتمتّع هو أيضاً، عندما كان حيّاً يرزق، بامتياز السير عبر «السجن/ الأعمى» في الجحيم.

فيجيب دانتى أنّه لا يسير بفضل قوّته فقط، فهناك شخص -كان غويدو يحتقره على الأرجح- ينتظره ليأخذه في مسار رحلة بين الظلال والظلمات حتّى بلوغ نور الله.

اضطرب كافالكانته، بل وقع على ظهره في الفلك بعدما تردّد دانتى في تقديم جواب عن سؤاله: «لماذا قلت كان؟ وأنت تتكلّم عن احتقار ذلك الشخص؟ لماذا؟ أليس هو حيّاً الآن؟». ولم يظهر بعد ذلك أبداً. بينما وقف فاريناتا غير عابئ بهذه التعابير الإنسانيّة عن عواطف وأحزان ذلك الأب، بل استأنف تأكيد آرائه السياسيّة أمام دانتى.

لكنّ غويدو كان حيّاً في ربيع 1300، وهو التاريخ المفترض لرحلة دانتى في السماء، لأنّه مات في آب بعد أن عاد من منفاه في سارزانا، بموجب حكم ساهم صديقه في إصداره.

وهكذا فإنّ حلقة المخلصين لحبّ تمزّقت بشكل رهيب، على الصعيدين البشريّ والفكريّ. فأين تلك الرحلة على متن زورق الساحر ميرلينو السحريّ؟ كان الواقع مختلفاً تماماً.

كان حرج دانتى في ردّه على كافالكانته واضحاً: ذلك أنّ غويدو ثابر على التبتّل لحبّ يجرح، ويسبّب الألم بل يؤدّي إلى الهلاك وإلى ازدراء كلّ فكرة عن خلاص يأتي من السماء. بينما كان دانتى يسافر إلى السماء. وهو لم ينكر حبّ. بل حوّل طاقته المدمّرة إلى طاقة حيويّة وكونيّة سامية، إلى طاقة إلهيّة.

لكن لا شيء يمنعنا من التفكير أنّ دانتى حين قام بتلك الرحلة السامية، بل حين كان يكتب ملحمته التي «لمستها أيدي السماء والأرض» لم يكن يذكر في بعض الأحيان حتّى تلك الرحلة القصيرة المرحة التي قام بها مع فتية خالدين على متن زورق سحريّ يمخر البحر بحسب أهوائهم، وهم يسيرون عليه وليس أمامهم هدف ولا وراءهم عائلة وليس فوقهم سلطة

ولا ربّ يحتاج الشباب في بعض الأحيان إلى نسيانه، وذلك بصحبة رفاق متوافقين ونساء محبوبات محبّات.

بصحبة تلك الموضوعة في «المرتبة الثلاثين» والتي نعرف بالتأكيد أنّها لم تكن بياتريشه.

-3-

أسطورة بياتريشه

نزيهة نبيلة النفس تبدو
امرأتي وسيّدة قلبي عندما
تحيّي الآخرين،
فتخرس الألسن خاشعة
ولا تجرؤ العيون، فتنحسر الأبصار.
تسير بتواضع وهي تسمع المديح،
فتحسبها مخلوقةً نزلت من السماء
إلى الأرض، برهاناً على عظمة الله.
تبدو رائعة الجمال لناظريها
تبثّ بعينيها حلاوة في القلب لا يشعر بها
إلّا من يراها،
وتشعّ من وجهها مشاعر رقيقة بالحبّ مليئة،
تقول للنفس:
تأوّهي وتنهّدي.

هذه القصيدة من ديوان «الحياة الجديدة» هي من أشهر قصائد دانتى، وهي تشكّل قسماً من الإرث الوراثيّ للّغة والثقافة الإيطاليّة. وأذكر بانفعال شديد أنّ أمّي كانت تريد أن تنشدها حتّى آخر أيّام حياتها الطويلة، لأنّها

كانت من ذكريات المدرسة البعيدة التي كانت تعودها وتريد أن تقدّمها لي. وعندما كانت تتردّد أحياناً وتتوقّف عند بعض التعابير، كنت أنا الذي أردّها فتعود خيوط ذاكرتها لتلتحم وننشد سويّة آخر مقاطع القصيدة.

فما هو الأمر الفريد في هذه القصيدة؟ أظنّ أنّها موسيقاها الحاسمة والبسيطة والمطلقة التي تظهر المعجزة وتبرزها: تجلّي كائن على الأرض فيه جميع الفضائل، وفيه كلّ الجمال، والذي يبثّ عبر العيون كلّ حلاوته التي لا يمكن التعبير عنها، وعلى شفتيه روح من الحبّ لا يثير في النفس الرغبة، بل التنهّدات.

ومن جديد هناك معاني المعجزة، وموضوع التحيّة وتجلّي جمال لا يوصف، مبثوثة في هذه القصيدة الأخرى، من قصائد «الحياة الجديدة» أيضاً. وإذا لم تكن هذه ذائعة الصيت مثل القصيدة السابقة، فهي كاملة بالقدر نفسه حين أدائها:

تحمل امرأتي في عينيها حبّاً
يحيل من ينظر إليها نبيلَ القلب.
حيث تمشي، يلتفت إليها كلّ الرجال
فيرتعش قلب كلّ من تلقي عليه السلام.

عندما تنحني برأسها تبهت كلّ الأشياء،
وتأسف على كل عيب فيها.
يهرب لظهورها كلّ كبرياء وغضب.
فأعنّني يا نساءُ على تكريمها.

كلّ حلاوة، وكلّ خاطرة تواضع
تنشأ في قلب من يستمع إليها.
فهنيئاً لمن قبل غيره يراها.

كيف تبدو عندما تبتسم قليلاً
هذا ما لا يمكن أن يقال، ولا أن يوضع في اعتبار،
لأنها معجزة لم يسبق لها مثيل ولطيفة.

هذه هي بياتريشه. وقد كتبت هذه القصائد في مديحها في ديوان «الحياة الجديدة». وحولها تدور كلّ أعمال دانتى، عندما كان في البداية شاعراً من شباب مدرسة الأسلوب الجديد، وعندما نضج بعد ذلك وحجّ إلى عالم وراء الأرض في السماء، بحثاً عن رؤية الله.

في القصيدة التالية يتحدّث دانتى عن حبّه لها كقدر مقدّر، وذلك منذ الفصل الثالث من عمله الأول:

إلى كلّ روح أسرها الحبّ وإلى كلّ قلب رقيق
يسمع هذا الكلام
ويمكن له أن يقابله بردّه
ألقي سلامي باسم ربّهم أي الحبّ.

كانت قد تصرّمت ثلث ساعات الوقت
الذي تتألّق فيه النجوم،
عندما فاجأني حبّ وتجلّى.
يرعبني الآن تذكّر ملامح وجوده
بدا لي حبّ مرحاً وهو يمسك قلبي في يده،
وبين ذراعيه
حمل سيّدتي ملفوفة بشال،
نائمة. ثم أيقظها
وقدّم لها برقّة وحنان هذا القلب المحترق
إلى المرأة الخائفة
ثم رأيته يذهب بعيداً وهو يبكي.

ماذا تعني، وماهي أهميّة هذه القصيدة الغامضة، التي تمّ استبعادها حقّاً من كثير من المختارات الأدبيّة؟ كان هذا يعني أنّ دانتى لم يكن بصدد أن يقصّ علينا قصّة حبّ فقط، ولكن ما هو أكثر بكثير.

ليس في الرباعيّة الأولى أيّ أمر حميميّ، فيها تحيّة إلى مخلصي حبّ، ذوي النفوس المسلوبة والقلوب الطيّبة، ممّن يخاطبهم دانتى بهذه القصيدة («وإلى كلّ قلب رقيق يسمع هذا الكلام») حتّى يتمكّن كلّ واحد منهم أن يجيب ويكتب كما يشاء («ويمكن له أن يقابله بردّه»).

ثمّ يتجلّى حبّ في عزّ الليل، وتكفي ذكرى هذا الأمر كي يثور الرعب، وبين ذراعيه تلك المرأة النائمة، بينما يحترق قلب الشاعر في يده، فيعطيه إليها كي تتغذّى به عندما تستيقظ.

قد يبدو هذا أمراً همجيّاً من صفات أكلة لحوم البشر إذا لم يكن يعني نوعاً من استهلال الطقوس، ونوعاً من التشارك حيث يربط حبّ إلى الأبد الشخص المخلص له بمخلوق آخر، بامرأة، لا يستطيع ذلك الشخص أن يتحرّر من سلطانها. نفسه مرة أخرى. أمّا المرأة النائمة بين ذراعي حبّ فهي بياتريشه التي تتغذّى على قلب دانتى. لا يستطيع الشاعر أن يطلب منها شيئاً. فهو يعبدها وحسب، كما يتّضح من النثر الذي يسبق القصيدة:

وبدا لي بسعادة بالغة أنّه أمر رائع، وقال في كلماته أشياء كثيرة لم أفهم منها إلّا القليل. لكنّي فهمت من بينها: «أنا ربّك»، وبدا لي أنّي أرى بين ذراعيه شخصاً نائماً عارياً، إلّا أنّه بدا لي ملفوفاً بقطعة قماش حمراء بلون الدم، وعندما حدّقت باهتمام شديد، علمت أنّها كانت امرأة التحيّة، التي تكرّمت وألقت عليّ التحيّة في اليوم السابق. كما بدا لي أنّي أراه وهو يحمل في إحدى يديه شيئاً يحترق في جميع جوانبه، وبدا لي كذلك أنّه كان يقول لي هذه الكلمات: «انظر إلى قلبك».

«أن يكون دانتي قد أضمر عشقاً وثنياً لبياتريشه فهذه حقيقة لا يمكن مخالفتها»، هذا ما كتبه خورخي لويس بورجيس[53] في مقالات دانتي التسع (1982)، وهو شاعر القرن العشرين الأكثر قدرة على القراءة وراء رموز العالم والأدب الغامضة. وإذا كانت هناك حلقة خياليّة، وربّما هي موجودة بالفعل، تضمّ المخلصين للتشبيه والاستعارة، فإنّ بورجيس سيكون أعظم ممثّل لها بل معلّمها.

إنّ حبّ دانتي لبياتريشه، ابنة فولكو بورتيناري، والتي تم تزويجها بسيمونه دي باردي، لا يمكن أن يقرأ بالمعايير نفسها التي نقرأ بها اليوم قصّة من قصص الحبّ الحاليّة. لأنّه سيَظهر بمعاييرنا أمراً بائسًا بالفعل. أمّا في مملكة الرموز الواسعة المنسوجة، فإنّ «وثنيّة» دانتي إزاء بياتريشه تتّخذ أبعاداً وجوديّة نفهم بها مجمل أعماله الكثيرة.

إنّ دانتي يشعر أنّه مرصود لحبّ بياتريشه، لينسج لها أسمى المدائح في حياتها وبعد موتها، «وليقول فيها ما لم يقل أبداً في أيّ امرأة أخرى»، ذلك كما كتب في «الحياة الجديدة». وهذا أمل أصبح حقيقة في تصميم الكوميديا السامي.

وقد خمّن بورجيس أنّ «دانتي قد بنى أفضل كتاب أنتجه الأدب على الإطلاق من أجل أن يقحم بعض لقاءاته ببياتريشه التي لا يمكن له أن يستعيدها أبداً». كما رأت جاكلين ريست[54] أيضاً، في السيرة الذاتيّة الرشيقة «دانتي. حياة كاملة» (1995)، لقد تصوّر دانتي أشعاره على أساس تمجيد مخلوق واحد، وعلى أنّها انتصار بياتريشه».

بياتريشه إذاً، بجمالها الملائكيّ الذي لا نعرف عنه إلّا القليل عدا ما يبثّه من أشعّة النور والفضيلة، وبحياتها القصيرة لكن المتوّجة إلى الأبد، هي رمز سلطان حبّ «الإله والمعلّم» على نفس دانتي.

وبالمقارنة مع صديقه «الأوّل» ومعلّمه، غويدو كافالكانتي، فإنّ دانتي يجد في بناء أسطورة بياتريشه (لأنّ الأمر هو أسطورة بالفعل، ومن أقوى

53- Jorge Luis Borges

54- Jacqueline Risset

أساطير أعماله كلّها) طريقاً يواصل عليها كإنسان وكشاعر، رحلته في الأرض وفيما وراء الأرض.

لكنّه سيكون من الصعب التعرّف إلى بياتريشه الموجودة في «الحياة الجديدة» في تلك المرأة التي نجدها في النشيد الثلاثين من كتاب «المطهر»، حين تظهر لدانتي في موكب مضطرب غريب، بين كثير من الرموز الغامضة والشخصيّات المجازيّة الممتلئة، وهي على عربة تجرّها حيوانات مجنّحة، لكنّها ملفوفة في سحابة من الورود:

متوّجة بغصن الزيتون، وشال ناصع، تجلّت لي امرأة
يغطّيها معطف أخضر وترتدي ثوباً قاني الحمرة.

ورغم أنّ الثوب الأحمر هنا يذكّرنا ببياتريشه الأرض والحياة، فإنّ صورة بياتريشه هذه، والكلمات التي توجّهها إلى دانتي وتنطقها بنبرة مستاءة قاسية، لا تظهر شيئاً من حلاوتها القديمة: «انظر هنا، انظر بدقّة! هذه أنا، إنّي بياتريشه». أيّ دراميّة وخطابيّة وحتّى نشاز!.

بل إنّ بياتريشه تلوم وتحتجّ وتتّهم، وهذا ما لا يفعله كثيراً العشّاقُ (هذا على فرض أنّه يمكن اعتبار بياتريشه «عشيقة»، بدون شتيمة) إذا أرادوا الإبقاء على نار الحبّ مشتعلة فيما بينهم.

وهي لم تخاطب دانتي بشكل مباشر عندما صاغت السلسلة الأولى من الاتّهامات، بل خاطبت محكمة من الملائكة باعتبارهم قضاة سماويّين، كما لو أن بياتريشه ظنّت أنّها في محكمة، تقوم فيها بدور المحقّق. كما أنّ دانتي، انفصل عن بياتريشه بعد أن انتقلت إلى الآخرة، وتبع حبّاً آخر، وحوّل خطاه على طريق خاطئة، وتتبّع تصوّرات خاطئة عن الخير، تصوّرات لا تفي بوعود السعادة. نراها بعد ذلك وهي تتوجّه إليه وتخصّص نوع لومها وتَزيد من حدّته.

ومع ذلك فإن دانتي يعرف في نفسه «علائم الشعلة القديمة». ومن المؤكّد أنّ الحبّ لم يكن موجوداً إلّا من جانبه فقط. وكما لاحظ بورجيس فإنّ «بياتريشه وجدت بالإطلاق بالنسبة إلى دانتي. أمّا دانتي فلم يوجد إلّا

قليلاً، وربّما لم يوجد على الإطلاق، بالنسبة إلى بياتريشه». تجبر الملامات الحادّة والقاسية جدّاً، تجبر دانتي على أن ينفجر بالبكاء، الآن وقد ندم وتحطّم، فأيّ مسرّة شعر بها في لقياها.

وطوال مسيرة الصعود نحو السماء، يزداد جمال بياتريشه إبهاراً، لكنّها غالباً ما تتّخذ صفة المعلّمة المتعالية، الأموميّة أحياناً والتعليميّة أحياناً أخرى، لكنّها لا تحمل أبداً على التفكير بتلك الشعلة القديمة، التي لم تشتعل إلّا في قلب دانتي.

لقد أصبح الآن شغف دانتي «الوثنيّ» ببياتريشه نوعاً من التقديس بل كاد أن يكون خوفاً. وكان يكفي القليل، يكفي أن يسمع مجرّد الحرف الأوّل أو الأخير من اسم بياتريشه، حتّى يستحوذ على دانتي شعور بالخضوع والاحترام فيضطر إلى خفض جبهته، كشخص غلبه النوم.

لقد أصبح الحبّ البشريّ بعيداً. وجاء الآن دور الحبّ الحارق، الذي أخذ يتجاوز بفضل بياتريشه، ما هو بشريّ ليتطلّع بصورة نهائيّة إلى أهداف سماويّة.

-4-

الأخريات

ولكن ما الذي اقترفه دانتي من أمور خطِرة حتّى يستحقّ الكثير من لوم بياتريشه القاسي والمرير، وممّا أذلّه وحطّمه؟ وكيف كان له أن يسيء إلى فكرة الحكمة والإيمان المقدّسين التي تجسّدها بياتريشه، وكيف كان له أن يخيّب آمالها؟

تظهر الحقيقة في مقطع من الأنشودة الواحدة والثلاثين من كتاب المطهر، حيث أخبرت بياتريشه دانتي أنّ عليه، ما إن يشعر بأوّل الإغراءات الأرضيّة، أن يتوجّه بعينيه نحو الأعلى، نحوها، هي التي لم تعد موجودة على الأرض، وأنّ عليه ألّا يترك الإغراءات الأرضيّة تثقل جناحيه، فتدفعه نحو الأسفل.

...لا فتاة صغيرة

ولا أشياء تافهة أخرى لا نستمتع بها إلّا قليلاً

هذا يعني في لغة اليوم البائسة أنّه لم يكن ينبغي على دانتي أن يتورّط بقصص مع صبايا النساء، ولا ربّما مع فتيات، أو بغير ذلك من مغامرات الهوى العابرة.

إنّ هناك مفاجأة جميلة جاهزة لتدهش أجيالاً من الطلّاب الذين يسخرون من عبارة النساء «الملائكة»، أو أولئك القرّاء الذين توقّفوا على سطح الشعر الغنائيّ اللطيف الموجود في «الحياة الجديدة»: فدانتي كان يتمتّع بخيال

مثير للغاية (وهل يمكن أن يكون العكس؟)، خيال دنيويّ جسديّ يتعارض بالتأكيد مع هيامه ببياتريشه. وقد عبّر عن هذا الخيال في القائمة المفقودة للأسف لأجمل ستّين امرأة في فلورنسا، بل في العديد من أبياته التي ما زال بوسعنا لحسن الحظّ أن نقرأها ونفسّرها.

فإذا كان هناك في صبيّةٍ أهزوجةِ «أنا صبيّة جميلة نضرة» بعض الملامح الملائكيّة على وجهها وفي عينيها، فإنّه لم يبق من هذا شيء في «الصبيّة الجميلة» التي تظهر في أهزوجة أخرى من كتاب «القوافي»:

من يمكن له أن ينظر بلا خوف في عينيْ هذه الفتاة
الصغيرة الجميلة، التي امتلكتني بكلمة نعم، رغم
أنّها لا تتوقّع منّي سوى الموت، وهو صعبٌ عليّ؟
هل ترى كم هو عظيم حظّي؟
إذ اختارني القدر بين كثيرين
لأكون مثالاً يحذّرهم
من مدّ العيون إلى أمثالها.
لقد قدّرت عليّ هذه الميتة
فلا بأس أن يموت شخص
كي ينجو الآخرون...
ومع ذلك فما أسرعني كنت عندما جذبت على
نفسي عكس الحياة
كما تجذب الجوهرة ضياء النجوم.

فالصبيّة الجميلة، وعيناها، حطّت بالشاعر إلى حدّ لم يبق له معه سوى انتظَار الموت، مهما كان الأمر صعباً عليه. وقد شاء القدر أن يختاره، من بين الكثيرين، لتكون حياته عبرة للآخرين، لينقذهم من الخطر الذي يمرّ به المرء عندما يصرّ على مدّ عينيه إلى مثل هذه «الفتاة الصغيرة الجميلة».

يجابه دانتي هذه «النهاية»، أي الموت، إدراكاً منه أنّه لا بأس على الرجل

من أن يضحّي بنفسه من أجل الآخرين. ومع ذلك، فهو يعترف بحزن وألم بأنّه تسرّع وطلب لنفسه ذلك الموت، كما يجذب الحجر الثمين بريق النجوم.

هناك تلوّث كبير بين المقدّس والدنس يترك المرء في حيرة من نفسه: ألا نلمح إذاً بين سطور تضحية دانتي بنفسه أمام عواطف الحبّ القاتلة لتلك الفتاة الصغيرة الجميلة، من أجل أن ينقذ غيره من مثل هذا الخطر، ألا نلمح آلام المسيح الذي مات على الصليب من أجل خلاص الجميع؟

لقد تسبّب هذا الأمر في إحراج شديد للمفسّرين الذين تسلّقوا على مرايا الاستعارات وكتبوا أن تلك الفتاة الصغيرة الجميلة ما هي إلّا البلاغة أو الفلسفة. لكنّه من الواضح هنا أن دانتي كان يتحدّث عن الحبّ الأرضيّ الذي ستوبّخه بياتريشه عليه، خاصّة أنّه استخدم كلمة «فتاة صغيرة». لقد ضحّى دانتي بنفسه بالطبع، ولكن في الخطيئة. وهو أراد ذلك الموت لنفسه، أراده بقوّة جاذبة بارقة: ألا يبدو هذا كأنّه اعتراف غامض بالنشوة الجنسيّة، بموت صغير، بمتعة انتُزعت كأنّما ضدّ إرادته من غموض الحياة؟

ومع ذلك، فحيث يظهر هلاك دانتي الجسديّ واضحاً، لدرجة لا يمكن معها أن ينكره أحد أو أن يحاول أحد تجميله من خلال القول بالاستعارة، فإنّنا نجد أنّ لهذه الأهزوجة من كتاب «القوافي»، نغمات تبدو كأنها تريد بغضب شديد أن تمزّق كلّ الأجهزة الأسلوبيّة والأخلاقيّة التي يقوم عليها الأسلوب الجديد[55].

أريد عندما أكتب أشعاري أن أستخدم أسلوباً
حادّاً كما هي حادّة أعمال هذه المرأة الجميلة
القاسية كالحجارة،
التي تنطوي على مزاج يزداد عتوّاً وطبعاً أقسى فأقسى
وهي تغطّي جسمها بأحجار كريمة،
ذات خواصّ تدرأ وتحصّن، أو لأنّ المرأة،
تراجعت، فلا ينطلق من جعبتي أبداً أيّ سهم يجعلها

55- Stilnovo

ضعيفة عزلاء،
بل إنّها، على العكس من ذلك، هي التي تقتل
وتميت، فلا ينفع وقتها أن تحمي نفسك أو أن تتفادى
ضرباتها القاتلة،
التي تنطلق مجنّحة كأنّما تطير،
فتصيب هدفها والدروع
فلا أستطيع أنا أن أتّقي ضرباتها.
إنّي لا أجد درعاً لا يمكن لها أن تحطّمه
ولا ملجأً يحميني من نظراتها
فهي تتربّع على قمّة قلبي
مثل زهرة تتوّج الغصن
ويبدو أنّها تهتمّ بآلامي بمقدار
ما تهتمّ السفينة بدفع الموجة.
إنّ الآلام التي تصيبني بها
لا يمكن لأيّ قافية أن تعبّر عنها.
آه أيّها الحزن القاسي الأليم،
يا من تستهلك بصمت حياتي
لماذا لا تحجم عن التهام
قلبي قطعة فقطعة، كما أحجمت أنا
عن إفشاء اسم من يمنحك القوّة؟
والواقع أنّ خفقان قلبي يشتدّ عندما
أفكّر بها في مكان يراني فيه الآخرون
خشية أن يشفّ ذهني عن أفكار حبّي فتنكشف، هذا
ما أخشاه أكثر من الموت،
لأنّ حبّ يلتهم بأسنانه كلّ أحاسيسي

ولأنّ في أسنانه قوّة
تأكل فكري فيصبح عاجزاً.
لقد هوى بي حبّ إلى الأرض، ثمّ
انتصب فوقي بسيفه الذي قتل به
دويدون، إنّه حبّ الذي أصرخ عليه طالباً
الشفقة، وأبتهل إليه ذليلاً.
لكنّه يبدو مصراً على أن يمنعها عنّي.
يرفع حبّ يده بين حين وآخر ويهدّدني
أنا الذي أوصلني إلى نهاية حياتي الضعيفة،
هذا القاسي
الذي طرحني أرضاً على قفاي
لا أستطيع حراكاً
عندها يحتشد الصراخ في ذهني
وتجري دماء شراييني
وتندفع نحو قلبي كلّما دعاها فيشحب لوني. لقد
جرحني تحت ذراعي الأيسر جرحاً عميقاً
فكان للجرح صدى في قلبي
وقلت لنفسي: «إذا رفع يده فوقي
من جديد، فلا فرار أمامي من الموت
حتّى قبل أن تصل إليّ ضربته».
لو أنّ بوسعي أن أرى حبّ يضرب بهذه الطريقة
وسط قلب هذه القاسية التي حطّمت قلبي!
عندها لن يكون الموت مؤلماً بالنسبة إلي
فأنا أجري نحوه بسبب جمالها:
لأنّ هذه القاتلة المميتة

تضرب سواء تحت ضوء الشمس أو في الظلام. آه،
لماذا لا تصرخ
من أجلي، كما أصرخ أنا من أجلها وسط تيّار
نار الهوى؟
بما أنّي سأصرخ مباشرة: «ها أنذا قادم
لأنقذك»، وسأفعل هذا بكلّ سعادة، مثل من يدسّ
أصابعه بين الشعر الأشقر
الذي جعله حبّ أجعد مذهباً ليزيد من عذابي، وغداً
سأثير إعجابها.
لو تسنّى لي أن أمسك بضفائرها الجميلة
التي انقلبت سوطاً تسلّط عليّ
لقبضت عليها من الصباح
وبقيت معها حتّى المساء، بل حتّى الليل
ولن أكون لطيفاً ولا رحيماً
بل سأفعل مثل الدبّ عندما يمزح.
وإذا لسعني حبّ بسوط تلك الضفائر
فسأنتقم ألف مرّة بمثل ذلك.
لا بل سأنظر إليها عن قريب وأحدّق في عينيها،
فعنهما تصدر الشرارات التي تلهب قلبي الذي قد
مات بالفعل.
عسى أن أنتقم من هروبها منّي
بتقديم السلام لها مع حبّي.
أسرعي يا أغنيتي إلى تلك المرأة
التي جرحت قلبي وسرقت منّي
أفضل ما أشتهي،

واضربيها في قلبها بسهامك
فلا يستعاد الشرف إلّا بالانتقام.

أليس هذا مذهلاً؟ أليس هذا دانتي الذي يعارض نفسه، أو الذي يقدّم على الأقل صورة عن نفسه تناقض تلك التي قدّمها في أبياته لبياتريشه؟ هل هو دانتي الذي يلغي اللطف والحنان والسحر، ويسمح لنفسه أن تذهب في وصف عاطفة جسديّة مشتعلة؟ تتمدّد اللغة، وتشحذ، وتلتفّ، ويبدو أنّها تتبع موجة خطّ الرغبة البيانيّ، الذي لا بدّ أنّ كلّاً منّا قد تبعه خلال حياته. وهو يربكنا دون هوادة، فيقذفنا إلى الأعلى ثمّ يهوي بنا إلى الأسفل. وذلك بكلّ قساوته وتردّداته وتشنّجاته التي تسبّب العرق والشحوب والنار والعذاب والنشوة والخجل، وبكل ضراوته وما يثيره من رغبة ترتعش شوقاً للاستمتاع مثل إرادة وهميّة لكن سامية في التحرّر والتأكيد.

لم يسبق أن وصف الشعر انتقاماً في الهوى بهذه القوّة الوحشيّة. وإذا فكّرنا في دانتي على أنّه من تيّار الأسلوب الجديد، فسيبدو لنا هنا أنّنا أمام ردّة.

لكن الأمر ليس كذلك، ونحن نعلم ذلك.

إنّ العثور على نغمات أنشودته للسيّدة بيترا، يتطلّب منّا التفكير في دانتي شاعر «الجحيم»، وبالصور المتطرّفة والدمويّة والمسمومة التي تزيّن أبياته. ويرشدنا الشاعر من خلال موسيقى «المطهر» الرثائيّة الحزينة وتلك السماويّة والروحيّة التي تنتشر في سماء «الفردوس».

في النهاية يعود دانتي إلى بياتريشه. لكنّه كتب قبل ذلك عن الشغف الغامض والقاتل تجاه الفتاة الصغيرة، وعن ذلك المثير للقلق والغضب تجاه السيّدة بيترا، ممّا سبّب له لوم بياتريشه بشكل جعله يذوب في نهر من الدموع.

وبما أنّه قد كتب ذلك، وأنّ ما كتبه قد أصبح على صفحات الكتب وفي سياق الأدب، فإنّه لم يعد بالإمكان إلغاؤه.

-5-

فرانشيسكا ضدّ بياتريشه

كي يعود ويرى النور، كان على دانتي أن يخرج من غموض الحياة الأرضيّة، من الإغراءات، من الظلام، من الشرّ، أي أن يغادر الأرض ويبدأ رحلة وراء الدنيا، لم يقم بها حتّى أوليسيس وأينيس قبله، وقد وصف رحلتهما كلّ من هوميروس وفيرجيل بأنّها نزول إلى العالم السفليّ. لهذا فإنّ دانتي يحتاج إلى بياتريشه، إلى الحكمة المقدّسة، إلى ذلك الحبّ غير الجسديّ الذي يقدّس النفس، والذي تغنّى بها في صباه. عليه إذاً أن يعود إليها وهو على علم بأنّه قد خيّب أملها وخانها.

لكنّ عليه أن يقطع طريقاً طويلة قبل أن يصل إليها. وقد أدرك مباشرة وهو في «الجحيم»، أي في بداية رحلته، مدى قوّة الإغراءات وهيمنة عواطف الحبّ. وهي المدمّرة، وهي البشريّة.

التقى أوّل من التقى بين الهالكين الملعونين، بالشهوانيّين، أولئك الذين أخضعوا العقل للمتعة، الذين استسلموا أمام قوّة الغرائز الكاسحة. كانت تلفّهم ريح عاصفة سوداء في هبوب لا هوادة فيها، وتدور بهم حول دائرة الجحيم التي يقضون فيها عقابهم الأبدي. رأى بين الهالكين اثنين بين الحشود غير الواضحة يسيران معاً، وليس هناك غيرهما من يفعل ذلك، و«يبدو أنهما خفيفان في مهبّ الريح». والمؤشّر الأوّل على الحال الخاصة لهلاكهما: أنّهما خفيفان، لا يزالان متّحدَيْن في الهوى الذي ربطهما وكان سبب إدانتهما.

طلب دانتي من فرجيليو أن يتمكّن من التحدّث إليهما. فنادى عليهما

بصرخة ودّيّة قويّة. فجاءا مثل حمامتين تحطّان وتخفقان بأجنحتهما فوق عشّهما، تقودهما الشهوة. فهما ما زالا عاشقين رغم كلّ شيء. إنّهما باولو وفرانشيسكا. بقي باولو صامتاً طيلة الوقت، وحاورت فرانشيسكا دانتي، كما في الأنشودة الخامسة من «الجحيم»:

«أيّها المخلوق الرقيق اللطيف، الذي تسير
خلال الجوّ المعتم زائراً إيّانا، نحن الذين خضّبنا
الأرض بالدم.
لو كان ملك العالم صديقاً لنا، لتضرّعنا إليه من أجل
سلامتك، لأنّك تشفق على حظّنا العاثر.
إنّنا سنستمع ونتحدّث إليك عمّا يلذّ لك أن تسمعه
وتقوله، بينما تسكت الريح لنا، كما هي الآن.
المدينة التي ولدت بها تستوي على شاطئ البحر،
حيث يصبّ نهر البو، لكي ينال السلام مع نهيراته.
والحبّ الذي يشعل القلب الرقيق سريعاً، تيّمه
بالجسم الجميل، الذي انتزع منّي، بطريقة لا
تزال تحزنني.
الحبّ الذي لا يعفي محبوباً من مبادلة الحبّ، سيطر
على كياني بلذّة، وهو كما ترى لا يفارقني بعد.
الحبّ قادنا إلى موت واحد: وقابيل ينتظر من أطفأ
سراج حياتنا». حملت منهما هذه الكلمات إلينا
وعند سماعي حديث هاتين النفسين المهيضتين،
حنيت رأسي، ومكثت مطرقاً طويلاً، حتّى قال لي
الشاعر: «ماذا تفكّر؟».
وعندما أجبت، بدأت «واحسرتاه، أيّ خواطر عذبة،
وأيّ رغبة عميقة، أدّت بهذين إلى الطريق الأليم».

ثمّ اتّجهت إليهما، وتكلّمت، وبدأت: «يا فرانشيسكا
إنّ عذابك يستقطر منّي الدمع حزناً وخشوعاً.
ولكن أخبريني: في وقت التنهّدات العذبة، كيف
وبأيّ دليل أتاح لكما الحبّ، أن تتعرّفا على رغباتكما
التي يحوطها الشكّ؟».
أجابتني: «ليس من ألم أشدّ من تذكّر العهد السعيد
وقت البؤس، وهذا ما يعرفه أستاذك.
لكن إذا كانت تحدوك رغبة عميقة، في أن تعرف
أصل حبّنا، فسأفعل كمن يبكي ويتكلّم.
كنّا ذات يوم نقرأ للمتعة، عن لا نتشلوتّو وكيف تيّمه
الحبّ: وكنّا وحيدين لا يخامرنا شكّ.
جعلت تلك القراءة عيوننا تتلاقى مرّات عديدة،
فامتقع لون وجهينا، ولكن كان أمراً واحداً ذلك
الذي غلبنا.
حينما قرأنا أنّ البسمة المرتقبة، قد قبّلها مثل ذلك
العاشق، هذا - الذي لن ينفصل عنّي أبداً-
قبّل فمي، وهو يرتجف كلّه. كان الكتاب وكاتبه هما
جاليوتّو: ولم نقرأ فيه ذلك اليوم مزيداً».
وبينما كانت إحدى الروحين تنطق بهذه الكلمات،
بكت الأخرى بمرارة، حتّى تهالكتُ من الأسى
كأنّي أموت.
وهويت كما يهوي جسم ميّت.

كان لقاء دانتى بفرانشيسكا لقاء شاملاً مليئاً بالألغاز التي يجب حلّها. تزوّجت فرانشيسكا، ابنة غويدو دا بولينتا، سيّد رافينّا، من جان شوتّو مالاتيستا، سيّد ريميني. وقد دبّروا لها هذه الزيجة لأسباب سياسيّة تتعلّق

بالمصالحة بين العائلتين، لكنّ فرانشيسكا هامت بنسيب لها هو باولو، فقتلهما زوجها جان شوتّو خلال مباغتته لهما.

كانت هذه حادثة صاخبة عاصرها دانتى، ولا بدّ أنّه عرف القصّة خاصّة وأنّه كان قد تعرّف إلى باولو مالا تيستا في فلورنسا عندما كان يتقلّد منصب كابتن الشعب بين 1282 و1283. لذلك فما إن بدأت فرانشيسكا الكلام حتّى عرفها، وأخذ يستمع إليها وهو حاني الرأس وقلبه مفعم بالحزن والشفقة.

في هذه الأثناء سكنت ريح جهنّم وابتعدت عن العاشقيْن وأعطتهما فرصة للبقاء مع دانتى: وكان هذا التخفيف في العقوبة، رغم أنّه إجراء مؤقّت، شذوذاً لا يمكن تفسيره، إن لم يكن بأسباب تتعلق باتّساق الرواية: إذ كيف يمكن لفرانشيسكا أن تتكلّم وهي في عين العاصفة؟ فهل تفوّقت إذاً أسباب الشعر والرواية على الأسباب اللاهوتيّة والأخلاقيّة؟ أم أنّ قوّة حبّ هي التي تمكّنت من تخفيف العذاب على هذين المخلصيْن له؟ من المؤكّد أنّ هذا قد سبّب ارتباكاً آخر لدانتى.

أرجوك الآن أن تلاحظ أنّ لغة فرانشيسكا في القسم الأوّل من حديثها تميل إلى لغة الشعر المعروفة عن «الأسلوب الجديد»: «الحبّ الذي يشعل القلب الرقيق سريعاً» يبدو أنّه بيت يمكن أن ينسب إلى غويدو غوينزيلّي، أو إلى غويدو كافالكانتي، أو إلى دانتى في شبابه. لأنّه بيت من أبيات مخلص لحبّ.

وسنعرف بعد ذلك مباشرة أنّ فرانشيسكا هي من القرّاء المواظبين على روايات دورة بريتونه[56]، وربّما كانت كذلك بالنسبة إلى أشعار «الأسلوب الجديد». وقد استطاعت بفضل هذا الشعر أن تلخّص قصّتها بكلّ روعة، وحتميّة عواطفها السريعة، وقوة تبادل الهوى، والجرح المأسويّ الذي يسبّبه حبّ عندما يقترن بالعنف والموت.

وَنرى أنّ دانتى الذي يشارك في آلام العاشقيْن يريد أن يعرف المزيد.

56- أمور بريطانيا أو The Matter of Britain وبالإيطاليّة ciclo bretone أو دورة أرثور، أي مجموعة الأساطير وخرافات الجزر البريطانيّة وخاصة المنسوبة إلى الملك أرثور وفرسان الطاولة المستديرة. (م) عن ويكيبيديا

فلا تتراجع فرانشيسكا، رغم عظمة أوجاعها عندما تحاول أن تتذكّر أزمانها السعيدة بعد أن هَوَيَا إلى قعر التعاسة.

كان الزمن السعيد بالنسبة إلى فرانشيسكا هو زمن حبّها. زمن الزنا. إنّه أمر مروّع، لكنّها ما زالت تعتقد أنّ هناك سعادة في الخطيئة.

لا أعرف فيما إذا كان دانتى يريد أن يبني أسطورة لفرانشيسكا، مثل تلك التي بناها لبياتريشه. لكنّه بناها بالفعل. بناها وهو يعارض القوانين الأخلاقيّة والنظام الاجتماعيّ، وصنعها بيتاً وراء بيت، وصورة بعد صورة، وركّز فيها كلّ ما في الشعر والرواية، كلّ ما في الأدب.

وقد أعلنت فرانشيسكا أنّه من المنتظر وصول زوجها القاتل إلى كاينا، في قاع الجحيم الجليديّ، حيث رمي بأرواح من خانوا أزواجهم. وليس لدى دانتى ما يعترض عليه: فالخائن الحقيقيّ هو الزوج الخائن المليء بالكراهية والوحشيّة.

أمّا الحبّ، وكلّ ما يتمّ فعله من أجل الحبّ، فلا يمكن أن يدان، إن لم يكن من الناحية الرسميّة، ضمن الحزمة اللاهوتيّة التي يقوم دانتى الآن بتأمين رحلته فيها إلى العالم الآخر.

لكنّه لا يمكن لكلمات فرانشيسكا أن تكون واضحة بعد: فهي تبرّر عواطفها بدعم من شعر الأسلوب الجديد وروايات دورة بريتونه، ومن قوّتها الشهوانيّة التي لا تخشى أن تنقلب إلى قوّة زندقة، ذلك وهي تؤكّد أسبقيّة حبّ وبراءة المخلصين له.

وهكذا فإنّ فرانشيسكا هي ضدّ بياتريشه. إنّها الإخلاص لقدر من الحبّ والموت عاشته في مسرّات الجسد وضمن مأساة قوانين الأخلاق. كما أنّ فرانشيسكا تعارض حتّى ضمن محبّتها للأدب قساوة بياتريشه التي لا نعرف حتّى فيما إذا كانت تقرأ الشعر، أو قصائد عشيقها على أقلّ تقدير.

إنّ دانتى ينحاز، في هذا الظلام الجهنميّ العاصف، إلى جانب فرانشيسكا. وهو يتماهى معها. ويشعر بنار كلّ أهوائه الحارقة. لقد كان يعرف أحسن المعرفة «الأفكار الحلوة» والرغبات العاتية التي تؤدّي إلى الخطوة المؤلمة المتمثّلة بخطيئة الجسد، تلك الخطوة المليئة قي حدّ ذاتها

بالمتعة، وهو يجد الآن كلّ هذا أمامه. إنّ الشفقة التي يشعر بها هي أيضاً شفقة على نفسه، تتجلّى في تضخّم المشاعر وسيلان الدموع ممّا يجعله يسقط عند قدمي فرانشيسكا، «كما الجسد الميّت يسقط»، مثل شخص ما إن يظنّ أنّ الحبّ الحسّيّ هو أمر مدان، حتّى يموت في داخله، ويشعر أنّ الحياة أخذت تنزلق بعيداً عنه، وأنّها ستنهار تحت وطأة تناقضاته.

فرانشيسكا ضدّ بياتريشه.

العقل، ويقول فيرجيليو لدانتي إلى أين عليه أن يواصل رحلته. لكنّ بعضاً منه بقي هناك، حيث كانت حتّى الريح الجهنّميّة قادرة على أن تكون لطيفة مع أولئك الذين أحبّوا حتى ماتوا بسبب حبّهم، وحيث الكلمات التي يقولها حبّ في الكتب، في الأدب.

إنّ شخصيّة غريس هي مثل بياتريشه إلى حدّ ما، نقيّة، كريمة، مليئة بالعذوبة، لكنّها أيضاً بياتريشه الطريق، قويّة، قادرة على إلقاء اثنين من المتحرّشين أرضاً، وتصفية عاشق غبيّ نوعاً ما.

غير أنّ غريس هامت بدانتي من خلال كلمات فرانشيسكا، عندما شعرت بسحر الأدب الشبيه بالرغبة واللذة.

على كلّ فهناك سبب يكمن وراء تسميتها باسم غريس، أي النعمة. فقد تمكّن دانتي بواسطتها من أن يجد فداء له، وأن يرى بصيص أمل وسرور في ظلام تعاسته، الآن وقد مُسخ إلى مجرّد ظلّ بائس تعيس.

إنّ دعوة الجسد قويّة. هكذا أنشد والت ويتمان، الشاعر الذي أحبّ الكتب المقدسة أكثر من أيّ شخص آخر، وأحبّ قبلها «الكوميديا»، وها هو يقول في قصيدة بعنوان «الدعوة الأخيرة»، يخاطب بها روحه عندما شعر أنّها على وشك الانتشار والخروج من الجسم، من «بيت محكم التحصين»:

... - بهمسة

أنت تفتحين الأبواب يا روحي.

بهدوء - لا تكن عجولاً

(قويّة قبضتك، أيّها الجسد الفاني،

قويّة قبضتك، يا حبّي).

وقد بقيت قويّة حتّى النهاية على ظلّ دانتى قبضة الجسد والحبّ وذكرى عواطف فرانشيسكا، قويّة شديدة الإحكام. مثل قبضة المعرفة والخلود التي طوّقته بإحكام أيضاً. لهذا فهو يقضي تلك العقوبة الغريبة. وقد بقيَ متردّداً يرزح تحت العذاب حتّى النهاية، وبقي يناقض نفسه حتّى النهاية: فهل من الأفضل أن يستعيد ثوب جسده أو أن يستعيد ثوب نوره؟

فرانشيسكا أو بياتريشه؟

-6-

جنون الماضي

هذه هي الأبيات الوحيدة التي جاءت باللّغة البروفنساليّة في «الكوميديا»، الملحمة التي تجتمع فيها كثير من اللّغات واللهجات والنبرات والأساليب. نحن هنا في الأنشودة السادسة والعشرين من كتاب «المطهر»، حيث يقضي مرتكبو خطايا الحبّ كفّارتهم:

لقد أحببت سؤالك اللطيف،
لدرجة أنني لا أستطيع ولا أريد أن
أخفي نفسي عنك.
أنا أرنالدو، الذي يبكي وهو
يغنّي. بكدر أرى جنون الماضي
وبفرح أرى أمامي الفرح الذي أتمنّاه. إنّي الآن
أرجوك باسم تلك المثل التي ترشدك
إلى قمّة السلّم، أن تتذكّر آلامي في الوقت المناسب.

هذا ما يقوله آرنو دانييل قبل أن يختبئ بين «ألسنة النار التي تطهّره». كان آرنو تروبادوراً[57] بروفنساليّاً عاش في النصف الثاني من القرن

57- تروبادور تعبير من القرون الوسطى يوصف به شعراء متجوّلون يتلون الشعر أو يعزفون موسيقى أندلسيّة وخاصّة في قصور الملوك وعليّة القوم في جنوب فرنسا ومملكة آراغون.

الثاني عشر، وكان سيّد أسلوب «تروبار كلوز»[58]، أي ذلك الأسلوب القاتم والصعب الذي نظر إليه حتّى دانتي باهتمام وإعجاب. وقد تاب آرنو عن خطاياه في الحبّ، وإلّا فلن يكون في المطهر. وكان يتحدّث عنها على أنّها من «جنون الماضي».

عندما وصل إلى قمّة جبال المطهر، واقترب من وضع قدمه في جنّة الأرض، حيث فقد فرجيليو ووجد بياتريشه، ليبدأ بعدها صعوده نحو السماء، أصبح بوسع دانتي أن يشارك الكلام الذي سبق أن وضعه على فم سلفه.

فهو أيضاً يحمل على كتفه جنوناً من ماضيه، وما زال لا يعرف كم ستذلّه بياتريشه بسبب ذلك، حتّى تبكيه. وهو أيضاً سيبكي وسيسير وهو يغنّي: فهذا هو القدر الرهيب والرائع المقدّر على جميع الشعراء.

جنونه الماضي هو كلّ عبء أهوائه الأرضيّة التي عليه أن يندم عنها: وهو يعرف مدى صعوبة هذا الأمر، خاصّة بعد أن رأى ذلك لتوّه في تضحية فرانشيسكا.

لكنّ هناك في عبء الأهواء الأرضيّة حيّزاً للشعر. فكيف له أن يندم على هذا؟ كيف يمكن له أن يتبرّا منه، خاصّة أنّه لم يصعد الآن نحو هدفه الأخير، نحو رؤية الله، إلّا من أجل الشعر ومن خلال الشعر؟

إنّ دانتي يعرف أنّ عليه كي يرى الله أن يتخطّى ما هو بشريّ. ولهذا فهو يصكّ في بداية «الفردوس» فعلاً أساسيّاً وضروريّاً للتعبير عن الأمر: «التسامي فوق البشريّ»[59].

لا يمكن للّغة أن تقدّم تعريفاً عقلانيّاً لهذا التخطّي للحدود، ولتجاوز الحال البشريّة، ولهذا التقرّب من الله. وهكذا فإن دانتي يقتصر على التشبيه والرمزيّة، الذي يملأ كتاب «الفردوس»، والمأخوذ من الأساطير اليونانيّة عبر مصفاة «تحوّلات أوفيد»: فعندما يكون على وشك التسامي فوق الحال البِشريّة، يشعر أنّه أصبح مثل كلاوغو، الصيّاد الذي يتحوّل إلى إله البحر بعد أن يتذوّق خصلة من الأعشاب السحريّة.

58- «تروبار كلوز» Trobar clus أو الصيغة المغلقة كان أسلوباً في الشعر موجّها إلى نخبه قليلة ولا يتذوّقه إلّا القليلون. (م) عن ويكيبيديا

59- «trasumanare». «Transhuman»..

فهل يمكن أن يكون في هذا إشارة مستترة، أو ربّما غير مرغوب فيها، إلى نوع من الجرعات التي كان دانتى يغذّي بها قوّة بصيرته، خاصّة أنّه كان على علاقة برابطة الأطبّاء والعطّارين؟ على كلٍّ تبقى حقيقة أنّ الفردوس، وهو مملكة اللّاجسد، اللّامادّيّة، والكرات المضيئة التي تنزل من سماء إلى سماء بأنوار تضاعف قوّته في البداية ثمّ تجعل منها ألف قوّة، قبل أن تصبح تألّقاً لا تطيقه العيون، وقادراً على إرسال لحظات من الهلوسة إلى قرّائه: ألم يحدث لك ذلك؟

أنا حدث لي.

حتّى بياتريشه لم تعد تكفي لرؤية الله، فهي تختفي فجأة وتضع مكانها إلى جانب دانتى «شيخاً»، عجوزاً يحلّيه رداء المباركين الأبيض، تعلوه معالم سرور وطيبة، ونظراته جاهزة لمدّ يد العون، «كما هي حال الأب الشفوق»، كما كتب في الأنشودة الواحدة والعشرين.

إنّه القدّيس برناردو كليرفو[60]، ذلك بالضبط الذي يعتبر ملهم فرسان المعبد. وقد خصّصت له الخطوة الأخيرة، أي دعاء إلى العذراء مريم عسى أن تشفع لهذا الحاج السماويّ فيسهل عليه توجيه نظره إلى الله.

إنّ صلاة سان برناردو التي جاءت في الأنشودة الأخيرة هي من أسمى لحظات «الكوميديا» والشعر العالميّ، وذلك بتعابيرها التي تتوهّج فيها السفسطة والمفارقة أمام نار أسرار التجسّد:

أيّتها الأمّ العذراء، يا ابنة ابنك،
أيّتها المتواضعة أنت أسمى من جميع المخلوقات...

لكنّ هناك نقطة لا يمكن عدم التأكيد عليها. إذ يرجو القدّيس ماريّا: «فلتحرس عينك أعمال البشر»، أي فلتشمل حمايتك عواطف دانتى البشريّة حتّى يتمكّن من التغلّب عليها إلى الأبد.

يا إلهي، لقد أصبحنا في السماء، على أعتاب رؤية الأبديّ الخالد، ورغم

60- Bernardo di Clairvaux

ذلك فإنّ دانتي لا يزال بحاجة إلى شخص هناك يهزم له «أعماله البشريّة»، ويشذّب مشاعره كرجل، ودوافعه، وعواطفه. لا بدّ أنّ متاع الحبّ الدنيويّ كان ثقيلاً جدّاً ومرهقاً حملُه، إذا لم يكن المرء قد تخلّص منه بالكامل. ولا بدّ أنّ جنون الماضي كان كبيراً بالفعل.

على دانتي الآن القيام بالخطوة الأخيرة. عليه أن ينسى كلّ شيء، وأن يقبل كون لغته غير مناسبة لما يجب أن يصفه كما هي لغة الرضيع «الذي لا يزال يبلّل لسانه بالثدي»، ذلك قبل أن يبحر ببصره في سرّ الله الواحد الثالوث:

في جوهر النور الإلهيّ العميق والمضيء،
ظهرت لي ثلاث دوائر بثلاثة ألوان مختلفة، ولكنّها بالحجم نفسه. وبدا لي أنّ الواحدة منها هي انعكاس من الأخرى مثلما ينعكس قوس قزح من قوس قزح آخر، وظهرت الثالثة كأنّها نار تمتدّ بالطريقة نفسها من الدائرتين الأوليين (وبالتالي: على كلا الجانبين).
أوّاه، كم هي قاصرة وغير كافية كلماتي بالنسبة إلى معانيها! بل إنّها، مقارنة بما رأيته، قاصرة جدّاً لدرجة أنّ كلمة «قليل» لا تكفي للإشارة إلى ذلك (ينبغي إذاً أن أقول «لا شيء»). أيّها النور الأبديّ أنت واحد أحد في تماسكك، وأنت تفهم نفسك وحدك، فتحبّ وتفرح في فهمك وفي أنّه تمّ فهمك! وبعد أن نظرتُ لبعض الوقت حول تلك الدائرة، ظهر لي أنّ هناك في داخلها صورة بشريّة ملوّنة بلونها نفسه،
فتثبّتت عليها نظراتي جميعها.
وكما يركّز المهندس ذهنه بكلّ طاقة فكره، ليجد مقاس الدائرة الصحيح، ومهما رأيتَ أنّه لا يجد البداية التي يحتاجها، فكذلك كنت أنا في الوضع نفسه إزاء

تلك الرؤية الخارقة: إذ كنت أريد أن أستوعب كيف
يمكن للصورة البشريّة أن تتكيّف مع شكل الدائرة،
كيف يمكن لها أن تجد فيها مكاناً لها (أي أنّي كنت
أريد أن أفهم سرّ تعايش الطبيعة البشريّة والإلهيّة في
المسيح). لكنّ جناحيّ لم يكونا قادرين على التحليق
إلى ذلك العلوّ، كما أنّ ذهني صُدم بإضاءة تحقّق له
بواسطتها كلّ ما كان يرجوه.
في هذه المرحلة، وبعدما ارتفعت قدرة التخيّل إلى
هذه الدرجة، أصبحت تفتقر إلى القوة الضروريّة
(لمتابعة العقل في هذا الحدس): لكنّ كلّ رغباتي
وكلّ إرادتي كانت قد تحرّكت بالفعل، كأنّها عجلة
تدور بحركة موحّدة، حرّكها الله، هو الحبّ الذي
يعطي الحركة للشمس وغيرها من النجوم.

تنتهي المحاولة الأسمى لوصف سرّ الله، والثالوث، والتجسّد، بسطوع وميض نورٍ باهر على ذهن الشاعر، فيشبع جوعه للمعرفة، ويجعل رغبته وإرادته، اللتين تتحرّكان كما لو على عجلة كبيرة، تتناغمان مع الحركة التي يؤثّر الحبّ بها في الكون، وهو الطاقة التي تحرّك الشمس والنجوم.

هذا الحبّ الذي كتب عنه أوسيب ماندلشتام[61]، وهو يفكّر مليّاً بـ «الكوميديا» التي كان يرى فيها عزاءه الوحيد خلال فترة سجنه الرهيبة، وذلك في «محادثة حول دانتي» (1933)، أنّه «يحرّك كلّ شيء، يحرّك هوميروس، ويحرّك البحر».

كانت رحلة بدأت بالحبّ عبر طرقات فلورنسا خلال القرن الثاني

61- أوسيب ماندلشتام Osip Mandelstam شاعر وكاتب روسيّ من أصل يهودي. قُبِضَ عليه من قبل حكومة ستالين خلال قمع الثلاثينيات وأُرسِل إلى المنفى الداخلي مع زوجته.

عشر، ووسط حلقة أصدقاء شعراء يتقدّمهم كافر رائع أخّاذ، وانتهت بحبّ كونيّ لله.

وهكذا فقد سمحت لنفسي بحرّيّة التفكير -أليست حرّيّة التفكير هي مصدر كلّ خيال؟- وأنّ روح دانتى طارت في 13 أيلول 1321، وهي ترتجف، إلى سيّد الكون وأنّه استقبلها. لكنّي عندما فكّرت كم كان شديداً جنونُ الماضي في الشاعر، فإنّي ذهبت إلى أبعد من ذلك وتخيّلت أنّ سيّد الكون قد أبعده، عقاباً نوعاً ما على أفعاله، وحوّله إلى ظلّ بين الأحياء، وذلك في 25 آذار، أي في اليوم الذي عيّنه دانتى كبداية لرحلة عيشه حيّاً بين الظلال.

أصبح دانتى ظلّاً، شبحاً، خيالاً لكنّه يتمتّع بجميع «حركات البشر»، أي أنّه يشعر، يفكّر، يتذكّر، يرغب.

على أنّ الحبّ بقي يحرّك كلّ شيء فيه، حتّى خلال حياته كظلّ، حياته المقصومة، البائسة، الليليّة. لكن أليست -ويا للأسف- تلك حال حياتنا في كثير من الأحيان؟

كنت أكتب، مكمّماً في عزلتي، مثل ظلّ بين الظلال، يحيط بي سكون واقعٍ مريض مقفر، وأنا أتساءل كيف عليّ أن أختتم هذه القصّة: هل يجب إدانةُ ظلّ دانتى والحكم عليه بالتجسّد، وبالبقاء بين أواخر أهل الأرض، مثل ذلك الملاك المتشرّد أرييل الذي طلب أن ينزل ليحلّ في الجسد؟ أم يجب تركه ليطير إلى السماء، نحو بياتريشه، وهذه المرّة إلى الأبد؟ لم أتّخذ أنا أيّ قرار. بل تركت لك ذلك الامتياز الصعب، أي الاختيار.

الشيء الأكيد الوحيد هو أنّ دانتى لن يستغني عن الحبّ، سواء كان حبّ فرانشيسكا أو حبّ بياتريشه. ومهما كان مصير ظلّه فإنّه لن يتنازل عن الإله حبّ.

-7-

أنا على الدوام متيّمٌ

هذا الرجل العملاق، المجنّح بأكثر ممّا يوحي به لقبه[62]، والذي يكفي اسمه الأوّل ليشير إليه، على الأقلّ من بين شعراء الغرب (ولنذكر مثلاً شكسبير، غوته، هوغو، ويتمان، إذ لا يكفي بين هؤلاء ذكر وليام، وولفجانج، فيكتور، والت...)، كان له عقل وقلب ينفعلان برغبات لا حدود لها، تجنح نحو المعرفة والحبّ.

جرّب دانتي ووصف كلّ شيء. جمع في نفسه أشياء كما يفعل أيّ شاعر آخر. بياتريشه والسيّدة بيترا. بياتريشه وفرانشيسكا. النار بشياطينها وحشود الخطّائين. المطهر ومرثيّات أحزانه الإنسانيّة التي تهيمن على التائبين. الفردوس بإشراقات دوائره التي تظهر فيها النفوس المباركة، وبالقدّيسين، بالملائكة، بسرّ الله الواحد والثالوث.

وقد ساعده الشعر على هذا كلّه. مفهوم شموليّ للشعر، أصبح أوّل لغة لحبّ.

في الأنشودة الرابعة والعشرين من المطهر، التقى دانتي بشاعر من مدينة لوكا هو بوناجونتا أوربيتشاني، وكان بين الذين يكفّرون عن خطيئة الشراهة، فتنبّأ له بأنّ امرأة شابّة، لم ترتدِ بعد وشاح العرائس، تدعى جونتوكّا -ولن يعرف أحد عنها غير ذلك- مقدّر عليها أن تجعله يرضى بمدينته.

وماذا يمكن أن يرضي في مدينة ما، حتّى في يومنا هذا، أكثر من لقاء حبّ؟

62- Alighieri، من aliger

ثمّ تلا عليه أوّل بيت من أغنية مركزيّة في «الحياة الجديدة»: «يا امرأة فيك عقل الحبّ» وسأله فيما إذا كان هو المؤلف. وقد ذهبت إجابة دانتي لتبقى مشهورة:

فقلت أنا له: «أنا رجل أعبّر
عما يلهمني به حبّ في داخلي
بعد أن أحيط بذلك علماً».

إن حبّ هو الجوهر والمحرّك والمركز الحيويّ للشعر. فالله يلهم ويحرّك طاقات العقل والروح، ثمّ يأتي الشاعر لينسخ بقلمه إملاءات داخله، ويلتزم بها، ويتمسّك بها، ويخلص لها.

فالإخلاص لحبّ هو شرط أساسيّ في الشاعر، وهذا ما يثبته دانتي بعمله الضخم.

ولا يهمّ كثيراً بعد ذلك إن كانت موجودة أم غير موجودة، تلك الطائفة السرّيّة المسمّاة: «المخلصون لِحبّ». هذا بالإضافة إلى تلك الحلقة من الشعراء الشباب المتحمّسين الذين كانوا يعيّنون بعضهم بعضاً.

ولا يهم أيضاً فيما إذا كان دانتي قد مكث في باريس عام 1309 (ولماذا لا نصدقّ ذلك بما أنّ بوكّاتشو وجوفانّي فيلّاني قد كتبا عن الأمر؟). وأمّا أن تكون من ثمرات خيالي رؤيته هناك بعد ذلك لحريق المهرطقة مارغريت بوريت، ولقاؤه في حارة سترامي بحكيم صوفيّ من تلامذة الرومي أو السهروردي، فهذا لن يكون بدون «محاكاة للواقع» التي اعتبرها أرسطو -إذا أردنا الإشارة إلى فيلسوف عزيز على دانتي- في كتاب «الشعر» من المتطلّبات الأساسيّة لكلّ سرد روائيّ.

لأنّ ما يهمّ حقّاً هو أنّ دانتي كان مخلصاً لحبّ، ذلك أنّه جعل حبّ ينتصر دائماً على الكراهية والغضب والغطرسة والكبرياء والدمار والمعاناة والترفّع واليأس التي كانت غالباً ما ترتهن وجوده الفاني ضمن أحاسيسها الصغيرة... ذلك كما أنّها ما زالت ترتهن أحياناً وجودنا نحن أيضاً... كان يصغي إليه، ثمّ ينسخ بدقّة وخفقان ما يسمعه منه في معجزة شعره، جسديّاً كان أم روحيّاً، دنيويّاً أم إلهيّاً.

وقد كتب خورخي لويس بورخيس ذات مرّة، ولا أذكر أين، لكنّ موسيقى القافية بقيت في ذاكرتي وتأبى أن تمّحي:

Yo soy continuamente enamorado.

أنا على الدوام متيّم

شكراً لك أيّها المعلّم، فأنا أيضاً في حالة حبّ باستمرار. إنّي لست قزماً، بل أقلّ من ذلك، أنا ورقة جافّة على كتفي دانتي، على ظلّه الذي تجرّأت على تخيّله، وتجرّأت على إعطائه صوتاً يتكلّم به. سوف يغفر لي، قد يضحك على ذلك وهو يفكّر: «من هذا الذي جعلني أقول إنّني في حبّ؟ من وصفني بإنّي ظلّ بائس وفي حبّ على أعتاب بناء سان جيوفانّي الجميل وعبر شوارع مدينتي القديمة؟».

شكراً يا دانتي على شفقتك.

إنّنا نقرؤك في القرن الواحد والعشرين، على بعد سبعمئة سنة منذ حلّقت روحك أمام سيّد الكون، وسنبقى نقرؤك ما دام النوع الإنسانيّ موجوداً. وستبقى أنت تحدّث الأرواح، وتبرهن على أنّ كلّ شيء سيتمّ حلّه في الرحلة الشاقّة من الظلام إلى النور، وفي المحبّة، وفي عمليّة المحبّة، وهي شكل من أشكال الطاقة التي لا تمتلك ما هو أقوى منها لا الرياح ولا الشمس.

هكذا فكّرت في نهاية الأمر، وأنا سجين في كهف من الكتب، يسيطر عليّ ويخنقني الألم والخوف عليّ وعلى أحبائي، والشفقة على كثيرين ماتوا، وأنا أشعر بالوحدة والارتباك والغضب.

كنت أظنّ أنّه يمكن الخروج من الظلام. وأنّ الموت لا ينتصر. وأنّ الفردوس لم يُفقد. وأنّ الشعر، هذه الفتاة الهرطقيّة، الوقحة، العاشقة، قد يتيح لنا أن نرى ضوءاً في آخر نفق أعماق جحيم حياتنا، شعاعاً ولو باهتاً من نور ذهبيّ.

النّهاية

مختصر السيرة الذاتيّة للمترجم

نبيل رضا المهايني
2021



- من مواليد دمشق 1944.
- أقام في إيطاليا للدراسة، ثمّ العمل، بين عامي 1963 و1986.
- تخرّج عام 1968 من فرع ديكور المسرح والتلفزيون في أكاديميّة الفنون الجميلة في مدينة فلورنسا.
- تخرّج عام 1971 باختصاص علوم الرأي العام - إخراج تلفزيون وسينما، من جامعة الدراسات الاجتماعيّة في روما.
- عمل، قبلها وبعدها، في مجالات التلفزيون والسينما في روما، ومراسلاً لكثير من المجلات الأدبيّة والعامّة العربيّة، من فلورنسا وروما.
- ترجم وقتها، وفيما بعد، عدّة كتب عن الإيطاليّة. وقد نُشر كثير منها في بيروت ودمشق وبغداد.

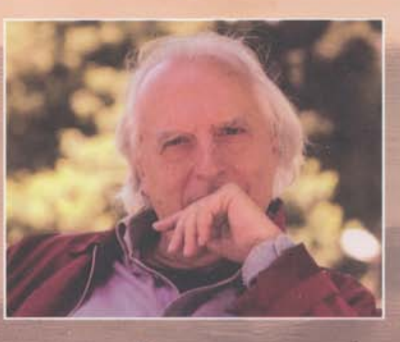
- أخرج أفلاماً لصالح التلفزيون الإيطالي ثمّ كثيراً من الأفلام التلفزيونيّة، في مختلف المجالات الوثائقيّة والبيئيّة والإرشاد الزراعيّ، حاز بعضها على جوائز في مهرجانات دوليّة وعربيّة.
- يعمل منذ عام 1983 خبيراً لدى الصندوق الدوليّ للتنمية الزراعيّة – إيفاد، في روما بداية، ثمّ في دمشق.
- يعمل الآن ممثّلاً ميدانيّاً لإيفاد في سورية.

الفهرس

أشعر بالحنين إلى النيران، إلى النجوم، إلى أشياء كثيرة أخرى.

أوه، انظر من القادم، يا لهذا الشعر الأشقر والأجعد على رأسها، كالبنات اللاتي يجذبنني بالفعل، كما كنّ حقّاً يجذبن أيضاً صديقي غويدو. ما أجمل ميس هذه الخطى، ستكون أمامي بعد برهة. سأشير إليها بالتحيّة، لا شيء مثير حقّاً، إشارة وكفى. فهي لن تراني، في كلّ الأحوال.

جميل أن أرى الآن كثيراً من الناس وقد عادوا إلى هنا حولي. لأنّ أمراً جللاً لا بدّ أنّه حدث في العام الماضي في هذه المدينة، أو ربّما في جميع أنحاء العالم، ولم أفهم ما هو. كأنّ تهديداً غامضاً كان قد جاء، ولا أحد يعرف من أين جاء، أثقَلَ الهواء فجعله غير صالح للتنفّس.



لم يكن يوجد أحد هنا. كانت أبواب جميع المتاجر تقريباً مغلقة، وأضواء واجهات المتاجر مطفأة، ثمّ حطّت طيور النورس فوق الساحة، كأنّها بقع بيضاء وسط غبار الظلام. لم يكن أحد وقتها قادراً على الدخول إلى الكاتدرائيّة أو إلى المعموديّة. بينما كان المارّة القليلون يخفون وجوههم، كانوا يضعون قطع قماش زرقاء أو بيضاء على وجوههم، وكلّ منهم منزو لوحده، كأنّه يخشى الاقتراب من الآخرين. فكّرت حينها وقلت في نفسي إنّه نوع من الكرنفال، كرنفال شديد عنيف، كرنفال الموت.

هذا لا يعني أنّني أحبّ الصخب، والحشود، واختلاط اللغات كاختلاطها في بابل، ممّا يجري حولي الآن من جديد. لا، بل هو من أجلهنّ، من أجل الجميلات الموجودات وسط الحشود، من أجل قسماتهنّ التي يمكنني أن أراها مرّة أخرى. كثيرات هنّ الجميلات، وهنّ مختلفات، لا ينقطعن أبداً عن تجريح قلبي.


9 789933 655730